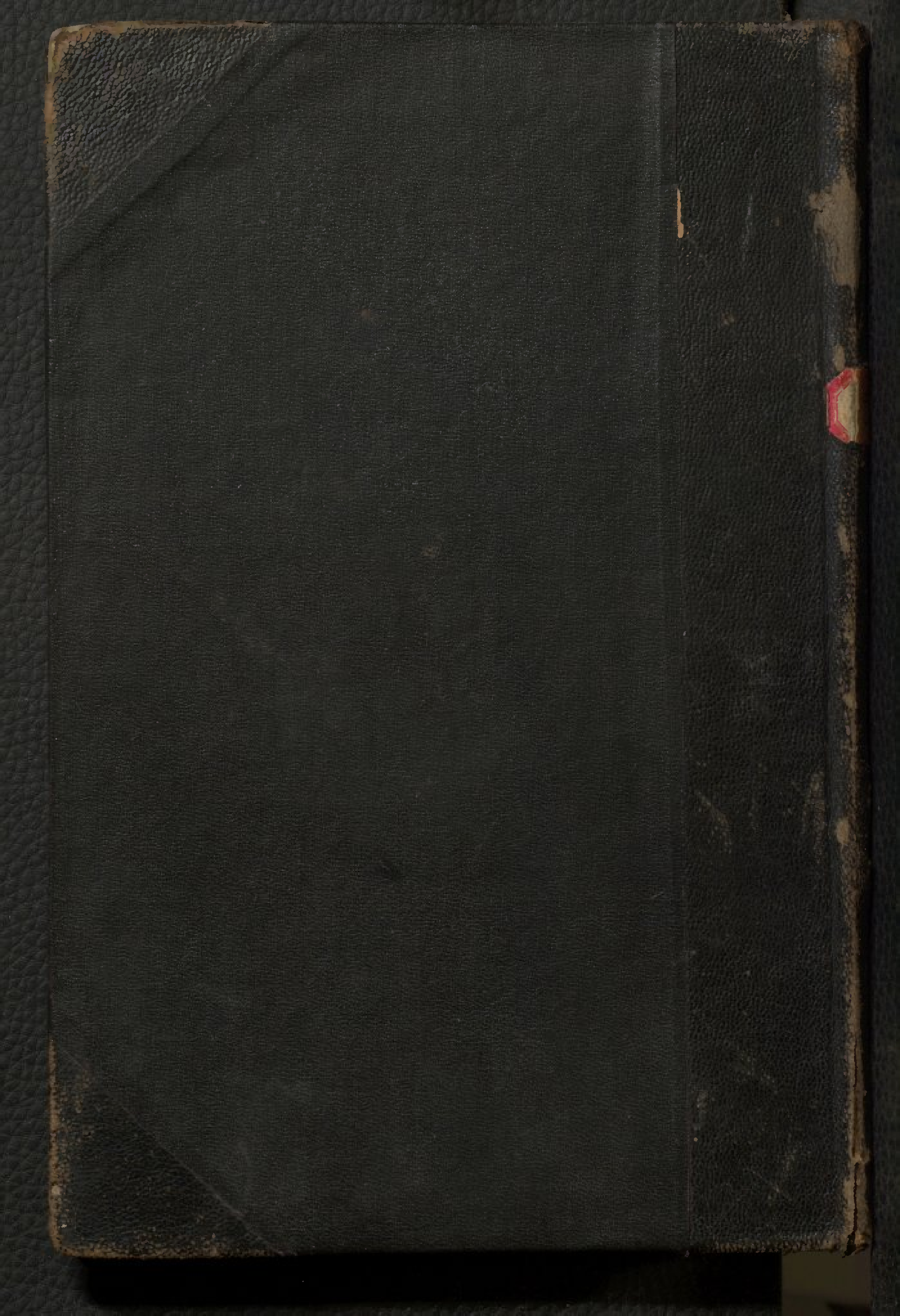
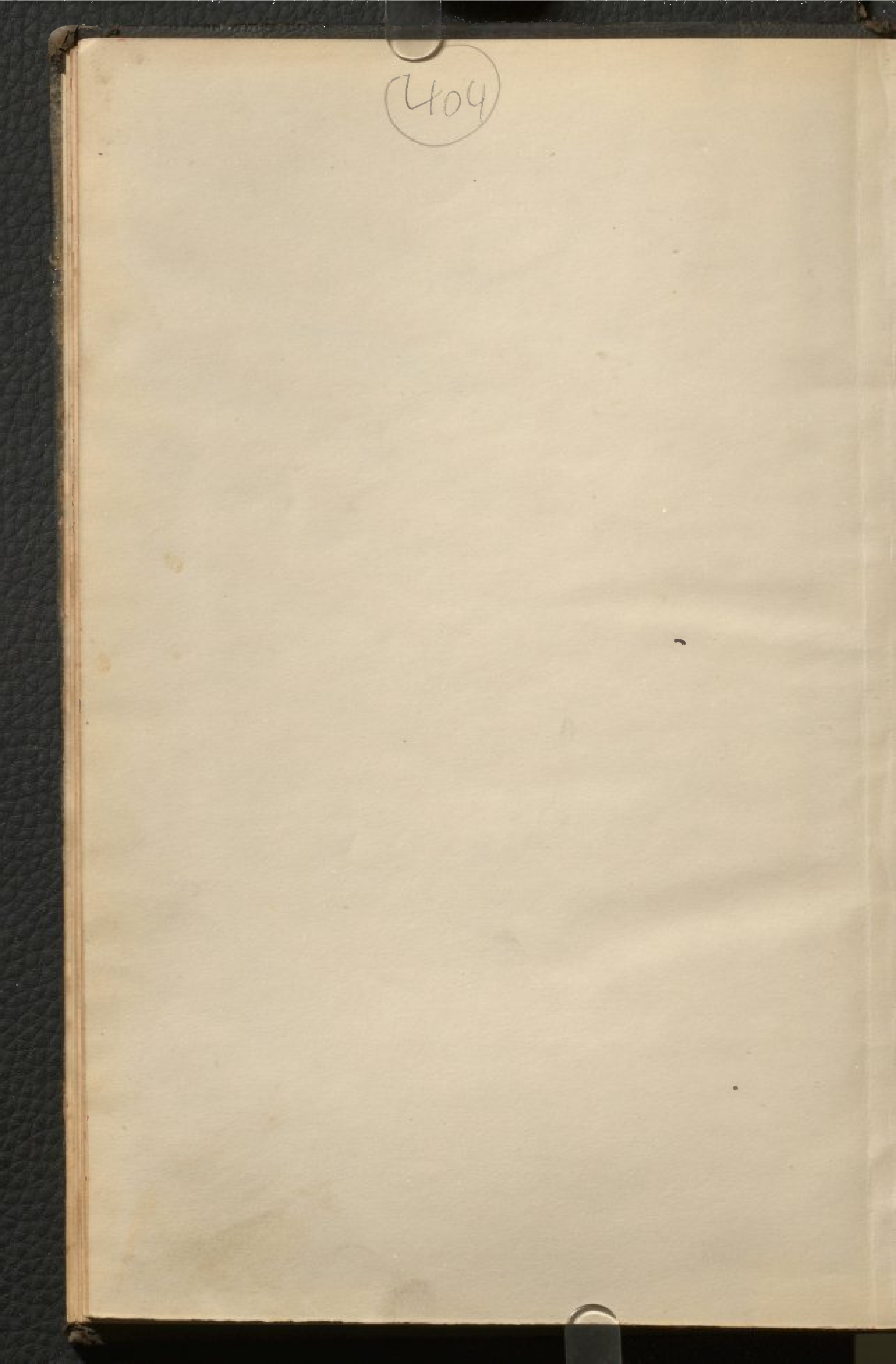
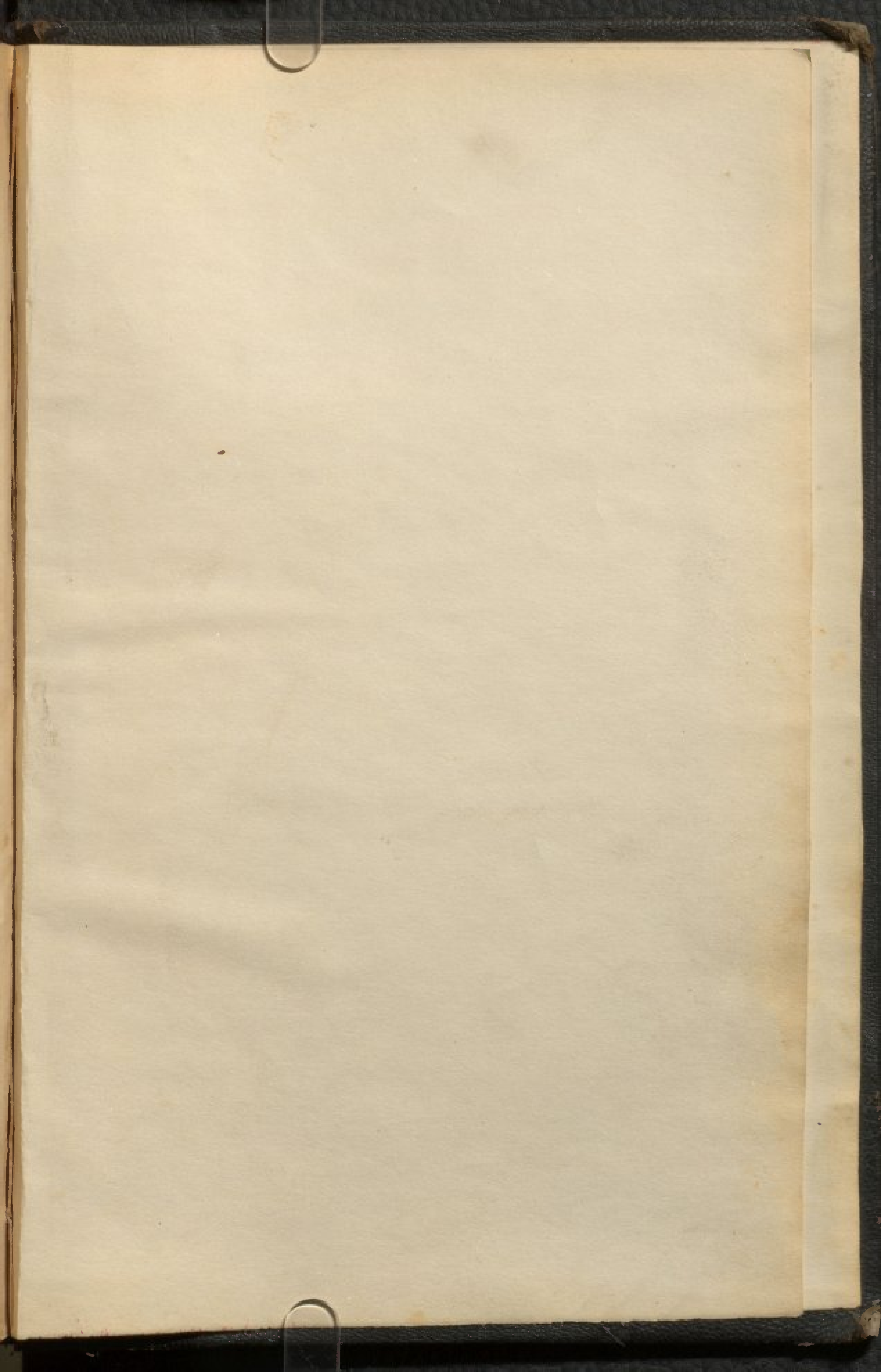






Thackery, Dickens & Doyle



ترجمها

محمد السباعي

مجموعة انتقادات على الشرائع والنظامات والاخلاق في قالب روائي شائق

وهى خلاصة الكتابات التى اثارها مفكرو أوربا حول

(نظام التعليم) (ونظام الزواج) (ونظام المعيشة)

وبحسبك انها لثلاثة من مشيخة الروائيين

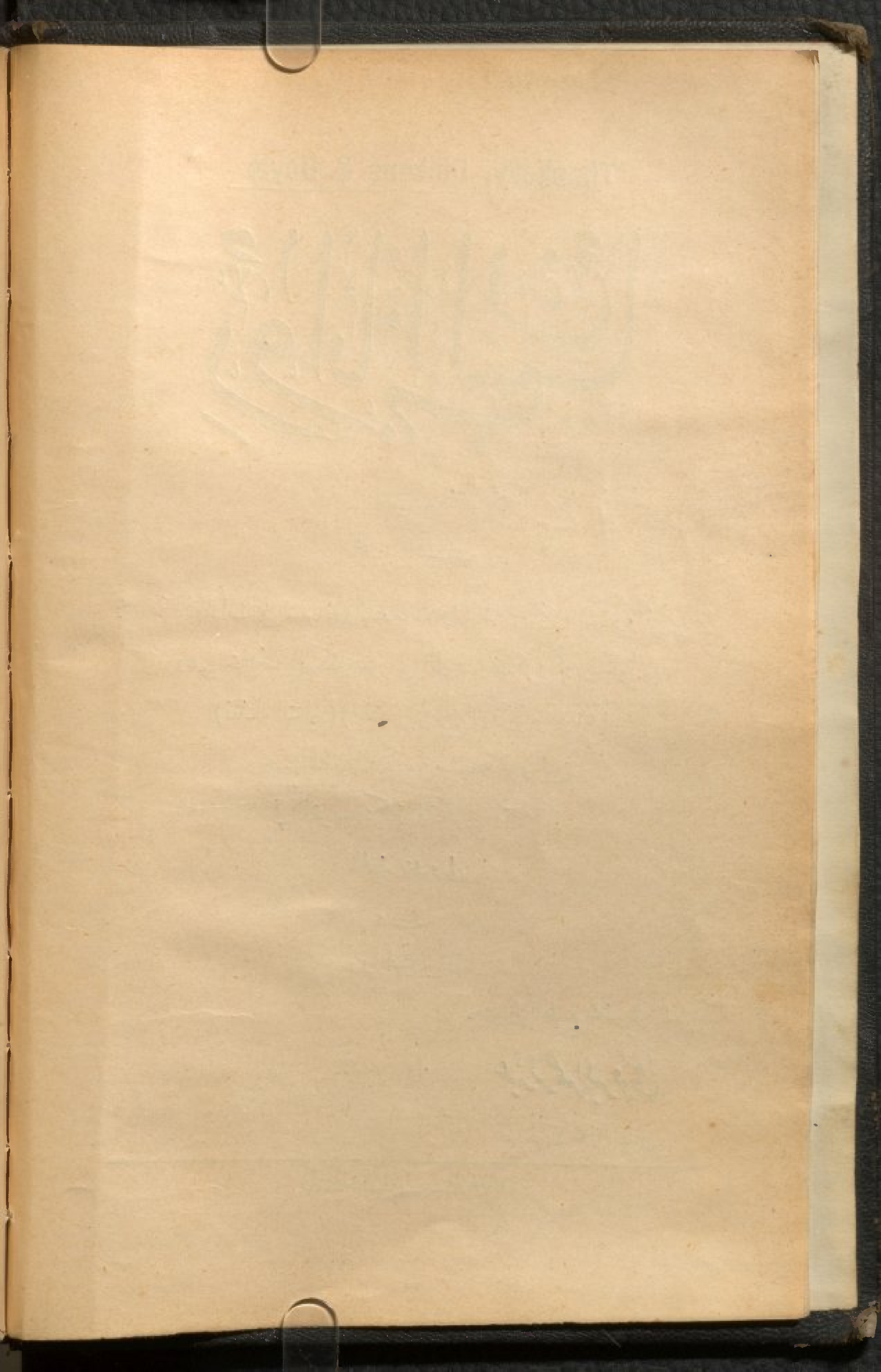
في المغرب دكنز وثكري ودويل

الحلقة الاولى

من

روايات البيان

مطبعة البيان – سنة ١٩١٣



الرواية الاولى

النبأ العجيب *

فى اليوم الرابع من شهر مارس عام ١٨٦٧ وكنت اذ ذاك في الخامسة والعشرين كتبت في مذكرتي هذه الكلمة — وهي نتيجة اضطراب نفساني وحرب ذهنية .

« يسير النظام الشمسي وسط عدة من أشباهه وأمثاله فى هدوء وسكينة فى رحب الفضاء وليس في اجرامه العظام الا ما هو دائب الدوران في خفوت وصمت فمن بين أضأل هذه الجسوم وأحقرها ذلك المزيج المركب من يابس وماء المسمي الارض تلك التي مازالت تجرى ولم أكن ولن تزال وقد فنيت — سر دائر لا نعلم من أين جاء ولا أيان يذهب يدب على جلدتها جم عديد من ذر دقيق أحدها أنا — جون ميفيتي العاجز الضعيف اركب منها ظهر جماحة هوجاء . هيامة في الفضاء . لا تؤم قصدا ولا تضرب الى غاية . غير ان نظام الاحوال مع ذلك يقتضى ان كل ما أملك من عقل ضعيف . وعلم نزر طفيف . يصرف في استجلاب أقراص من المعدن اشترى بها من المواد ما اشيد به من أركان جسدى مالا تزال تهدمه الدهور . وأدعم بها فوق رأسى سقفا يقيني القر والحرور . لذلك أصبحت وليس لى من عقلي فضلة أنفقها على جلائل ما يخفي من المسائل والامور . »

تلك الكلمات كتبتها فى مذكرتي فكانت أتم شيء على مارسخ في نفسي من الافكار التى أبت طارئات الوجدان وسانحات الخاطر ان تؤثر فيها تأثيرا ما وأخيرا قبض الله عمي « ميفيلي » صاحب ضيعة جلنسارن وكان قد وزع ثراته على أقارب كثر فاصبت ما فيه فضل عن الكفاف وزيادة على الحاجة . وأصبت كذلك أرضا يبابا جرداء علي ساحل البحر في شمالى اسكوتلاندة . أحسب ان الشيخ ما أورثنيها الا عن

---

* مترجمة عن الانكليزية بقلم محمد السباعي

احتقار لى وانتقاص مني وكيف ولم تك الا رملة ملساء . لاشجر ولا ماء . فلعلها كانت من الشيخ مزحة ولكنها مزحة لاتورث السرور وكان رحمه الله كريه المزاح ذميم الدعابة . وكنت حتى ذاك الوقت اكتسب بالمحاماة ببلدة بأوسط أقاليم انكلترا فرأيت انى قد صرت بحيث يمكننى الانصراف عن كل مقصد حقير الى التماس أسرار الكائنات من ثنايا العلوم العالية . وأسرع بي الي ترك تلك البقعة اني كدت أقتل رجلا فى عراك قام بيني و بينه فانى امرؤ نارى المزاج جدير ان أنسي اذا ملكني الغضب ما أوتيت من فرط الايد والبطش ولم ترفع فى الى القانون شكوى بذلك ولكن الصحافة أغرت بي نباحها . وواصلت صياحها . وجعلت لأمر بأحد الارمقني شزرا . فلعنت البلد وأهلها وشخصت الى ضيعتي الشمالية أبغي بها دعة وسلاما وفراغا املؤه بالدرس والتأمل . وقد حملت معي الى ذلك المثوى الجديد نخبة من أحدث الآلات والكتب العلمية الى مااحتاجه غير ذلك من المواد الكيماوية

وكانت تلك الارض التى نزلت مستدقا طويلا من الرمل يمتد مع شاطىء خليج مانسي ميلين في مقاطعة «كاثنيس» وكان بهذه الرملة بناء قديم أغبر فأصلحته وجعلت احدى غرفه معملا وأخرى مجلسا وثالثة مرقدا وكان به ثلاث غرف غير هذه تركتها خاوية الا واحدة أعطيتها للعجوز التي تخدمني ولم يكن لى جيران سوى أسرتين من صادة السمك . وكان امام الدار الخليج ووراءها تلان دونهما تلال أشم وأسمى . وبين التلين شعب اذا جاءت الريح من قبل التلال عصفت فيه فكان لها بين حضنيه زفيف ورنة ثم هبت على مادون نافذتي من الدوح فتناجت الاغصان وسواسا وهمسا

وليعلم القارىء بعد اني رجل أسيء بالناس ظنا . وأضمر لهم ضغنا . مطوى الجوانح لهم على بغضاء . مثنى الاضالع على شحناء . والحق أقول ان عندهم لى مثل ماعندى لهم يجزونني بالحقد حقدا . و بالصد صدا . فانا أمقت منهم التدني والتحاقر . والتسفل والتصاغر . والاصطلاحات الكاذبة والاعتبارات الباطلة و يسوءهم مني صراحتى

المتناهية وانتهاكي حرمة قوانينهم الاجتماعية وجزعي من كل ما فيه تضييق على النفس وحبس لعنان الشهوة واستباحتي كل حريم في اعتبارهم واستحلالي كل محظور وانتزاعي كل طوق وصدعي كل قيد وخروجي من كل أمر ونهي . وكذلك أصبحت في معتكفي هذا بين أسفاري واخلاطي مليئا ان أدع تيار الحياة الذاخر يمر بي جياشا بما تحت لجه من سياسة واختراع وقيل وقال را كدا (١) دونه بمثواى ذاك آجنا آسنا . ولكني سعيد بين ذلك رخي البال . بل مالى أقول اني كنت آجنا آسنا وما آليت بحثا وفحصا وتحصيلا وطلبا أديم الجد وأدمن الكد

وكنت أنضو سحابة اليوم في تجاريبي العلمية وياطالما كنت أسهو عن الغداء فاذا دعتني العجوز « مادج » للشاى الفيت الطعام على المائدة برمته . وكنت أقرأ بالليل فلسفة « باكون » و « ديكارت » و « شينوزا » و « كانت » وسائر من تطلع في عوالم المجهول . ولقد وجدت أقوالهم جميعا مجدبة عقيمة لا ثمرة لها ولا جنى . ولا طائل تحتها ولا جدى . وجل بضاعتهم ألفاظ ضخمة وكلم طويلة يذكرك أحدهم طالب الذهب يجس في سبيله كبد الأرض ويفضي الى أعماق ضميرها ابتغاء الجوهر النفيس فلا يخرج الا دودا يغربه فيقول للناس ها كم ذهبا !

وكنت أثناء ذلك يعروني الضيق فاضرب في الفضاء أربعين ميلا لا أنال أثناءها راحة ولا طعاما . فاذا كنت في بعض هذه الروحات أعسف السبل اشعث اغبر هزيلا غير محلوق اللحية مشوش الذوائب جرت الامهات الى سراة (٢) الطريق فاختطفن

---

(١) الكلمة حال من الضمير في ادع وليست حالا من تيار الحياة . — والماء الآجن الآسن هو المتغير من الركود وقلة عهده بالواردة قال الشاعر

وكذا الماء طيب ما استقوه * آسن آجن على الاجمام

(٢) سراة الطريق وسطه اصله من سراة الاديم وسطه وهو خال من الشعر قال الشاعر

يود بجدع الانف لو ان ظهرها * من الانس اعرى من سراة اديم

والضمير فى ظهرها يراد به الارض وقد يقوم الضمير بدل الاسم اذا لم يحدث ذلك لبسا

الصبية خشـية مني عليهم وخرج الفلاحرن طوائف يرمقونني عجبا وكنت معروفا فى طول تلك البقاع وعرضها « بالسيد المجنون صاحب مانسى » (١) غير اني قلما كنت أجول تلك الجولات فى نواحي الارياف انما كانت رياضتي على ساحلى أنعش النفس بالتبغ الاسود وأرشح بيني وبين المحيط أسباب الصلة والالفة .

وأى خل آنس من البحر الافيح (٢) الخفاق؟ وأى حالة من أحوال النفس لا يوجد لها فى طبيعة البحر شكل وشبيه ؟ فما من أحـد قد رنح المراح عطفيه . وأوقد السرور عينيه . الا سامع في زجل موجه المصطفق . وناظر فى لمع آذيه (٣) المؤتلق . مايزيد سروره . ويرفد حبوره . حتى اذا اربد لجه . واغبر ثبجه (٤) واكفهرت حواشـيه واقشعرت نواحيه . وانتطحت أوعاله احترابا . وتزاءرت آساده غضابا . فناحت فوقها رياح عواصف . وزمجرت لها رعود قواصف . حينئذ يرى المحنق المغتاظ نهب أحزانه وأشجانه . وفريسة احقاده وأضغانه . الذى أكات قلبه الاحن (٥) .وصهرت (٦) كبده المحن . ان بفؤاد الطبيعـة لحزنا كالذى بفؤاده . وان بذهن الطبيعة من سود الخواطر مايجعل لها مثل ظلمة ذهنه وسواده . واذا كان فى الصحو رأيت الخليج كمرآة القين مصـقول الجوانب أو كصرح ممرد من قوارير أوكانه صحيفة من اللجين الا هناة على متنه سوداء كأنها خط لام أو امتداد طول مارد جعل صدر المحيط فراشـه وكان هذا اعلى الصخور المخوفة المعروفة لدى السماكين « بصخور مانسي » فاذا هبت الريح شرقية حطمت على تلك الجلامد رؤس الأمواج محدثة أشد من ضجيج الرواعد وادوى . وتطاير الدفاع حتى لطم جبـين دارى ونال نواصى التلال المجاورة . وكان الخليج رائع المنظر متين الساحل لـكنه عرضة لهبات الشمال والصبا مرهوب لصخور « مانسي » فـكان يتحاماه الـكثير من السماكين مهابة واستيحاشا وكان يرفرف

(١) اسم ضيعة الرجل .(٢) الواسع (٣)موجـه(٤) ظهره . (٥) جمع أحنة وهو الضغن . (٦) أذابت .

على ارجائه روح شعرى ومعني غرابة . تجلوهما الوحشة والوحـدة وكم يوم من الصحو صافي الاديم طويت غلالته راقدا في زورقي أنظر السمك الكبار في ضمير الماء كأنها خيالات الشياطين ولقد سمعت فى بعض وقفاتي بالشاطيء وقد سجا الليـل صيحة من جوف المحيط فكأنها لحزنها وشجاها جاءت من فؤاد ثاكل ولهي . .

في هذه البقعة العجيبة خلفي التلال الابدية وأمامى الامواه الابدية أمضيت عامين بحثا ودرسا بمعزل عن الناس لا يكدر صفو عيشى رجـل ولا مرأة وكان عندى عجوز خادمة فمازلت آخذها بالسكوت وأروضها على الصمت حتي الكان يمر بها الشهر فالشهر فلا تكاد تحرك بحرف لسانها . وكذلك قضيت أيامى بذاك الديدن (١) حتي كدت أنسي انني من فصيلة الانسان وحتي أصبحت انمـا أعيش مع من أقرأ كلامهم من الموتي . فاني لكذلك اذ حدث ماصرف عنان حياتي عن هذه السبيل القفرة والخطة الصامتة .

جاء فى شهر يونيه ثلاثة أيام ريحة (٢) أعقبها يوم ناعم الانفاس رقيق الحواشي كان مساؤه أخرس الريح واجم الهواء . ثم غربت الشمس وراء صف من سحاب صهب وتوشح صـدر المحيط قطعا من الشفق حمراء . وكان ماتركه المد على أديم الساحـل من ثغب وغدران يحمر كأنه مجاجات الدم المهراق فـكأن ماردا جريحا قد خاض مكدودا هذه الاماكن فوسمها بآيات جراحه النجل وطعناته الجوفاء ولما اعتكر الليـل وتكاثف الغيهب حشدت بالافق الشرقي سحاب كانت قبل مفترقة فصارت عارضا ركاما يؤذن بالشر والبلاء وفي الساعة التاسعة صعد من البحر أنين ضعيف كأن موجعا دنفا أحس معاودة الالم فجزع وارتاع . وفي الساعة العاشرة هبت من الشرق ريح حرجف ثم مازالت تشتد حتي آضت مع الساعة الحادية عشرة أعصارا . فلما نصف الليل كان تحت أرواق الظلام زوبعة كافظع مامزق أديم الجو وزلزل جوانب الفضاء

(١) العادة (٢) شديدة الريح

ثم ذهبت الى المرقد والبحر يحصب زجاج نوافذى باجذام (١) عشب الماء والحصا . والريح تعول في كل هبة روح حائر . ولكني مادرجت في أثناء الفراش حتي عاد ضجيج العناصر في اذني غناء منيما ولاجرم فلقد كنت من شاهقة جدراني في أحرز حرز وأحصن حصن ومعقل يهزأ بصولة الماء وسطوة النكباء على حد سواء . فاما ماينوب الخلق خارج دارى فذاك مالا أحفل ولا أبالى . ولا يقع في نفسي ولا يخطر ببالى . وكذلك كانت جفوة العجوز « مادج » وقسوتها . فلما كانت الساعة الثالثة صباحا ماراعني الاقرع على بابي شديد متوال نفرعني اسراب الكرى (٢) وصيحات ملء فم العجوز فوثبت من مضجعي وسألتها بغلظة ما الخبر

فصاحت « مولاى مولاى ! انزل مسرعا يارجل اسرع نازلا ! فلقدوالله صدمت الصخور مركبا وأن أهله ليندبون و يستغيثون وأخشي أن يغرقوا فاعجل اليهم سيدى بمدد من عندك وأدركهم بغياث من لدنك ! »

« اخرسي أيتها الورهاء (٣) ; لاحياك الله ولا حرسك ! ماذا يعنيك لو ينجو القوم أو يهلكون . انقلبي الى فراشك ودعيني وشأني » ثم تغطيت امترى النوم ثانيا . وأنا أقول لنفسى « لقد تجرع هؤلاء القوم نصف غصص الموت وكابدوا نصف أهواله فاذا هم أنقذوا فانما هى سنين قلائل ثم يجرعهم الدهر تلك الغصص ويريهم القضاء هذه الاهوال ثانيا . فاما وقد عانوا ارتقاب الموت الذى هو أشدما في الامر وأصعبه وتوقع المكروه آلم من وقوعه — فأولى لهم والله أن يقطعوا بقية هذا المجاز ثم يستريحوا . » قلت هذا وشرعت أمترى النوم . ولكني وجدت بسماء نفسي من عاصفات الهواجس أشد مما بسماء الله ذات البروج فجعلت أتقلب وأتململ وقد أنبت

---

(١) جمع جذم وهو الاصل قال الشاعر

قوم هم الجذم والانساب تجمعكم * والدين والمجد والارحام والبلد

(٢) النوم . (٣) الخرقاء المتساقطة

الارق شوك القتاد تحت جنبي وأوقد السهد جمر الغضا . فنبا الوساد وأقض المضجع ثم سمعت ضجيجا غامضا بين صياح الزوبعة فعلمت انه صوت بندقية المستغيث فثرت بدافع من النفس لامرد لسلطانه فلبست ثيابي وأشعلت متبغي ثم خرجت الى الشاطئ وكان الظلام حالكا وقد عنفت الريح حتي لاصدمها بكتفي وأزحمها بمنكبي وهي تجمش وجهي بحاصبها وقد علق من متبغي باذيالها الشرر والرماد لما يخبو وأوشك ثم انحدرت الى حيث الموج العظيم ينهمر هدارا مزمجرا وأظللت ناظري بيدى اتقى طامح الدفاع الملح فنظرت من تحتها الى اليم فلم أكد أستبين شيئا غير انه خيل الى ان أصواتا مبهمة وصيحات غير مبينة تأتي من اليم علي جناح الريح . ثم شب نور أزرق أضاء الخليج والساحل . وكانوا يوقدون بالمركب ضوءا آية علي الخطر فنظرت فاذا السفينة مقلوبة بين الصخور على جنبها حتي لابصرت كل مابها من الالواح . وكانت كبيرة ذات شراعين أجنبية تنزل من الشاطئ على مائتى ذراع أو نحوها . ووراء السفينة كانت الامواج تواتر من كبد الظلماء جياشة دافقة لاتستريح ولا تنتهى على اعرافها خصل بيض من الزبد وكلما دنت من الاضواء الزرق موجة خلتها تزداد قوة وحجما وبطشا وجمحا . ودفعة وانصلاتا وطمحا . ولها أثناء ذلك صرير وزئير . وشقشقة وهدير . ثم تثب علي فريستها . ورأيت عشرة أواثني عشر ملاحا قدملكهم الروع فلاذوا بالشراع حتى اذا النور من مركبهم اذاعني لووا الى السوالف استشرافا ومدوا الابصار استعطافا . واتلعوا الاجيادا تشوفا . وهزوا الراح (١) تلهفا . فاحسست كأنما حشاى تتقطع حسرة علي أولئك الاشقياء . ثم أعقب ذلك في نفسي شعور آخر وهو مقتي منهم ذلك الجبن وانكارى ذلك الجزع والهلاع ـ كيف يجمحون عن تلك العقبة التي مابرح يجتازها من خلق الله كل ذى بهاء وجمال . وشرف وجلال . وكان بينهم رجل أعجبت بجلده وثباته . وهو طوال سبط القوام قد قام

---

(١) جمع راحة وهى باطن الكف والمراد بها الا كف

بمعزل عن القوم يقيم اود قامته و يعدل ميزان جسمه على ذلك المركب المترجح المتمايل كأنما يترفع عن التشبث بالحبال انفة وكبرياء وكانت يداه معقودتين وراء ظهره ورأسه على صدره منكسا بيد انه كان يلمح في وقفته هذه الدالة على الاسى معنى من الشمم والعزة والعزم والقوة يدل على انه ليس ممن يخلد الى اليأس ويذل للخطوب . أجل لقد علمت من سرعة كره الطرف أحيانا و بثه اللحظات حوليه انه يتلمس مسارب النجاة في مجاهل هذا الخطر المحدق . ومنافذ الحياة فى حجب ذلك الحمام (١) المغلق . و بوارق الرجاء في دجنات ذلك اليأس المطبق . وانه وان أكثر رجع البصر الى حيث يرى من دون مزبدات اليم شخصي على الساحل قائما فلقد كان والله فى أبائه ما منعه أن يستغيثني بأية صورة . ولكنما بقي ثابتا مكانه صامتا مظلما مستبهما مطرقا الى اليم صابرا متجملا يرقب من المقدور كما جاء به .

وهنا آذن المشكل أن يحل نفسه . فبينا انا كذلك اذا موجة عظمي تشرف على سائر الموج وتحدو به حداء السائق بالقطيع فغمرت المركب فانحطم شراعه الامامى وطاح من كان متمسكا به كما طاح الجراد زهته ريح طاغية . ثم أخذ المركب ينصدع شبرين حيث متون الصخور تحز فى مؤخره . فهرع الرجل الطوال المنفرد فاجتار عرض المركب الى شيء ابيض فأمسكه وكنت قد رأيت ذلك الشيء من قبل ولم استبن ماهو ؟ فلما رفعه أصابه الضوء فاذا امرأة قد وشحت جلدة مما يقي به الغرق فحملها الى جانب السفينة وخلته يحدثها دقيقة أو نحوها كأنما يبين لها استحالة بقائها بالمركب . فكان جوابها من أعجب مارأيت . وذلك انها رفعت كفها متعمدة فلطمته على وجهه . فاسكتته اللطمة لحظة ولكنه عاود القول ورأيت من حركات يديه انه يريها ماذا يجب عليها أن تفعل اذا احتواها الماء فانزوت عنه

(١) الموت

ولكنه أمسكها بين ذراعيه ورأيته يحنو عليها كأنه يقبل جبينها فانهما لعلى هذا اذا بموجة عظيمة تقبل حتى صافحت عطف المركب فتقدم الرجل فوضع المرأة على غارب (١) الموجة مترفقا كما تستودع الام الرؤم (٢) المهد طفلها، ورأيت حلتها البيضاء ترفل على بيضاء الزبد ثم أقبل الضوء يتطامن (٣) الى أن غابت السفينة وراكبها الفرد في ملحود (٤) من اليمّ

فلما رأيت هذه الاحوال تغلبت على فلسفتي عواطفي ودفعني الى العمل دافع لا يرد فنضوت عني جمودي نضو الثوب يخلعه صاحبه حين يشاء ثم يلبسه بعد ذلك متى شاء وأسرعت الى قاربي وكان ضعيفا كليلا واهيا ولكن هل مانعي من الفعل الجميل والعمل الجليل ذلك ؟ وهل كنت وأنا الذي طالما حن الى الموت واشتاق القبر لاخاف الهول أو أخشى الخطر ؟ فعمدت الى قاربي فجررته الى الماء بقوة ذي جنة (٥) ووثبت فيه وفي الدقيقة الاولى خامرني الشك في طاقة القارب البقاء على ذلك اللج الثائر يغلي فوقه الزبد أم ليس في طاقته ؟ ولكنها لم تك الا بضع تجذيفات حتى خرجت من تلك الغمرة قد نصف (٦) الماء قاربي وانه برغم ذلك لطاف (٧) تخفضه لجة وترفعه لجة يعلو من هذه رأس هضبة شماء، وينزل من تلك قعر حفرة وهداء وتارة

اذا ما انكفى في هبوة الماء خلته ☆ تلفع في أثناء برد محبر

وكنت أسمع من ورائي على مسافة ولولة عجوزي «مادج» التي عدتني مع الموتى وما زلت أزجي الزورق في مهمه من الماء خوّار الجانبين منهال الجالين (٨) الى ان حبتني احدى الامواج المرأة البيضاء فاشرفت فاحتملتها الى قاربي وانها لتكف بالماء

---

(١) أعلاها والغارب أعلى السنام (٢) الجمة العطف والحنان (٣) ينخفض (٤) قبر (٥) مجنون (٦) بلغ نصفه (٧) اللام للتأكيد وطاف خبران وهو اسم الفاعل من طفا يطفو أي بقي فوق الماء (٨) الجانبين

وما كان بي الى ترجية الزورق نحو الساحل حاجة اذ أقبلت اذ ذاك موجة فاهدته الى البر في طفرة فوضعت القارب بمأمن ثم حملت المرأة الى داري خلفي العجوز تزف أحسن التهنئة وأجزل الثناء

وكنت اذ احمل المرأة أسمع لفؤادها نبضاً فاتراً كليلا فعلمت انها حية ثم ذكرت انها ستكون في عيني منظراً غير محبوب (وكنت أبغض الناس طراً ولا أطيق رؤيتهم) وكانت العجوز قد أوقدت ناراً فطرحت المرأة قربها وكأني لقلة الرحمة أطرح حملا من الحطب ولم التفت قط نحوها لأرى جميلة هي أم قبيحة وكيف وأنا من قبض طرفه دون النساء منذ أعوام غير اني بعد ماذهبت الى المرقد واحتواني الفراش سمعت العجوز تمثل وهي تدلك أوصالها قائلة

انما الذلفاء ياقوتة * أخرجت من كيس دهقان

فعلمت ان المرأة فتية السن حسناء

واسفر الصبح غب هذه الزوبعة موثلق الغرة وضاح الجبين فخرجت أسير والشاطئ وكان قلب البحر يخفق وموجه يصارع الجلاميد ويجالدها ونظرت أطلب للقارب أثراً فلم أجد ولكني رأيت طائرين من بنات الماء ترفرفان على مهلك السفينة كأنما تبصران تحت جلدة الماء ما غاب عن سائر الابصار وطوراً تتصايحان كأنما تتحادثان عما تريان

ولما عدت من جولتي رأيت المرأة بالباب تنتظرني فما وقعت عيني عليها حتى وددت اني لم انجها اذ بوجودها في منزلي انقضى عهد عزلتي وانقرض ملك خلوتي وكانت حديثة غضة السن — لا تجاوز التاسعة عشرة شديدة بياض الوجه صهباء الضفائر زرقاء العينين ملتهبة الالحاظ درّية الثغر وضاحة الثنايا . وكانت لفرط رقتها و بياضها وضيائها يخيل اليك انها شبح لا جسد وانها طيف الخيال لذاك الزبد الابيض الذي منه اخذتها فلما دنوت منها أومأت اليّ بيديها ايماءة الطفل الصغير كأنها تشكر اليّ

نعمتي عليها . وكانت قد لبست حللا من ثياب العجوز لكن على صورة عجيبة مستغربة تسر الناظرين : ثم دنت مني فمدت يديها كما يفعل الطفل تقصد بذلك الشكر لي ولكني أومأت لها أن تبعد عني فبعدت ومضيت قُدما . عند ذلك صاحت كالمتوجعة واغرورقت عيناها ولكنها تلت اثري حتى دخلت معي غرفة الجلوس واخذت ترقبني متأملة .

وسألتها فجأة « من أي البلاد المرأة ؟ »

فتبسمت صامتة وهزّت رأسها .

قلت « افرنسية ام نمساوية ام اندلسية أم ماذا ؟ » فلم تزد على ان هزت رأسها ثم رطنت طويلا بلسان لم افقه منه حرفا واحدا

ولما فرغت من الافطار وفقني الله الى معرفة جنسها وذلك اني بينما اعيد الكرة على الساحل نظرت بالصخور التي انحطمت عليها السفينة خشبة قد نشبت في بعض ثلمها فامتطيت الزورق نحوها ثم عدت بها الى الشاطيء فاذا مكتوب عليها بحروف بديعة غريبة « ارشانچيل » [1] فقلت في نفسي وانا عائد الى الدار « وهكذا هذه الغادة البيضاء روسية خليقة ان تكون من رعايا القيصر الابيض وسكان البحر الابيض ! » ثم عجبت ان من كان مثلها رقة ونعمة يذرع اجواز المحيط ويطوي مراحل الماء في ذلك الوعاء الواهي الضئيل ولما دخلت الدار نطقت امامها بكلمة « ارشانچيل » على عدة صور من اللفظ فلم تفقه له معنى

وبقيت في خلوتي بين البحث والدرس حتى الظهيرة فلما قمت للغذاء الفيتها عند المائدة تخيط خروقا في ثيابها وكانت جفت فساءني حضورها ولكني ما كنت لاردها الى الساحل القفر الموحش تموت فريسة الجوع والبرد ثم انها نظرت اليّ

(١) اسم بلدة في شمال روسيا على شاطئ البحر الابيض

فأومأت اولا نحو مهلك السفينة من اليم ثم الى شخصها ثم رفعت اصبعاً واحدة فعلمت انها تسألني الم ينج من الغرق غيرها فأومأت لها برأسي نعم عند ذلك وثبت من الكرسي وارسلت صيحة جذل ثم رفعت ما كانت تخيط فوق رأسها وانبرت وهي ترجح الثوب من جهة إلى اخرى ترقص كأنما هي ريشة في مهب الريح تجوب انحاء الغرفة ثم خرجت الى الضح (١) تراقص الشعاع باقلق من الشعاع وامرح وجعلت وهي ترقص تشدو بلحن فيه حزن ورقة ينم على فرط السرور والطرب فناديتها « ويلك ايتها الشيطانية ادخلي وكفى ! » ولكنها ابت الا تماديا ثم انهـا هرعت الى بغتة واختطفت يدى واني لعلى غرة فاوسعتها لثما ولما كنا على الخوان بصرت بقلم فتناولته وكتبت على ورقة « سوفي راموسنى » ثم أومأت الى شخصها كما لو كانت تقول هذا اسمي وردت الى القلم وهي تحسب اني ساصنع صنيعها ولكنى اثمدته في جيبي آية على اني لا اريد ان تمتد بيني وبينها صلة من حديث أو غيره

وجعلت بعد ذلك لا آلو اسفا على ما أتيت من الخطأ المبين بانقاذي تلك المرأة ومالي ومالها واين تقع منى او اقع منها وماذا عليّ ان تموت او تبقى ؟ وما انا والله بالفتى الغزل ذي الصبوة فآتى مثل هاتيك الفعال او لم يكفنى وجود العجوز في بيتي حتى اشفعها بهذه المرأة بيد ان العجوز هرمة شمطاء . سمجة شوهاء . لا اربة فيها لشهوان . ولا معشق لولهان . وهذه حديثة ناعمة صاغها الله من طينة الحسن ومائه . وصقلها بسنا الجمال ولألائه . وجعلها ملهى عن الجد ومشغلة عن العمل فاين ارسلها وماذا اصنع بها ؟ واما لو استعنت رجال الشرطة لاقبلوا عليّ بجمعهم ينظرون في اوراقي ويفحصون اشيائي ويملأون فراغ الدار لغطاً وهذراً وما ابشع والله ذاك وما اشده . ولأهون على

---

(١) ضوء الشمس المنبسط المتمكن من الارض

منه احتمال المرأة

وليت هذا كان آخر البلية فلم يردفها النحس باخرى • ويا لله ما اغرى هذا الخلق بهارب منهم وما الهجهم بعازف عنهم وما املأ كل بقعة بهذا الناس الذي منه افرّ وعنه اذهب فلما رنقت شمس الاصيل ونفضت على اكناف الرمل ورسا علا صفرته بصفرة واشعلت جنبات البحر ناراً خرجت اسعى على الساحل في يدي كتابي حتى اتيت دعصا من الرمل فا فترشته واخذت اقرأ فاني لكذلك اذ لاح ظل حال بيني وبين الشفق فالتفت فاذا رجل طوال شديد الاسر مدمج المفاصل قد وقف لا يشعر بي وانما يتوجه بجمعه الى الخليج يرعى الصخور الناتئة بصدر الماء كاسف البال واجما وكان اسمر اللون اسود الشعر قصير القامة كث اللحية اشمّ المعطس مرعث (١) الاذنين على محياه سيما البداوة الهمجية وملامح الشرف والنبل • وكان عليه قطيفة زرقاء وقميص احمر ونعلان تضربان الى شطرى فخذيه فعرفت في الحال انه الرجل الذي رأيته أمس على ظهر القارب الغريق .

فصحت بصوت ملوءه الكمد « يا هذا أو قد نجاك الله ووطئت الشاطيء مسلماً ؟ »

فقال بالانكليزية « نعم غير اني ما حاولت أن أنجو ولا كان ذاك من صنعي . ولكنها الامواج رمت بي الساحل . فياليتها ما صنعت وياليتني . ولوددت والذي خلقك لو ان المحيط غيبني في جوفه وكتمني في ضميره ! » وكان يرتضخ لكنة أجنبية فيها لذة للاذن وحلاوة في النفس وقال « ولقد انتاشني رجلان من صادة الاسماك ينزلان تلك الناحية فعنيا بي بيد اني لا أكاد أشكرهما على ذلك . »

قلت « يا سبحان الله ! هذا رجل من فصيلتك وقبيلك . ولماذا آثرت الغرق

---

(١) اي في اذنه حلق .

على النجاة يا هذا ؟ »

فقال ومد ذراعيه بهيئة الواجد المتاع اليائس « لاني فقدت هنالك كنزي الثمين وعلق النفيس — هنالك حيث اليمّ ضاحك الثغر وضّاء الجبين تثوي منية النفس وقوت الفؤاد منه في حشا خائن غدّار . لا رعى عنده لحرمة ولا جوار . ولا ذمة ولا ذمار . »

قلت له ما برح الناس يفقدون الاهل والخلان فلا يصنعون صنعك وما في ذاك من ثمرة . فهوّن عليك ولا تذهبن نفسك شعاعا . ولتعلم بعد ان ما تطأه الآن من ارضي واسرع ما تكون مضياً من ههنا ادناك الى السلامة واولى لك . ففي واحدة منكما كفاية »

فصاح « واحدة منا ؟ »

قلت « أجل ان استطعت ان تريحني منها فافعل اعدها منك منة غراء »

فنظر اليّ هنيهة كأنه لا يفهم مرادي ثم صاح صيحة شديدة وانطلق يعدو والريح في اعقابه حسرى كليلة يوم منزلي فلا والله ما رأت عيني منذ خلقني الله رجلا يعدو عدوه واندفعت في اثره مغضباً لهجومه على مثواي واستباحته حمى حراما ما وطئته قط قدم غريبة فلم اشق له غباراً . ورأيته بعيني يلج الباب وكان مفتوحا ثم سمعت صرخة ولما دنوت صافح اذني صوت رجل حثيث اللسان مخفوض القول ثم دخلت الدار فاذا الغادة « سوفي رموسيني » جاثية في زاوية من المكان منقبضة من الرعب قد التقى على صحيفة وجهها صورة البغض بسيما الغضب واذا الرجل وعيناه مشبوبتان تضطرمان . وذراعاه ممدودتان ترعشان . يهضب لسانه بالفاظ الاستعطاف هضبا . وتسكب شفتاه كلم الاستغفار سكباً . فلما رآني دخلت دنا منها خطوة فتقهقرت خطوات وصاحت صيحة الشاة ساورها الذئب .

فجذبته اليّ عنها قائلاً « مهلا ! ماذا تفعل وماذا تريد ؟ احسبت هذا قارعة الطريق أم نزلا أم حانة ؟ »

« عفواً سيدي وغفرانا . هذه المرأة زوجي وكنت اخالها غرقت . مولاي اثابك الله فقد رددت علي نفسي »

فقلت في غلظة « ومن انت ؟ »

قال « رجل من ارشانچيل . رجل روسي »

قلت له « ما اسمك ؟ »

قال « اورجانيف »

قلت « اورجانيف . وهذه سوفي راموسيني . ماهي زوجتك . اما معها خاتم منك ؟ »

قال ونظر الى السماء « نحن زوج وزوجة بشهادة الله ذى العزة والجلال ما زوجنا قسيس ولا شهد عقدنا مطران . بل زوجتنا العناية الازلية بمشهد من الملائكة الابرار »

وبينما هو يتكلم طفرت الفتاة حتى صارت خلفي وشدت يديها على يدي تضغطها كالمستغيثة

وقال الرجل ماضيا في قوله « اعطنى زوجتي يا مولاي كي احملها الى موطنى »

قلت له بشدة « التفت الي يا هذا ! انا لا يهنأني بقاء هذه الفتاة عندي واني والله فيها لزاهد ولوددت اني ما نظرتها قط ولو انها هلكت ليلة العاصفة ما ساءني . فاما اعطاؤك اياها مع ما ارى من بغضها اياك وخوفها منك فهذا ما لست فاعلا ابد الدهر فامنحنا هداك الله كتفيك ودعني وشأني . ولعلك لا تريني وجهك هذا قط »

فقال بصوت أبح « أولست معطيني الغادة ؟ »

« لا أفعل ذلك حتى أراك ميتاً »

قال واربد وجهه « هبني أخذتها برغمك »

عند ذلك احتدم الدم في عروقي وفار تنور غيظي فاختطفت عصا من جانب

المصلى ثم قلت بصوت شديد منخفض

« امض من ههنا مسرعا والا صببتها على أم رأسك »

فنظر الي خائر العزيمة هنيهة ثم ترك الدار وعاد بعد لحظة فوقف بالباب يرمقنا ثم قال « انظر ماذا تصنع واعلم ان الغادة غادتي ولا بد لي منها . ولعله اذا بلغ الامر المقارعة كان الروسي كفء الانكليزي »

فصمت قائلا « سنرى ! » ثم وثبت ولكنه مضى ونظرت شخصه الطويل ينغل في حشا الظلماء

وسلس عنان الدهر لي ولان جانبه مدة شهر أوزهاءه اذ اطرد بنا نهر الحياة وانسجم مجراه فلا عثرة ولا عقبة ولا كدر ولا قذى وكانت الغادة ربما ولجت على باب معملي أثناء شغلي فجلست عنده ترنو الي بنجلاويها (١) فأضجرني في أول الامر ذلك حتى اذا لم أرَ منها أدنى مايشوش علي أو يلهيني اتسع لها فناء صدري . وانفسح لها نطاق صبري . وشجعها ذلك فانبسطت واستأنست وجعلت تدنو على توالي الايام مني رويداً رويداً حتى آل بها الامر الى الجلوس بجانبي ما زاولت العمل ثم جعلت في مقامها الجديد هذا تؤدي الي وهي كأصمت ماتكون جملة منافع كأمسا كها أقلامي وقواريري وأنابيبي ومناولتي كل ماابتغيه في أتم نشاط وخفة . وكذلك بفضل انكاري آدميتها (٢) وعديها (٣) آلة من الآلات الصامتة آل بي الامر الى ان صرت أفقدها اذا هي غابت وأجدا لها نوعاً من الوحشة . وليعلم القاريء ان من عادتي اذا كنت في عملي ان اكلم نفسي جهاراً استعين بها على تثبيت نتائجي في ذهني فلعل الفتاة كانت قوية الحافظة قفلة (٤) لانها كانت تعيد ماتسمع مني من الالفاظ دون ان تعرف ولا

(١) أي بعينيها النجلاوين

(٢) أي كونها آدمية (٣) عدى اياها . (٤) يقال رجل قفلة وامرأة قفلة اذا كانت تقفل وعاء صدرها على الشيء فلا تنساه أبداً

مشاحــة شيئاً من معانيها وطالما ألهاني منها أمطارها العجوز صوبا من المعادلات الـكيماوية والرموز الجبرية وضحكها من العجوز اذ تهز رأسها وكأنما ترى لفظ الفتاة شتما موجهاً لها بالروسية

وكانت اذا خرجت من باب البيت لم تتجاوز أذرعاً قلائل ولا تعدو عتبة الدار الا وقد أشرفت من كل نافذة لتتثبت من خلو الجوار فدلني فعلها ذاك على انها تتوجس ان يكون الرجل الطويل لايزال كامناً لها في بعض تلك الجهات وتخشى ان يختلس غرتها فيحتملها ويذهب . ومن عجيب ماصنعت انها كانت عثرت على مسـدس لي كنت فقدته فأقبلت عليه تمسحه وتجلوه وتزيته وعلقته قرب الباب الى جانبه جعبة ملئت بنـدقا (١) . فكلما رأتني خارجا ألحت عليَّ ان آخذه . وكانت لا تزال تغلق الباب أثناء غيابي وكانت لولا خوفها باهنأ عيش وأغبط حال قد قسمت مجهودها بيني وبين العجوز ان لم تعني ساعدتها وكانت تنجز أعمال البيت بفطنة أسرع من اللمح وراحة (٢) أخف من الريح .

ولم يمض الا قليل حتى وجدت لها في تخوفها عذرا . وان هذا الرجل الغريب ما زال يكمن في جوار الدار . وذلك اني أرقت ذات ليلة فقمت الى النافذة أشرف منها على أفنية البيت وكان الجو مضباً فلم أكد أبصر سوى حافة البحر ومؤخر قاربي على شاطئه . حتى اذا اعتاد طرفي الظلمة آنست بالرمل شبحاً آخر حيال بابي ولم أك رأيته بالامس وبينما أطل من النافذة أنعم النظر لاستبين ماذا كان ذلك الشبح انحسرت عن صفحة القمر سحابة عظيمة وتساقط النور أبيض صافياً غضاً رطباً على اديم المـاء السا كن الارجاء الصامت النواحي وعلى سواحل القفرة الموحشة . وحينئذ علمت من ذلك الـكامن عند بابي وهل كان الا الرومي ؟ لقد كان قاعداً كأنه ضفدع جسيم . قد

(١) هو الرصاص ، والبندقية منسوبة اليه (٢) يد

عقد رجليه تحته جاسة المغولي وعقد طرفه بالنافذة التي تنام دونها الفتاة والعجوز وكان نور القمر يهبط على وجهه فرأيت مرة أخرى شرف تلك الصورة ونبل هذه الخلقة ورأيت ناظري الصقر يلتهبان فوق عرنين أشمّ ورأيت غضن الهم محفوراً في اديم ذلك الجبين الاغرّ فقلت في نفسي « يالك من أحمق عاجز الرأي ! أفبعد ان رأيتك تلاقي الموت وجهاً لوجه اسكن ما تكون أوصالاً . واهدأ ما تكون بالاً . أراك قد سبت حجاك . وسلبت نهاك . فتاة شختة عجفاء . نحيلة صفراء . تفرّ منك فرار الصحيحة من الجرباء . ضلة لك ما أحيدك عن السداد . وأبعدك من الرشاد . لقد كان لك لو شئت مندوحة عن هذه المهزولة في ذوات البيوتات والاحساب ممن هن أعرق نسباً . وأبرع أدباً . وأرشق قداً . وأقرب ودّا . وأبهى جمالاً . وأسبى دلالاً . ولكنك تأبى الا هياماً بتلك الصبية ولجاجاً . وتمادياً في حبها والحاجاً . وهي لا تجزيك الا الصد . ولا تهديك غير سوء الرد . كلما دنوت منها أصبعاً ندّت عنك ميلا . أو وصلتها لحظة هجرتك دهراً طويلا . » ثم عدت الى مضجعي وأنا أضحك سخراً من أمر هذا السفيه . ولم أخشه وكيف وقد كنت من جدران بيتي وأبوابه بامنع معقل وأحرز حصن فسواء عليّ قضى ذلك الرجل ليلته على عتبة داري أو ببلاد الصين ما دام سيذهب مع الظلام . وقد كان ذلك فلما خرجت الغداة الى ذرا بيتي لم أجد له أثراً .

ولم يمض الا قليل حتى رأيته ثانياً وذلك اني ركبت اليم مرة وكان بي دوار سببه أولا ادامة الاكباب على الورق وثانياً شمي عقاقير خبيثة الرائحة يفغم ذفرها (١) الخياشم فزجيت الزورق على الشاطئ بضعة أميال ثم أصابتني غلة (٢) فحبست مطية الماء (٣) عند مصب جدول ونزلت الى الساحل لارد وكان ذلك الجدول يشتق أرضي ولكن مصبه في أرض أخرى . فوردت حتى اذا هممت أن أصدر وجدتني امام الروسي وجها لوجه

(١) الرائحة الحادة طيبة كانت أو خبيثة (٢) عطش (٣) يريد القارب

وقد استبحت من حماه مثل ما استباح سالفاً من حماي فمراني الخجل وفطن اليها ،

قال لي في وقار وجد « عندي لك حديث قصير »

فقمت ونظرت الى ساعتي « اذن فلتسرع فليس في وقتي للهراء(٤) مجال »

فقال مغضباً « الهراء ! ما أعجب أحوالكم معشر الاسكوتلانديين ان لكم ظواهر فظة تحتها قلوب رقيقة . وأنت من القوم ففيك ولا شك مع هذه القسوة والشدة لين وهوادة »

قلت « باسم الشيطان الا ماقات قولك وخليتني وشأني فلقد والله سئمت رؤيتك »

فصاح قائلاً « أوقد أبى الله ان ألين من قلبك القاسي وأذيب من حصاة فؤادك أنظر » ثم استخرج من جيبه صليباً « هذا . انهُ ربما خالفت ملتك عقيدتي . و باين مذهبك نحلتي . ولكنه يجمعنا عواطف وآراء مشتركة اذا نظرنا هذا »

فأجبته « لست من قولك على ثقة »

فنظر اليك متفكرا

ثم قال « ما أعجب والله شأنك وأنى لى بأن أفهمك فانت لاتزال حائلاً بيني وبين « سوفي » فاعلم يارعاك الله انك لتحرجن موقفك ولتخطرن دمك فانتبه الى ذلك قبل ان يتفاقم الخطب ويبلغ السيل الزبى . ومن لى بمن يبلغك ماذا خضت في سبيل تلك الغادة من الهول وماذا ركبت من أجلها من الخطر أشق غمار البحار . وأجوب أقطار القفار ، وأقذف تخمة الليل بجمرة النهار . معرضاً في خلال ذلك جسمي للدمار ونفسي للبوار . فأين أنت مما قد اجتزت من العقبات . وخضت من القحم والهلكات يامن لوشئت سللت روحه على ظبة مديتي . واختلست حياته على غرار صفيحتي (٢) . ولكن أبى لى الله والتقى أن أفعل ذاك ! »

---

(١) فضول القول والكلام الذي لاطائل تحته (٢) سيفي

« أولى لك أن تعود الى موطنك من أن تكمن بهذا الساحل لتكدر صفائي . حتى اذا تثبت من ذهابك أسلمت الفتاة الى دار السفارة الروسية . فاما قبل ذلك فانا جار الفتاة منك وملاذها وموئلها أقيها المكروه بطارفي وتلادي ولا أدخر في سبيل صونها نفسي . وليس في قدرتك ولو عزز جانبك الف من أهل جلدتك أن تغلبني عليها »

قال « وماذا تريد بمنعها مني ؟ أفتحسب اني كنت نائلها قط بأذى . أصلحك الله اني مابخلت بروحي في سبيل وقايتها . فما فعلك هذا ؟ »

قلت « هو حق المستجير على جاره »

قال وتأجج الغضب في نظراته ودلف الى مشعان (١) الرأس ممدود الذراعين مقبوض اليدين « وأما وربك لو انه رابني منك في شأنها ريبة وانك تضن بها لامر غير صالح اذاً والله لسللت قلبك من حشاك باظفاري » وكأن مجرد توهمه ذلك الوهم قد أطار عقله حتى انقلبت سحنته وراحت كفاه بين قبض و بسط راجفتين تجفان . فخلت والله انه سيأخذ بكظمي »

لذلك صحت به « مكانك » وقلت ويدي على المسدس « مسني باصبع منك أفرق بين روحك وجسدك ! »

فوضع يده في جيبه هنيهة فحسبت انه يستخرج سلاحاً ولكنه مالبث ان أخرجها بيضاء من غير سوء اللهم الا من تبغة أشعلها وأقبل يشرب أنفاسها ولعله كان يرى هذه خير كابح لجماح شره .

وقال بصوت أرق ولهجة ألين « لقد خبرتك ان اسمي أوجانيف واني من أهل فنلانده ولكني وزعت عمري بين انحاء الارض طراً . ولقد خلقني الله قلقاً متوقداً

---

(١) منتفش شعر الرأس ثائره

لوذعياً يكاد يسرب في الخر ت وينغل في مجارى السموم

لاطاقة لي بالسكون ولا قدرة لي على الدعة بنفس متفشية لايكاد يسعها عرض الفضاء . وتكاد تضيق بها رقعة الارض وأديم السماء

ليس يخلى مني مكان مكانا أنا شيء خصوصه كالعموم

أنا طيف الخيال يطرق أهل الا أرض من بين ظاعن ومقيم

فلما ورثت مركب أبي لم أدع مرفأ مابين ارشانجيل واستراليا الا وقد طرقته . وكان لي على غلظتي وخشونتي وجفاء طبعي مهجة لاتزال تحن الى حبيبة لي بديار قومي وكبد اليها نزاعة فلما كنت في بعض أسفاري ازدلف اليها غلام مصقول العارضين أمرد ناعم البنان معسول اللسان طبن [1] بما يستهوى قلوب الغانيات . ويطبي [2] اهواء الفتيات . من حلو الكلم ولطيف الاشارات . فسلبني هذا الغلام بحيلته ودهائه الغادة التى القيت عندها مراسي الامل ونطت بها أسباب الهوى والتي أرعيتها بارض [3] الحب وأمطرتها وسمى [4] المدامع . والتى لم تك لتضن علىّ بالحب أو تجزيني بالود كرهاً . فلما ابت من رحلتي خبرت غادتي وفلذة كبدي ستتزوج من ذاك الغلام الغض الأهاب . البض الشباب . وان الزوج قد ذهبا الى الكنيسة . واتعلم ياسيدي اني في حال كهذه يذهب رشدي وآنى من الامر مالا أكاد أعرف أقول فلما بلغني ذلك النبأ نزلت الى الشاطئ بالنوتية وكانوا رهطا أولى بأس ونجدة كلهم كالحسام عضب المضارب ماضي الغرار بن لم يؤت من نبوة ولا كلال فعمدنا الى الكنيسة فدخلناها واذا الزوج واقفان حيال المطران قد كاد يعقد لهما ولما يفعل . فاندفعت بينهما فطوقتها ذراعي وأثخن رجالي الضرب في الفتى وسائر القوم واحتملتها حتى أتيت ورهطي

(١) حاذق (٢) يستميل (٣) أول مايبدو من النبت يكنى به عن أول حب أحبه . (٤) هو المطر الاول وهو في معنى الجملة السابقة . والوليّ هو المطر الثاني

المركب فاقلعنا بها نمخر العباب الى ان رأينا ذوائب المنار تذوب في قصوي الفضاء . وبوأت الغادة غرفتي وخولتها أسباب الراحة طراً وأخذت مضجعي بين النوتية وأنا أرجو ان يلين الله يوما ما عليّ قلبها ويجذب اليّ عطفها . ويمنحني عطفها . فترضى ان أعقد عليها في فرنسا أو المانيا مثلا وكذلك مابرحت تتقاذفنا البحار . وتتهادانا الغمار . وتطوح بنا كفّ التيار ، حتى رأينا الرأس الشمالي يموت على مهاد الافق وتلحد له الامواج في ضميرها جدثا . ثم تقصينا ساحل النرويج وهي لاتزال مصرة على الصد لاجة في النفور لاتغفر لي تفريقي بينها و بين عاشقها وأخيراً رمانا الله بتلك العاصفة التي ألوت بمركبي وآمالي وحرمتني حتى النظر الى الغادة التي ركبت في حبها من الهول ماركبت . فعسى الله ينزل على قلبها بعد كل ذلك حبي ويلهمها رقة لي ومرحمة . » ثم رنا اليّ طويلا وقال « واني ياسيدي أتوسم فيك أخا حنكة وابن تجارب قد حلب أشطر الدهر وأطال على الامور توقافاً . أفليس في فراستك انها ربما نسيت بي حبيبها ذاك واجدة فيّ بدلا ؟ »

قلت وزويت عنه وجهي « قد والله سئمت حديثك . فاما اذ سألتني رأيي فرأيي انك معتوه أحمق . وانك ان كنت تؤنس من نفسك ان حبك هذا خطب لايلبث ان يهون ومصاب لاينشب ان يخف فيزول فمال نفسك حتى يكون ذلك بكل مااستطعت فاما ان كان داء عياء وضربة لازب فليس أجمل والله بك من ان تنتحر فتستريح .

ما قضى الله للجهول بستر * يتلافاه مثل حتف قاض

وهذا ماعندي والسلام »

ثم هرعت الى زورقي فركبته لا التفت الى الرجل غير اني ما لبثت ان سمعته يقول « لقد حدثتك بادئة نبأي فاما الخاتمة فلسوف تعلمها يوما ما »

فلم أجبه وانما زجيت القارب والتفت بعد برهة فاذا هو مازال واقفاً على الشاطئ

يتبعني نظرة ولهى طويلة . ثم التفت ثانية فاذا هو قد مضى .

واطمأن جانب العيش لى بعد هذا الحادث وركدت نواحيه فلا عثرة ولا عقبة .
وجعلت آمل ان يكون الرجل قد رحل عن جوارى فيدلني على كذب آمالي آثار اقدامه في الرمل ولا سيما كثيب من رماد التبغ على كثيب قبالة النوافذ من غرفة الفتاة فعلمت ان الرجل ما برح لنا كامنا . و بقيت منزلة الفتاة مني على عهدها لم تقربها زلفى ولم يقصها جفاء . وكانت العجوز في بادىء الامر قد نالها شيء من الغيرة مخافة ان تغصبها الفتاة بعض نفوذها البيتي حتى اذا رأت اعراضي عن الغادة وانقباضي زالت عنها الوحشة وعاودها الانس والراحة ووجدت في بقاء الفتاة ربحا لاخسارة اذ اصبحت لها عونا على عملها وظهيرا .

وها قد اشرفت على نهاية هذا القصص الذي ما كنت لو لا لذة أجدها في تدوينه لأدونهُ . وكانت خاتمة هذين البشرين من الفجاءة والعجب كالفاتحة وانما هو حادث ليلة فذة خلصني من شرهما واطلقني من اذاها وافردني باسفاري ومباحثي مثلما كنت قبل طروئهما . وهاك بيان الحديث .

خرجت الى الشاطىء ذات مساء نضو مذاكرة طابح بحث وتنقيب لاروّح عن النفس واريح مكدود الخاطر فما برزت من باب الدار حتي لفت ناظري مشهد الخليج وهيئة الماء . وكان بأكمل حال من الركود تحسبه صحيفة من البلور جامدة الانحاء يابسة الارجاء فما به حبك ولا تكسر . ولكن الهواء كان مع ذلك مفعم بذاك الصوت الذي وصفته آنفا وهو صوت كأن اصداء من طواهم البحر في احشائه ترسل انينه تنذر به اخوانهم الاحياء شرّ يوم عصيب . وكانت نساء الصيادين يعرفن ذلك الصوت ويمددن الحاظاً لهفى سراعا نحو القوارب التى لاتزال باليم . فلما سمعت ذلك الصوت دخلت الدار ونظرت في مقياس الحرارة فاذا هو عند ٢٩ تحت الصفر . حينئذ علمت اننا بعرض ليلة مرهوبة نكراء .

وكان القرفي سفح الجبل قارسا لذاعا على حين قد عمم الاصيل ذوائبه بمعصفرات الوشي اليماني واسال على جبينه نضاراً [١]. ولم يك على صفحة السماء من السحاب الابدد عباديد[٢]. ولكن انين اليم ما برح يشتد ويتزايد. ثم لمحت من جانب الشرق قاربا يضرب الى قرية « ويك » فكأن ربه قرأ آية الجو كما قرأتها ووراء القارب كان ينتشر ضباب قد طوى خط الافق. قلت في نفسي « ما اجدرني الساعة بالعودة والا ثارت الريح والما يحوني البيت »

فلما صرت على نصف ميل من المنزل وقفت بغتة انصت. وكنت لطول ما اعتادت اذني والف سمعي أصوات الطبيعة من زفيف النسيم الى هدير الماء اسرع الناس اذنا الى انكار ما يجيء بين هذه الاصوات من غريب الاجراس [٣] ولو كان من اقصي مدى. فوقفت وكلي آذان تسمع واذا بالصوت المنكر قد علا ثانية وكان صيحة رفيعة مديدة حادة تنم عن اوجع الحزن وآلم اليأس لها بانحاء الرمل رنة ومن جانب الجبل رجع صدى — يالها صرخة حائر مستجير. وكانت تصدر من ناحية منزلي فاندفعت نحو الدار انهب الارض نهبا وقد لاحت الحقيقة لخاطري في ضباب من اللبس.

وكان على ربع ميل من الدار ربوة يشرف منها على جميع ارجاء البقعة. فلما فرعت هامة تلك الربوة وقفت هنيهة انظر فاذا كل شيء على ما تركته عليه. فاني كذلك اذ عادت الصيحة اشد ما كانت وما هو الا كخطف البرق حتى برز من جوف الدار شخص الروسي يحمل على عاتقه الغادة البيضاء لم تمنعه شدة العجلة ان يرفق بها كل الرفق وانها لتمزق اوداجها صياحا وتكد أوصالها ابتغاء الخلاص جهاداً وعلى اثرهما العجوز تدب ظلعاء ترسف في قيد الكلال والونى وجل مجهودها صراخ متوال كاللبوة الهرمة قلم الكبر اظفارها وفض الزمان انيابها فليس بها الا عولة لا يعينها بطش او زأرة لا تؤيدها سطوة. ورأيت الرجل يعمد نحو القارب فنبع في صدري

(١) نضارا أي ذهبا (٢) أي قطع متفرقات (٣) الاصوات

أمل مبادر رجوت معه ان ادرك الرجل قبل فراره فاحتثثت قدميّ الى الشاطئ فدرّتا بشؤبوب من السير والقمت فم المسدس وانا اعدو بندقة (١) يكمن في لبها الموت الزؤام وتلوذ بحقويها حشاشة أملي وآخر رمق من رجائي .

ولكني تأخرت واستعجل القدر . فلما بلغت الشاطئ كان الرجل قد اوضع (٢) في الماء مائة وعشرين ذراعا قد راش بمجذافيه قادمتي القارب لكل هبة من المجذاف طفرة من الزورق كما طفر في حيزوم الجبان فؤاده

فكأنها والماء ينطح صدرها • والخيزرانة في يد الملاح
جون من العقبان يبتدر الدجى • يهوي بصوت واصطفاق جناح

فصرخت صرخة خائب حنق ورحت أقبل على الرمل وأدبر كالذي خولط في لبه والتفت الروسي فرآني على هذه الحال فقام فحيّاني باطراف بنانه تحية والله ماشفّت عن شماتة ولا سخرية ولكنها عنوان قلب ضمّن الاخلاص وطوى على الاجلال والشكر ، ثم اطمأن في مجلسه وحث أجنحة القارب فطار باشباه الاربع الرياح حتى قبضته المسافة وقد توارت الشمس بالحجاب ومد الشفق بنانة مخضوبة تومئ الى حيث خبأت يد الطفل (٣) لؤلؤة النهار

ومالي أجول في أنحاء تلك الرملة وأدور . وما لصدري يجيش بنار الكرب ويفور . أمن شغف بالفتاة فعلت ذاك ؟ كلا ! وليس مثلي من أضناه حب الحسان • وأبلاه صد الغوان .

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ☆ ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر (٤) الطير همه ☆ أصاح غراب أم تعرض ثعلب

---

(١) رصاصة (٢) اسرع (٣) آخر ساعة من النهار (٤) أي يزعجه من أوكاره تطيراً وذلك انه كان من عادة العرب اذا أرادوا أمراً عمدوا الى الطير فاطاروها فان طارت

ولا السانحات البارحات عشية ✻ أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب «١»

كلا والله لم تكن المصيبة في معشوقة لي ولا وقع السهم في كبدي وانما كانت في عرضي وثلمت جانب شرفي ومجدي . وطامنت عنقي وذلّلت أنفي . وكلما ذكرت اني عيت بحفظ جارتي من العدو المواثب . وعرضتها للطوارئ والنوائب . عيل صبري وراح عرض اليم أضيق في عيني من كفة حابل

وهبّ من جانب البحر تلك الليلة ريح هوجاء فأرغت الامواج بالشاطئ وجرجرت كأنما تود لو انتسفته فعادت به الى العباب فكان ثمت ملاءمة بين فوران اليم وفوران صدري و بين غليان الماء وغليان ذهني وأبليت شباب الليل جيئة وذهاباً بين هجمات طلائع الامواج . وحذار الصواعق من متأجج الجنبات (٢) وهاج

وسماء عليَّ أوكفت «٣» القط ✻ ر أطارت كراي بالارزام «٤»

وعصفات زعزع نكباء «٥» . تعتسف دوّ الفضاء . وتمزق جلدة الماء . وتكاد تختطف الرداء .

وركب كأن الريح تطاب عندهم ✻ لها ترة من جذبها بالعصائب

أقول وأبليت بين هذه الاهوال شباب الليل حتى شابت ذوائب الظلماء . وجرّد الفلق على هامة الغسق أسياف أنوار وأضواء • واستراح الماء والهواء . وأخذ أعين

يميناً تيامنوا ومضوا في أمرهم ويقال للطير حينئذ سانحات وان طارت شمالا تشاءموا ورجعوا ويقال لها حينذاك بارحات

(١) الاعضب هو مكسور القرن والمراد به الغزال وكانت العرب تزجر الظباء أيضاً كما تزجر الطير • والسانحات والبارحات هنا يراد بها الظباء ماسار منها يميناً وماسار شمالا (٢) المراد به السحاب الذي يستطير البرق في جنباته (٣) سحّت وسكبت (٤) صوت الرعد (٥) هي الريح بين ريحين وهي أشد الرياح هبوباً

الكواكب الاغفاء «١» . ولا راحة لي ولا هدوء وأين الراحة ممن راح بين قلب هائم. ونفس دائم . وشجو دخيل . وحرقة وغليل . قلت في نفسي « أولا يرجع الله هذا الروسي الى ههنا ؟ اما والله لو عاد ! »

وقد عاد

وحانت مني التفاتة الى اليمين فاذا على بعد مني جرم طويل أسمر قد قذفته كف الموج الخرقاء على الشاطئ فتأملته فاذا هو قاربي قد عنف به البحر ورضه التيار . وعلى مسافة منه شيء مبهم الهيئة مشكل الشكل يجيء ويذهب في وشل «٢» بحافة الماء قد اختلط بعشب البحر وحصبائه فعرفت فيه لاول وهلة الرجل الروسي مكبوباً على حُرّ اوجهه جسداً بلا روح فخضت اليه ذلك الضحضاح (٣) فسحبته الى اليابس ثم قلبته فاذ امي تحته قد التفت حولها ذراعاه الهامدتان وحالت جثته بينها و بين الزوبعة التي كانت تثور بالفضاء وكانما ليس في طاقة البحر العنيف ان يسلبه تلك الفتاة وان سلبه روحه . وكان فيها امارات تدلني على ان هذه الصبية الطائشة الرأي قد علمتها أهوال تلك الليلة المهيبة ان تفهم الفضل في أهله وتفطن الى المروءة في أربابها وتستشف القشر الخشن عن اللباب الدمث والظاهر الوعر عن الباطن السهل • وان تميز الصادق من الخلّب والحق من الغرور والزلال من السراب • وان تعرف قدر ذلك القلب الكبير الذي وقاها في الروع بمهجته • وذاك الساعد السلط الذي حماها في الكريهة بصولته • والا فما معنى توسد رأسها اللطيف مهاد صدره الرحب والتفاف فرعها الاصهب بلحيته المنسدلة ؟ وما معنى ضياء تلك الابتسامة المتألقة في صحيفة وجهه — يضحك في أثنائها فم النصر — التي لم يك في طاقة الموت ان يطفي رونقها ويخمد سناها ؟ رحم الله مصرعه لقد كان

(١) الغمض (٢) الماء القليل (٣) هو المـاء القليل وضده الغمرة وجمعها الغمار قال الشاعر يصف ابلا تقطع الصحراء وتصل الليل في سيرها بالنهار

كأنها في ضحاضيح الضحى سفن ☆ وفي الغمار من الظلماء حيتان

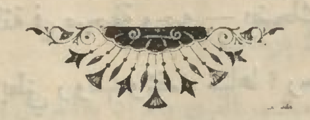
الموت والله له أمتع من الحياة وأشرق جانباً وأبرد ظلا وأصفى هواء • واخضل [1] الله ترابه لقد كانت حياته موتاً وكان موته حياة

وجاءت العجوز فلحدنا لهما على سيف البحر الشمالي وواريناهما فهما الآن رهنا حفرة بذلك المكان المقفر الجدب والبقعة الحزينة الصماء • وكم امور ستحدث حولهما بهذا الكون وكم شؤون ستجرى فمن دول تهدم ودول تشاد • وعاد تزول وتجيء عاد واجداث تبيد • واجداث تباد • وهما بمعزل عن كل ذلك لا ينظران ولا يسمعان • ولا يعبآن ولا يحفلان • ولكنهما ملتزمان محتضنان • بتلك القفرة تحت ذلك الموج المرنان • وكم خيل اليّ ان روحيهما قد لبسا صورة الطير وانهما ليرفرفان بين بنات الماء على صدر المحيط • وطالما خيل اليّ اني أسمع أنين صداهما بين تحنان البحر وعويل الرياح

هاك قبرهما على الساحل الموحش لا نصب فوقه ولا تمثال ولكن العجوز مابرحت تكسوه حلل الزهر والريحان • وشفوف النور والاقحوان . فكلما مررت بذاك الضريح تذكرت ذينك الذين اغتربا عن الديار والاوطان ليلاقيا المنون بدار الغربة على قدر فعجت على تلك العظام البالية متمثلا

ولا علم لي من أي جنبيّ مصرعي ٭ وفي أيما أرض يخط لجانبي

(١) بلّ



الرواية الثانية

العاشق المخدوع *

كان في مدينة بون احدى مدن المانيا يهودي من أولئك الذين يأكلون الربا اسمه (موسي لو) وكان له فتاة تدعى الآنسة (مينالو) ولقد كنت أتيت هذه المدينة لقضاء حاجة لي عام أول أعني بعد مضي خمسة عشر عاما من حدوث الحوادث التي أنا ذاكرها في هذه القصة فقيل لي أن موسي قد سجن لدعوى افلاس زورها فعلمت انه أهل لما نزل به من الجزاء والعقوبة

لقد كانت الآنسة مينالو وأيم الله أجمل من وقع عليه نظرى وأما وربكن يافتيات النصرانية لاتسخرن من كلمي هذه ولا تهزأن فما قلت الا الحق. رأيتها أول مارأيتها جالسة الى نافذة عطف عليها الكرم حواشي أوراقه العسجدية تلوح من خلالها العناقيد محمرة كأنها كسيت خدود الملاح صبغها الحياء . وشوابك العيدان قد لفها التعانق اشكالا فكأنها صغار الحيات ملتفة أو كأنها نقوش صناع ابدع في تأليفها ما ابدع . وعلى وجهها الحلو الجميل وعلي ثوبها الابيض الشفاف التي الورق دنانير ظله . وكانت حاسرة الذراعين على خصرها النحيل نطاق من الحرير الازرق . وكانت تغزل شأن سائر النسوة الالمانيات . وفي زاوية الغرفة كانت تجلس أختها اما ـ امرأة شديدة البأس ـ لها صوت أشد وأجهر . وكانت جالسة الى البيانو تتغني غناء قبيحا وكنت وافدا الى بيت أبيها لتحويل صك وقد وقفت أنظر أين باب الخزينة

---

* للكاتب وليم مكبيس ثكارى مترجمة بقلم محمد السباعي

قالت الآنسة « مينالو » وأمالت رأسها في دلال وعلا وجهها احمرار ورفعت الى نجلاوين تريانك زرقة السماء ثم خفضتهما كأنما اتعبهما رؤية أجنبي مثلي وقالت « لنكس سيدى » أعني « شمالا »

فوقع لفظها من كبدى موقع الزلال على انه لفظ عادى لاشأن له ولا سر وما هو بذى لفظ حلو ولالحن لذيذ وكل مافيه ان الآنسة أخبرتني أن أذهب شملة اذ رأتني حائرا أتردد . ولو أن فتاة غيرها قالت لى « لنكس » ألف مرة لما كانت محركة مني ساكنا . ولكن شفتي « مينالو » لدن فاهتا بتلك اللفظة افترتا عن ثغر منضد وضاح ونغمة عذبة رخيمة مما فتننى وبهرني فقلت في نفسي (أيه أيها الفم المليح بل أيها الجرس الحلو شنف بهذه النغمة الرخيمة مسمعي ماغرد فى الايك عصفور ! فما أحبها الى نغمة وما أثلجها لصدرى وأنداها على كبدى) أقول قلت ذلك في نفسي ولم أقله باساني لجهلي بالالمانيـة أولا ولشـدة ارتباكي وهيبتى ثانيا . فلم أزد على أن خجلت واصطكت قدماى ورفعت قلنسوتي وانحنيت بهيئة تدل على الحمق المفرط ثم ملت الى الباب فاستلمت الحلقة أقلبها .

ثم دخلت فوجدت المسيو موسي والمسيو سليمان في غرفـة النقود وسليمان هو ابن موسى وشريكه فقضيت معهما حاجتى فاما كونهما خدعاني وغشاني فهذا من البديهيات فانه لاغنى لليهودى المرابي عن الغش أبدا — ولولم يكن الامن أجل درهم — أأقول من أجل درهم كلا من أجل دانق — من أجل سحتوت . انه ليغشك أولا فى تحويل ورقتك ثم في ابدال فضتك ذهبا وانه وان أولمك بعد ذاك وأدبك الى خوان حافل فانما يصنع لك ذلك كي يسرق ساعتك او كيسك وما كان ليرغب عن هذا ولو كنت اباه او اخاه ان موسي وابنه الآن في السجن كما خبروني حينما كنت في مدينـة بون عام اول .

ولا اكذب الله شدما خفق قلبي اذ مررت بالبيت الذى فيه رمتني لحاظ (مينا)

وليقل القائلون ماشاؤا فمـذهبي ان المرأة التى كنت تعشقها حينا مافهما صحوت عن حبها وأفقت من غرامها فلن تزال تنزل من حشاك منزلة لاتكون لغيرها . مثل هذه

لمرأة اذا دخلت علي في مجلس صبغت وجنتي وهاجت صبوتي . فرنوت اليها مرتاحا وانجذبت نحوها ملتاحا (١) هذه المرأة هي التي كنت تهوى وتعشق . وتحب اليها روحك وتعنق . هي هي . وليست هي . هاتان عيناها اللتان كنت تهوى ولكن أين ذلك النظر الفاتر واللحظ الساحر ؟ هذا هو الصوت الذى كنت تحب . ولكن أين المنطق الشهي . وحديث هو الزهر الجني . مثل هذا كمثل غرفة كان بها ليلة عرس وحفلة أنس أشرق بهاؤها . وسطع ضياؤها . وضحكت زهورها ورقت ثغورها . ثم أصبحت فاذا هي قد ذبلت نضرتها . وصوحت زهرتها . ونضب ماؤها . وغاض رواؤها ومثله كمثل دفتر أموال كان فيه من الورق مقدار خمسة آلاف فذهبت تلك الاوراق والدفتر باق . تراه فتذكر متاعا مضي . وخيرا تقضي . وكنزا فنى . وذخرا تولي . ثم تأخذك للدفتر المسلوب رقة ورأفة وتعطفك عليه ايما عاطفة ولا يسعك أن تنظر اليه نظراتك الى غيره من الدفاتر العادية وكيف وما تنفك تذكر انه كان زمنا ماقرة عين وعلق مضنة .

وهذا شأني في الحب . ان لى بأوروبا في كل اثر محبة وذكرى صبابة اعنى امرأة كان لى معها وقتا ماشأن من الشؤون . عفت عليه السنون . او كما شبهت لى دفاتر مالية فارغة بانحاء اوروبا مبثوثة وبارجائها منثورة وما ان ازال أذهب اليها واعوج عليها

مافي وقوفك ساعة من باس   تقضي حقوق الاربع الادراس

فتتمثل لعيني تلك العصور الخالية والحقب الماضية . وتتمثل لعيني عيون الاحباب قد فترت الحاظها رقة الشكوى ولين العتاب . ويصافح سمعي صدى تلكم الاصوات العذبة . وانشق شذا تلكم العهود الطيبة .

وقال لى المسيو موسي وهو يعدلى الدنانير (سيدى اذا كنت ممضيا فى بلدنا هذا برهة من الدهر فلا تحرمنى وبناتي طلعتك البهية وصحبتك الهنية) .

قلت (المدينة آية الحسن ومتعة الناظر واذا كانت الجامعة هنا تشتغل بتأليف

(١) ظمآن .

تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وكنت ممن اولعوا بهذا التاريخ فما اراني الا مقيما هنا مدة طويلة)

ذلك ماقلته للرجل والله يعلم انها علة كاذبة ودعوى باطلة . وانما الحامل لي على الاقامة بالبلد هو جمال الآنسة (مينا) وسحر مقلتيها ولولاهما لبت في بلدة (كوبلنز) تلك الليلة . وفيها اصلح الله القارئ (فندق البريد) وهو من احسن فنادق العالم .

وكان يصحبني اذ ذاك صديق لي من الجند ممراح لعوب عليم بالالمانية وكنا تشاجرنا مرتين في الطريق مرة بمدينة (روتردام) وأخرى ببلدة (كولونيا) فلما حدثت بيننا المشاجرة الثالثة هنا علمت انها فرصة فعاجلتها بالانتهاز وكلادنا صاحبي من الصلح خطوة أبعدت عنه فرسخا حتى انفرجت مسافة الخلاف وصاح قائلا : لأذهبن الى بلدة (مايانس) فأجبته ولأمكثن هنا . ثم عمدت الى أقرب فندق من بيت اليهودى وصورة ابنته نصب عيني . وبين جفني . فاخترت لي مثوى به . وقال لي صاحبي الجندى اسكن أين شئت فما أنا بمغادر مثواى بين الجنود وقد صدقت قوله عند مارأيته في نفر من ضباط الالمان عقد معهم صحبة جديدة يدخن على باب الثكنة

أما أنا فما كنت قط ممن خصوا بسهولة الجانب وأنس الناحية فابذل الصداقة لكل من لقيت وامنح المودة كل من صادفت . وأدع نفسي حمى مباحا لكل مرتاد . وفؤادى منزلا حلا لكل من أراد . ولكني كأهل بلادى وعر المرام مخوف الناحية . شامس العطف . شامخ الأنف . سامى الطرف . طامح العنان . تياه متكبر . مختال فى برديه . نظار في عطفيه . فكنت اذا دخلت مجلسا رميت ببصرى أقصى القوم نظرة الساخط المحتقر . والناقم المستنكر . ثم عزفت عنهم بناظرى ترفعا وكبرياء . وزهوا وخيلاء . وكأن لسان حالى يقول ماهؤلاء الغوغاء السفلة . وأى شأن لهم هنا . بل بأى حق وأية علة يوجدون في هذا العالم ! تلك شيمتي . وهي أظهر ماتكون بين الاجانب . والحق يقال اني لايسعني الا احتقار الاجانب حقا كان أم

باطلا . و بسبب هـذه الخصلة المحبوبة والخلة المألوفة زهدت في طعام الفنـدق الذى يتنازعه عدة و يتناوله رهط واعتبرته حطة وسفالة أشبه بالسوقة وأبعـد من الأمراء . وجعلت من دأبي وديدني أن لا أخاطب سائلا قط بل أحـدد في وجـه سائلي نظر اصغار واحتقار وكذلك لم يبق انسان الا وتركت لى فى فؤاده هيبة ومخافة . استبدلت المطعم بمنزلى مما حمـل صاحبي الجندى « ويلدار » على مخاطبته اياى ذات يوم بقوله « قبحا لك وتعسا اذا كان قصدك الصمت فلم لا تستمر تأكل معنا ؟ فانه أمرأ لطعمتك وأسوغ لجرعتك فاما من حيث خوفك كلامنا معك فالعن الله من يخاطبك ولتوقنن انه لن يفاتحك والله أحد منا ولو أدى ذلك الى انتحارك »

قلت « الا دعني آكل ما أشاء كما اشاء »

قال « فلتفعل ما بدا لك وعليك العفاء » وهكذا استبددت بمذهبي وانفردت بنفسى .

ثم أردت ان أدرس الالمانية واسترشدت المسيو (لو) فدلني علي أسـتاذ من معارفه وتبرع لى مع ذلك بكاتبه يجالسنى كل يوم ساعتين ليصلح من لساني و يقوم لهجتي فادرك بفضل ذلك صحة المخارج وحسن المنطق .

وكان ذلك الكاتب ـ واسـمه هرش ـ فتي بشع الخلقة أبيض الشـعر أحمر العينين له شاربان بلون اللهب وحلقان في أذنيه بلون شاربيه . وكان جاحظ العينـين بارز الشفتين غليظهما شديد حمرتهما وما هي الا برهة قصـيرة حتي كثر ترداد الفتى المذكور على غرفتي فلا تكاد تراه الا خارجا منها أو داخلا فيها حاملا الى الرسائل من كل صوب وذاهبا من عندى بأمثالها الى كل حدب وكنت اذا ناديته لم أقل الا (هرش ! ياهذا الوغد النكس والكلب الدنس هات حذائى !) (هرش أيها العبد نظف ردائي !) (أجر أيها الذئب فضع هذا الكتاب فى صندوق البريد !) الى مايماثل ذلك من ألفاظ المدح والتقريظ . وكان الخبيث اطوع الى من بناني لا يبالى ما ادعوه و بماذا أسبه

ورغبتي فيه أيضا انه من لدن حبيبتي (مينا) نعم انه ليس بالحبيب ولكنه من عنده انه ليس بالوردة ولكنه يحمل طيبها وشذاها و يهديك أرجها وردها وهل ببطحاء المانيا وسهلها وقاعها وجبلها وردة أبهى من (مينا) ؟

انا لولم اقصد الى تهذيب النفوس وأرم الى تثقيف الطباع ما كنت قائلا كلمة عن الفتاة (مينالو) ولا ذاكرا لفظا عما اتيته من الهفوات في ذلك الصدد وما احدثته من السقطات وما كابدته من المنغصات بسبب جهلي وكبريائي والحق اقول ان للانكليز لاسيما في ديار الغربة كبرياء وغطرسة هي اثقل على النفس وأمقت في الحس من جعجعة الفرنسيين وتبهم فالفرنسي يمشى مرحا : ويمايل مرنحا : ويفاخر في المجالس بحسبه ونسبه ولا يدع فرصة حتى يصم اذنيك بذكر ما ثره وسرد مفاخره ولكن طنطنة الفرنسي وجعجعته ليست وايم الله اشد كراهة واثقل وقعا مما يظهر الانكليزى من عظمة في جمود وابهة في جفاء وركود : وغطرسة خرساء : وصمت في كبرياء وغرور في صعر : وغفلة فى صور . والانكليزى يعتقد ان امر فضله علي غيره من الشعوب وسبقه لسواه من الأمم امر ظاهر لايختلف فيه اثنان فهو لايحتاج الى برهان فيرى من حقه ومن شأنه ان يحتقر الاجنبي اياما كان ! وينثر على خلق الله الاحتقار والازدراء اينما كان مما يجر عليه بغض الناس ومقت العالم ولاغرو فلو اى شعب آخر رمقنا بالعين التي نرمق بها الغير لابغضناه بغض الغير ايانا :

(وبعد) فلما تركت بلادى الى القارة الاروبية جعلت اتوهم اني خير من مشي على ساق وقدم واحسن من طلع عليه شمس ونجم : فاذا دعيت الى حفلة ادعيت رئاستها او اتيت حلقة توسطت دائرتها : ثم غمرت سائر الاصوات بصوتي وفي المجلس ائمة الفضل واعلام العلم وجعلت اضحك من اقوالهم وهي عقائل الاقوال واسخر من حديثهم وانه السحر الحلال فلله درى حينذاك من مؤنس مطراب وفاتن خلاب !

ومن العجب اني وهذه حالتي وتلك آرائي اجلس الى الفتاة (مينا) ساعات متواليات فلا انفك اضجرها بهذياني واسئمها بممقوت اقوالى ومرذولها واسخر بعادات بلادها

واحوال اوطانها ومافي الاموضع سخر ومجال هزء اما الفتي (هرش) فكنت اقصده بمعظم تنديدى وارميه بأكثر سخريتى بحضرة الحسناء (مينا) تفكهة لها وترويحا لنفسها حتى اقررت لها ان الفتى لا يصلح الا لبيع البرتقال والخبز فى مركبات السفر

وكانت الحسناء تقول لى (لله دركم شبان الانكليز ما أخف ارواحكم وارق ظرفكم) وكنت اجيبها جواب الابله المعتوه (اى وربك نحن كما تصفين واخف ارواحا من الالمان واظرف) ثم اقارب بين اجفاني واصوب نحوها نظرة احسب انها ستذيب مهجتها

أأذكر لك ايها القارىء ماذا كانت عاقبة محاورتي معها؟ فى المحاورة الاولى سألتني الفتاة اما تستطيب ذلك الشاى الذى اسقيك منه وتستلذه ؟ ثم ذكرت انه من واردات الصين وانه ليس بالمانيا ذرة منه عند ذلك ايقنت انه لكما تصف ولما كان صباح الغد دخل (هرش) علي باسما يحمل ستة ارطال من الشاى المذكور فى صرة وتشرفت بأن دفعت له ثمنها ثلاثة جنيهات انكليزية علي الفور

فلما زرت القوم بعد ذلك قال لى المسيو موسي لتشربن معي زجاجة من خمرة قبرص قائلا انها لا توجد الا عند اخيه المقيم فى الاستانة ولم يمض على ذلك اربعة ايام حتى سألني المسيو لو كيف وجدت النبيذ الذى بعثه الى بناء عن طلبي وهل اريد مقدارا آخر قلت عجبا ماذا تعني وأى نبيذ طلبت منك فارسلته الي ومتي كان ذلك ؟ قال ارسلته منذ ثلاثة ايام وهو فى خزانتك ثم اقترح ان يبعث الى بصنف آخر اسمه (نبيذ ميدوك) ولم يمض ساعتان بعد ذلك حتى كان في منزلى صندوق من ذاك النبيذ مشفوع بحوالة معنونة باسم جناب الكونت فون فيتسبودل (اسمي) وقد كان في الذى ابدته هذه الاسرة من الولوع بخدمتى مارد قليلا من ولوعى بهم وكف بعض الشيء من تهافتى عليهم حتى قالت لي (مينا) لما زرتها بعد ذلك وتنهدت آه ياعزيزى هل اسأنا اليك حتي حرمتنا لقاءك

قلت لها (سآتيك غدا) ثم لحظتني لحظة واومضت لى ايماضة (١) واغوثاه! ويالله

(١) اومضت ابتسمت . وايماضة ابتسامة .

اني احمق مغرور ! وقبلي ماحمق العاشقون واغتروا ومنهم اولو الالباب. وذووا الاحساب او لم ينخدع من قبلي قيصر انطانيوس وسامسون وهرقل ؟ اقول لما قدمت علي دارها من الغد وجدتها بين اوراق الكرم فتبسمت وقامت فمدت الى يدا بضة وبنانا لدنا . عليها قفاز اصفر هوعندى الى الان ! وقد كنت الفت اثناء الطريق عبارة غزل وتشبيب اردت ان احييها بها وحسبتها آية في الخلابة فلما مثلت امامها عاقتنى الهيبة ان اقول ما كنت هيأت واصابني العي والحصر فما استطعت بعد الجهد الاقولى لها اليوم حر ؟

قالت هنيئا لك يامسيو جورج مابلغت في الالمانية . لقد جريت في مضمارها شأوا وكأن بين فكيك لسان الماني .

ولكن لامر ما آثرت ان اسوق الحديث بالافرنسية . ودخل علينا ابوها فوجدني اعبث بحاشية قطيفة حمراء والحاظي عاكفة علي وجه ابنته تقطف ورد خدها وهي مطرقة اعارت الارض مقلتيها السحورين

في ذلك اليوم لم تبلغ لى الاسرة من بضائعها شيئا ثم رآني الغد بينهم والرجل يجتذب أنفاس أنبوبته

قالت الآنسة تنح عنا ياأبتاه . فسادة الانكليز يؤذيهم التبغ والسيد لاشك يمقته

فاجاب خادمك المطيع بقوله (بلي قد أدخن أحيانا)

فصاح الرجل قائلا . هات لجنابه انبوبة ياقرة عين أبيك

صاحت الآنسة نعم تلك الطويلة التي جاءتنا من تركيا ثم وثبت من مكانها وما لبثت ان عادت تحمل عصا طويلة من العناب مغشاة بنسيج أحمر مطرز بالذهب باحدى طرفيها فوهة من الكهرمان المرصع بالصدف وبالاخر أنبوبة مذهبة . ودخلت علينا الفتاة تميل وتترنح كأنها ملك يحمل عودا من أعواد الجنة .

وقالت لابد من أن أوقدها للمسيو جورج . الله أكبر . لقد كانت الفتاة تنطق اسمي جورج بنغمة أجارك الله من وقعها في الفؤاد وأثرها في الاحشاء

وبعدان أمرت أختها أن تقبس لها نارا وقفت وقفة ما رأيت قط أجمل منها ولا أفتن قدم لطيفة ممدودة الى الامام ورأس ملقاة الى الوراء ويد غضة صغيرة ممسكة عصا الانبوبة بين ابهامها وسبابتها وشفتان كالعقيقتين تلثمان فوهة العصا وابتسامة كأفتن ماطل دما . وقتل مغرما . وجاءت أختها تقهقه فاشعلت التبغ واذا بدخان أبيض دقيق الحجم يتصاعد من بين هاتين المرجانتين الباسمتين عن سمطي لآلىء نحو السقف تتضوع له ارجاء الحجرة أرجا ويفغم عبقه الخياشيم .

واذكيت الانبوبة وقدمت الى برشاقة وبنظرة كان من أثرهما انى دفعت الى اليهودى في الحال أربعة عشر جنيها ثمن الانبوبة . فاما الفوهة التي لثمتها شفتاها فما لبثت ان أخذتها فلففتها في قفازة الفتاة وجعلتهما معا لصق احشائي . ولما كان صباح الغد وقد دخل علي صديقي الجندى بغتة وجدنى مستويا في فراشي أمامي القفازة الصفراء وفي فمي الفوهة المعهودة ألوكها وأمضغها كأنها قطعة من الحلوى في شدق غلام أوحلمة ثدى في فم رضيع .

فوقف وحدق الي ثم قهقه ضاحكا وأسرع نحو القفازة وكنت اقرأ في ديوان الشاعر توماس مور . لست ممن ينزع الى الشعر ولكني وجدت بذلك الديوان قصة تصف حالى . فلما رأيت صديقي يهرول الى القفازة ثار غضبي وأرسلت (توماس مور) في وجهه فأخطأه بلطف من الله وتناول هو وسادة فرماني بها وكان من حسن حظه انه لم يلجأ الا الى هذا السلاح العديم الاذى لاني كنت فى أشد ثوران الغضب حتى لو قد بدا منه أدني اساءة لازهقت روحه لتوه وساعته

علم القارىء اذن اني لم أزهق روح صاحبي ولكني حلفت له لافعلن به ذلك لو فاه بكلمة في هذا الشأن وكان يعرف اني فعال لما أقول . وكان غير جاهل بحديث علاقتى (١) فأراد أن يجعل أمر غرامي غرضا لمزحاته الخشنة العسكرية ولكني زجرته فقال . لم تصدني عن هذا الباب وما أظنك ستقترن بالفتاة

(١) العلاقة الحب

قلت . وهبني ياسيدى سأقترن بها

قال . ماذا تقول ! أتتزوج ابنة ذاك السوقي الحقير . ويحك . ان جنود فرقتي مازالوا يتهمونك بالجنون فأكذب عنك . فاما وقدقلت ماقلت فقتلني الله ان لم تكن كذلك .

قلت . سيدى من مس كرامة الآنسة (مينا) فهونذل ساقط . ومن تناول اسمها الكريم بغير التحميد والتمجيد فهو كذاب أشر

و بعد محادثة قصيرة مضي ويلدر وتركني للقفاز والانبوبة

وكان فيما ذكره صديقى (ويلدر) من أمر الاقتران بالفتاة ما أدهشني أأقترن بابنة اسرائيل . وأنا جورج فيتز بودل ! هذا لا يكون أبدا اللهم الا أن يكون لها مليون من الذهب وما كان مثل المسيو لو ليهب ابنته مليونا ولكني سواء تزوجتها أم لم أتزوجها فقد أبيت الا التلذذ بحبها والتمتع بهواها وعدم التوقع لما يأتي به الغدقانعا بلذة اليوم .

مامضي فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

وما لبثت الا هنيهة بعد ذهاب ويلدر حتى جاءني هرش كعادته فأحببت أن أستطلع منه مقدار ثروة مينا وأجعله رسولى اليها

قلت أى هرش يا أسد اليهود . لعلك أتيتني بعصا الانبوبة

فأجاب نعم ياسيدى و بسبعة أرطال من التبغ الذى قلت انك استطبته . انه من أكرم بضاعة الشام وصفقتك فيه رابحة

قلت — وتصنعت الارتياح وعدم الاهتمام — خيرا فعلت أتدرى ياهرش أن صغرى بنات المسيو لو المسماة الآنسة حنة فيما أظن —

قال هرش وابتسم ابتسامة دهاء ومكر لا بل مينا .

قلت ليكن كما تقول مينا — أتدرى ياهرش ان (مينا لو) فتاة قتالة العينين خلابة الهوى ؟ أى وربي انها لكذلك وفوق ذلك

قال هرش أذلك اعتقادك

قلت أجل ذلك اعتقادى . وما كان قط أجمل منها أمس وهي تشعل لى التبغ لقد والله تامت لبي حينذاك ولاعت فؤادى

قال لشد ماتشرف وطننا بحبك احدى بناته

قلت أغني أبوها وكم يهب ابنته اذا هى زوجت

قال قليل جدا لا يبلغ مقدار ماتنفق في أسبوع واحد ياسيدى

قلت مهلا مهلا ! انك ماتزال تهمني بالغني وأنا بعد رجل فقير . أجل وعريق فى الفقر ؟

قال هرش : انت فقير ! ليت لى ايراد عام من أعوامك . اذن لكنت مثريا — والله يعلم انه أكثر مني مالا وثروة ولكنه يكذب

قلت وهل بلغ بك الفقر هذا الحد ؟

فاجاب انه لا يملك درهما وان المسيو (لو) رجل شحيح وانه (أعني هرش) ليفعل مهما آمر به ابتغاء شيء من المال

قلت له : هرش . اتحمل مني الى مينا رسالة ؟

لم يكن هناك أدني مايدعوني الى اتخاذ الفتى بريدا بيني و بين الغادة اذ كان من أسهل السهل ان أسلم رسائلي اليها يدا بيد . وكيف لا وقد كنت أجالسها الساعات أثر الساعات وكانت الخلوة بها من أقرب الاشياء . فما كان أسهل ان أدس لها ورقتي فى قفازها أو منديلها . ولكني كنت بمسائل الحب أجهل من طفل واخترت هرش رسولا لاني رأيت فيما قرأت من الروايات ان الحيل والتدابير ليست من شأن العاشق وما تنبغي له وانما يقوم بها خادم أورسول . ولذلك سألت هرش السؤال المتقدم وهو من يحمل الرسالة الى (مينالو)

قال مبتسما أنا

ولكن الرسالة لم تكتب بعد . وما ابتها الا كتطب من الخطوب ومحنة من

اللحن . أأ كتبها نثرا أم نظما ؟ بل نظما انكليزيا اذ أن مينا كانت تعرف قليلا من هذه اللغة . ولكن ليس في الانكليزية جميعها قافية على روى مينا والخطب أكبر فى لقبها (لو) فعلمت اني سأركب الصعب فى تأليف الرسالة بالافرنسية وتم لى ذلك مع العار والفضيحة لأتيانها مملوءة بالاغلاط النحوية مشحونة باللغو والسخف

وأخذ هرش الكتاب ورأيت من الحزم ان أرشوه على الصمت والكتمان فاشتريت منه سلسلة ساعة بشعة المنظر أولى بها أن تكون سلسلة مجرم نقدته فيها أربعة جنيهات وكان طالما عرضها على من قبل فارفضها . وخبرني الفتي ان رسالتي صادفت ايما قبول . ولكن الغادة لم تستطع وقد اجتمعنا مساء ان تفاوضني في شأن الرسالة لحضور اهلها . الا اني آنست من لين لحظها عطفا وتوددا بينما كنت اقامر سيدة سمينة (امرأة أخ الفتاة) واخسر لها الدينار اثر الدينار حتي اقفر جيبي وفي تلك الليلة باع لى المسيو لو عشرين ثوبا من التيل ليفصل القمصة ولا ينس القارىء ان المسيو لو يبيع كل شيء ولو انه شم منى رائحة ميل الى كيلومتر طوب او جراب ثعابين او كفن لوجدته من الغد على باب دارى

وأقمت أرسل الرسائل الى مينا أنسخها من كتاب صغير نافع عنوانه الغزليات الفرنسية فادخل على ما أنسخ من التبديل والتعديل مايترك العبارة المنسوخة مطابقة لحالى ملائمة لامرى . وطال ترددى الى دارها وكثر تمت تمكثى وتريثي . وتمادى هنالك تلبثى وتشبثي . وما ساءني الآن أكثر من انها أصبحت لاترى الا صحبة بعض أقاربها واذ كن يتكلمن بالالمانية طبعا لم أجد سبيلا الى امضاء الوقت الا بالتنهد والنظر والصمت . ومرت الليالى كلها سواسية فى الشقاء والكرب وما أشبه الليلة بالبارحة . والمسيو لو يبيعني كل أسبوع عشر سلع علي الاقل ـ من أطباق وسكاكين وخواتم وشمع وأساور وصابون وحلة حرير مبطنة بفروة للشتاء ومصباح بنصاب من الذهب ومؤلفات شعراء الالمان وختم المصائب بقاموس

ولايفوتني القول اني لم أستلذ التبغ الذى اشتريته من اليهودى رغما من قوله انه

أجود أصنافه و رغما من أني تلقيت دروس شربه من شفتي الحسناء (مينا)فاشتريت تبغا خلافه وضميرى يلومني على ما ارتكبت من سوء الظن وقلة الثقة .

الآن انتهيت من قصتى الى جزئها المحزن وشطرها المشؤوم

جاءني صديقى (ويلدر) ذات يوم صحبة رجل من باعة التبغ يدعى المسيو رور وأذاقني بضاعته فاستطبتها ورأيت من الدهاء والحيلة أن أحمله على استبدال مقدار مما لديه بما لدى من التبغ فاخذت أفخر ببضاعتى ثم دخلت خزنتي وعدت بكمية منها فرماها المسيو رور بنظرة ازدراء وقال

عندى من هذا الصنف كميات عظيمة

قال صاحبي ويلدر وعلى وجهه ابتسامة خبث «لا تقل ذاك في مثل هذا التبغ فقد اشتراه صاحبي من رجل صادق مخاص ومالى شهير»

قال رور بلهجة الساخر هل اشتراه من المسيو لو ؟

قلت ماعدوت الحقيقة وهو مما ورد اليه من أخيه المقيم بالاستانة

قال رور كلا بل ورد اليه من عندى وكنت بعثت سبعة أرطال منه لابنته مينالو والمسيو هرش. أخذاه مني ذات يوم بسعر ...... فى الرطل وهذا ختمي ثم سل من أصبعه القذرة خاتما له ذلك النقش المطبوع على صرة التبغ

قلت وفي صوتي رنة المحزون وفى قلبي كمد الخائب هل بعثت هذا للآنسة مينا ؟

قال نعم . وخدعتني بخلابتها عن جزء من ثمنه كان لك الله ياسيدى ان الفتاة هي التى تعقد لابيها مساومات البيع لان لها فتنة وسحرا لاطاقة لنا به

قال ويلدر وهو مسرور بمصيبتي مغتبط بيلائي وهل تبيع الخمر أيضا يامسيو رور فاجاب الرجل مبتسما عن أفظع الخبث اليهودى يصنع خمرته بيده ولكن عندى من نبيذ ميدوك لو يمن على اللورد بطلبه . أرسل الى سيدى خابية منه ؟

فصحت بالرجل أخرج من هنا والتهب فى عيني الغضب وطار المسيو رور من حضرتي مذعورا وضحك ويلدر ضحكة شيطان

وقال « سيدى كيف خدعتك هذه ما تره الاسرة ؟ فلتعلمن يا اخي ان للقوم سيرة عار وسمعة سوء . وما من شاب فى المدينة الا و يحدثك نبأ الاسرة وتاريخها . فأما المسيو « لو » فساقط القدر لئيم الأصل والفرع وأما ابنته فمصيدة الأحمق وشرك الأبله . وانك ياصاحبي لو تدرك الحقيقة لعلمت انك هدف مطاعن الناس وغرض أمازيحهم . وكم قبلك وقع الاغرار في تلك الحبالة وختلهم ذلك السراب . وذلك الجندى « هيربوك » عشق الفتاة وتمادى به الأمر حينا ثم انجلت عمايته وحدث مثل ذلك للشاب « فون تومل » ثم تداركه أهله . وشغف القائمقام « باتز » بالكبرى حتى كاد يطلق امرأته . ولم يكن الداء بين جماعة الطلبة بأقل تفشيا منه بين طائفة الجند . وما أبصر اليهودى في فتى من الطلبة مظنة ربح أو مخيلة مغنم الا استدرجه بحيله وانحط عليه بأساليب مكره ودهائه حتي انكشف أمره عند الجميع ومال عنه الشبان قاطبة فلا أحدمنهم يقبل على ابنتيه مع مالهما من القسامة والوسامة . وان شئت أن تعرف صدق كلامي فاذهب بنفسك الليلة الى مرقص « جودز برج » تبصر ما أقول لك « بعينك » فأجبته « نعم انا ذاهب بدعوة من السيدتين » ثم انطرحت على المقعد وألححت على أنبوبة التبغ استثير ضبابها سحابة اليوم وأتململ كالملذوع وقد رسخ في عقيدتي انه لابد من أن يكون في كلام « ويلدر » شيء من الحقيقة . وأقسمت بخالق السموات والارض لأذبحن كل من لقيت من الجند لسخرهم مني وطعنهم علي

ذهبت تلك الليلة مع السيدتين الى المرقص بحديقة « جودز برج » حيث وجدت الطلبة في القلانس الصغيرة والشعور المسدولة بين جالسين الى الموائد وراقصين « الوالز » وهو صنف من الرقص أمقته غاية المقت لأني لست من الرقص فى شيء ورأيت كذلك طائفة السلاح في ملابسهم المزرورة وشواربهم الملوية يدورون في المرقص ويجولون كالابالسة لارعاهم الله ولا قدس أرواحهم !

وخيل الى أني مرموق من جميع العيون اذ ولجت باب الحديقة متأبطا يمين الآنسة « مينالو » ولعل الغيظ كان بلغ بي منتهاه في تلك اللحظة لأن « ويلدر »

خبرني فيما بعد ان وجهي أزرق من شدة الغضب وكادت عيناى تشتعلان ومن نظر الى اذ ذاك أيقن اني لامحالة قاتل من الجند من صادفت

وكانت « مينا » فى حلة شفافة بيضاء كأنما قدت من جلدة الماء . أو قميص الهواء . تريك ذراعها فى قفازتها أحسن بياض في سواد . قد أجاع خصرها النطاق وأشبع الاساور ذراعان عبلتان . وكنت جالسا الى جانبها لاينطق فمى . ولكن وجهي ينطق بابين آيات الغضب ويتلو « سورة الرعد » وقد نسيت في حضرة جمالها الباهر جميع ماألم بي فى الصباح من الظنون والشكوك

ولم يجيء الى « مينا » أحد يدعوها لترقص معه وذلك ما كنت أبغي لاني أحد المصابين بداء الغيرة وهو داء لا يكاد يخلو منه عاشق ـ نعم لم يدعها الى الرقص انسان الا هرش وكان قد عاد من السوق حيث كان يشترى لنا سمكا فاني لأصب في اذن الفتاة شكوى الحب وأسألها الرد على رسائلي وكتبي. اذ أقبل هرش على الفتاة فانحني لها مسلما فبهت ونظرت الى الفتي فنظر الى ووضع يدا على ذراعي ورفع ابهام الاخرى الى شفتيه يأمرني بالصمت ثم اختطف الغادة من جانبي وشرع ينساب بها في زمرة الراقصين .

وكان النذل قدهيأ للحفلة أحسن ثيابه فخرج في أجمل شارة وجعل يدور بها في المرقص كاللولب و يبدع في فنون الرقص و يغرب حتي استوقف سائر الراقصين فتنحوا جانبا ومثلوا ينظرون منه السرعة ومنها الرشاقة

أما أنا فمع اعتقادى أن الكلب (هرش) أحط من أن تتسفل اليه غيرتي فقد وددت لو انصببت عليه بالعصا فأرسلته يطوف المرقص علي نغمات الموسيقى من شدة الوجع لامن شدة الطرب

ولكنهما مالبثا ان عادا وعلي « مينا » أثر الارتباك وحمرة الخجل

والتفت هرش الى أختها « اما » وقال « الاترقصين معى طلقا ايتها السيدة ؟ » فأجابته وسار الى المرقص فما كان أعظم اندهاشي اذ رأيت الراقصين جميعا قد تركوا

المرقص لهرش وصاحبته ! فرقصا طاقا ثم رجعا بحال من الكآبة والاسف. وصدحت الموسيقى لرقص الجماعة (نوع من الرقص يأتيه عدد كثير مثنى مثنى) فسألت «مينا» أن تقوم الى المرقص وجعلت تعتذر الى عن القيام بألف علة فلم أصغ لها وأبيت الا قيامها فأذعنت والتفت الى هرش فقلت «سر بالمدام سليمان (امرأة أخ مينا) الى المرقص» ثم سرنا نحن الأربعة.

وكان بالمرقص لدن أتيناه عشرون نفسا على الاقل يتهيأون للرقص .

فتورد وجه مينا وعرتها رجفة فحسبت ذلك لما نالها من الفرح لرقصها مع اللورد الانكليزى . وأقبل هرش برفيقته الجسيمة فوقفا ازاءنا . وعلمت انه عار ولا شك على اللورد جورج فيز بودل (انا) ان يراقص حيوانا مثل هرش . ولكنها الضرورة

فصفق المسيو هرش لرجال الموسيقي ان ابتدؤا وكنت مقبلا على وجه حبيبتى أغازلها ثم التفت واذا المرقص قد خلا من كل مخلوق الا نحن الاربعة

فدهشت الفتاة وتحول جلنار خدها بهارا وكانت لامحالة ساقطة من قامتها لولا اعتمادها على وقالت « دعني أذهب الى أبى فاني مريضة » قلت لها « بل لترقصين » ثم صوبت قبضتى نحو وجه « هرش » لاني أنست منه رغبة فى الذهاب فاضطر الى الوقوف واندفعنا نحن الاربعة في الرقص .

وخيل الى من شدة الخجل والارتباك أن الشوط الاول من الرقص استمر مائة الف عام وعجبت للفتاة « مينا » كيف لم تخر مغشيا عليها . ولكنها استجمعت قواها دفعة واحدة وقذفت القوم من الحاظها بجمرات الجحيم وعيدا وتهديدا فلو اطلعت عليها اذ ذاك لرأيت شيطانا بعد ملاك ولكنه شيطان حلو لذيذ ثم مضت فى رقصها مضاء الكوكب الوقاد . أما أنا فتوهمت بادىء بدء أن الهواء مملوء بوجوه ساخرة هازئة وجعلت أسير وملء صدرى حنق وغيظ ثم طفئت نار الغضب وهدأ بالى حتى استطعت أن أتصفح وجوه القوم . ولم يك بينهم رجل يفرح بي ويبتهج ولكني سمعت أحدهم يوجه الى « مينا » لفظة « برافو » مشفوعة بسخرية . والتفت فعرفت

القائل داني عليه احمرار الخجل ونظر أحدنا الى أخيه فكان مجرد التقاء الاعين اتفاقا على المبارزة حتي لم تبق هناك حاجة الى أدني مفاوضة في الامر . وفى هذه اللحظة أى بعد اصرارى على مبارزة الجندى هير بوك سكن هياجي وهدأ روعى فشكرا لذلك الجندى الذى لولاه لاصابني الفالج (النقطة) أثناء الرقص .

والتفتت « مينا » الى نظرة اعتاب وملاطفة وأحسست قدها الممشوق يرتجف على ذراعي اذ أرجع بها نحو أبيها وقالت « اسمعت ـ أسمعت ياعزيزى هذا الصوت؟ » (تعنى بالطبع الصوت الذى قال « برافو ») عند ذلك برح الخفاء ووضح الحق فلم أشك في ان الفتاة تعشقني فهى ترتجف خشية أن أكون قد هممت بركوب اخطار المبارزة . فتلجلج من فرط الطرب والوجد لساني ولم يك الا بعد جهد المنطق ان أقسمت لها بالله الية غراء اني ماسمعت شيئا . على حين اني حلفت فى ضميرى يمينا ضخمة لأمزقن ذلك النحر الذى خرجت منه لفظة « برافو » . فتركت غادتى وعمدت الى « ويلدر » فأومأت له نحو الرجل .

قال « هذا هير بوك ماذا تريد منه ؟ »

قلت له بحماس وحدة « صاحبي ! أريد أن أنفذ جنبيه برصاصة . فاذهب اليه فقل له ذلك .) فلما صحت بصاحبي — وقد رأيته يتردد — أما والله ان لم تنفذ للحال كلمتي لأذهبن الى الوغد فأنزعن أنفه من وجهه) أذعن منقادا ووعدني امضاء أمرى وانقلبت الى جماعتى .

واقترحت عليهم أن نزور قبل العودة الى منازلنا قلعة قديمة خربة فى ذلك الجوار تشرف على قيعان النهر ذات المياه والاعشاب . فاستلمت ذراع (مينا) وسار اليهودى مع ابنته الاخرى وهرش مع السيدة سليمان . وكانت الحيمة ثقيلة الخطو وكان اليهودى شيخا ضعيفا فكان سيرهم لذلك بطيئا حتي سبقتهم بغادتي سبقا مبينا . وعلمت انها فرصة وأردت انتهازها فجعلت أقول لها أشياء لاتكون الامن عاشق لحبيبه كقولى لها في أرق لهجة وأعذب لحن (قلبي يذوب كلما رآك محزونة .) ولا جواب فقلت

آخذا في معني آخر (انظرى الى اشراق الليل في سواده انه يكاد يمثل لى عينيك) ولا جواب أيضا ولعلها كانت في هم مبرح مما جرى تلك الليلة .

فلما تمادى بها السكوت قلت (مينا ! اني أحبك . وأراك تعلمين ذلك منذ عهد بعيد . كلاياحبيبتي لاتنزعن يدك من يدى · فانه انلم تفاوضني فى هذا الشأن شفتاك فقد فاوضتني فيه عيناك وناجاني فؤادك . فكوني زوجة لى اذن !) ثم أخذت يدها فأوسعتها تقبيلا وكنت ولاشك منتقلا الى خدها لولا أنها لطمتني أشد لطمة ونفرت مني ثم سقطت من قامتها وطفقت تصيح بأرفع صوتها .

فسمعت صوت اللعين هرش ينادى من ورائنا (مينا ! مينا ! مينا زوجتى ! ثم أقبل يصعد نحونا وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعيه صائحة (لورنزو ! زوجي أنقذني !) .

وأقبل أهلها وصاحت مينا تسبني والغضب يلتهب في مقلتيها (ويلك ياجبان بالقومى لفتاة ضعيفة يهينها وغد لئيم ! باللرجال لوهن النساء من صولة السفلة الجهال!) عند ذلك صاح هرش (يالك من جبان فاسق . لقد اطلعتنى وما استحييت على حبك الحرام لهذه الشريفة الطاهرة — أطلعتني وأنا عريسها وقرينها . ووقحت حتي جعلت ترسل اليها كتب الصبابة وانلم يصلها بعد من تلك الكتب لفظة واحدة . و بغيت خداعنا نحن اليهود فبغيت وكان عليك بغيك · فقبحا لك وويلا ! اني لأمقتك وأزدريك ! ثم جعل يمناه نطاقا للحسناء وساروا جميعا .

و بقيت كالذى ذهب عقله ثم تراجع الى رشدى ولحقتني لوعة وحرقة وذهبت الي منزلى فبت بليلة السليم : ولما كان الصباح جاءني رسول من قبل هرش له سحنة بائع الثياب البالية يحمل الى ظرفا ففضضته فاذا فيه جميع الرسائل التي كنت بعثت بها الى (مينا) ورسالة من هرش يدعوني فيها اما الى المبارزة أو الى الاستغفار من زلتى

فقلت للرسول أما المعذرة والاستغفار فله ذلك مني متي شاءأن يحضر قلت ذاك وأشرت الى عصا غليظة بأقصي الغرفة ثم ليسرع الى ان كان آتيا فقد أزمعت

الرحيل غدا فلما سمع الرسول ذلك سألني ألست أرغب فى شراء تبغ جيد اقصر به مسافة رحلتي فان لديه صنفا جمع الى غاية الجودة منتهي الرخص فأشرت الى الخادم أن يشيعه الى باب الدار وحمدت الله على ذهابه .

وما زال يجيئني من هرش كل عام رسالتان يسألني فيهما ان أقبل منه على سبيل الهدية اما قصرا فاخرا ببلاد بوهيميا أو استريا واما مبلغ مائة ألف جنيه ان كنت أوثر المال وقد رأيت زوجته (مينا) عام اول في دار التمثيل مثقلة بالماس والياقوت والشحم واللحم .

فقلت فى نفسي . اى مينا ! اسمني ماشئت واقبحي فعندى الانبوبة التي ذاقت الشهد من اعذب ثغر في طوائف موسي .


تمت

الرواية الثالثة

الاستاذ

الفصل الاول

تحتوى مدينــة ها كني فيما تحتويه من الزخارف والتحف . والنفائس والطرف عدة مدارس للفتيات . ومعاهد للغانيات . فلا تكاد ترى دارا أنيقة بيضاء . فى طرقة نضيرة خضراء الا وعلي بابها لوح ينبئك انها مدرســة للسيدات وكان مكتوبا علي احدى هذه الدور السطر الآتي

(بيت بلغاريا)

مدرسة للجنس اللطيف من سن ثلاث الى عشرين لصاحبتها ومديرتها المسؤولة

السيدة بيدج شركائها

(تنبيه ممنوع البصق)

وكانت المدرسة تتولى تعليم تلميذاتها من الفنون والعلوم مالم تزل السيدة الانكليزية بفضله في طليعة النساء وفوق سائر الاوربيات أدبا وفضلا . فتلقى الصغيرات مبادىء الغرز على اختلاف أنواعها وضروب الاناشيد والادعية ولاسيما الانشودة التى أولها

بين خضر الرياض والجنات منزل شيد للتقى والصلاة

* للكاتب وليم ثسكرى ترجمها محمد السباعى

وتلقن الكبيرات أوزان النغم وأصول التوقيع . والضرب على الاوتار والنفخ في المزمار . والنقر بالدف . وسائر صنوف الشدو والعزف . الى كثير من المعلومات التاريخية والجغرافية . والطبية والميكانيكية . وألسنة الفرنسة والالمان . والمجر والطليان والبرتقال والاسبان . خلاف على الرقص والالعاب الرياضية وكان يقوم بتعليمهما الاستاذ « دوندولو »

وكان الاستاذ برغم ايطالية اسمه انكليزى السحنة واللسان قد أخذ لهجته من صميم بلدة لندن وارتدى شمائل سكان تلك الناحية وحمل فى كل عضو وجارحة وفي كل اشارة وعبارة وحركة وسكنة حليـة أولئك القوم وسيماهم فكانه أحدهم نشأ وسطهم ودرج بينهم . ولم ير ناسا غيرهم . ولا وطأ الا أرضهم أوسكن الا ديارهم وكان مديد القامة عادى الالواح عريض المنكبين طويل الشار بين براق المقلتين .

ولست أدرى اني حصل السيد المذكور في مدرسة المسز بيدج أم كيف وجد السبيل الى ذلك المنصب على انه أشيع انها عرفته أول ماعرفتـه فى مرقص ثم تأكدت المودة بينهما حتى اذا وقع الحادث الذى أنا ذاكره الك الآن برئت السيدة الى الله من كل صلة بالاستاذ وعلاقة ومن كل نسبة اليه وصداقة . وقالت أنه ما كان لمثلها قط أن يأتي بمثله الى مثل مدرستها وانها ما كانت لتنزله بين جدران مكانها لولا لجاجـة المسز أولدرمان جرامباس . ومن ذلك يتبين للقارىء ان سيرة الاستاذ في عهده الاخير بالمدرسة لم تكن بالحميدة ـ وانه لكذلك فعسي تعلم صاحبات أمثال هذه المدارس بعد ذلك انه قد تخطيء الظنون في الاصدقاء . وتضاع الثقة والمودة عند غير الاكفاء . وان بعض الصداقة خيانة وربما تنكر الغدر في زى الامانة

أقول وجعل الفتي الغطريف دوندولو يعجب الفتيات بخفته ورشاقة حركته . ويروعهم بسرعتـه . ونشاطه وميعته في مجال الرقص وكرته . ويدهشهم بأيده وقوته وشطاطه وقامته . فمن نتيجة تعليمه انه استطاع في مدة قصـيرة من الزمن أن يمكن الفتاة « بنـكس » وكانت مفرطة السمن قطيع الخطو تبهرها المسافة القصيرة من اتقان

أعجل فنون الرقص فكانت تجول الجولة كأنها ظبية الرمل أو أسرع . ولكن أنجب تلميذاته وأملحهن جميعا كانت الفتاة اديليزا جرامباس قرة عين أبيها ومناط أمل أمها وفخر أبويها وكانت مليحة عذراء قد ارتوت من ماء الشباب وغلابها عظم وناهزت التاسعة بعد العشر . بعينين زرقاوين يعي بوصفهما كل أزرق من الحبر وان بلغ في الزرقة أقصاها . وفي جمال الصبغة منتهاها . وجبين بسنا الصباح مصقول . وطرف بفنون السحر مكحول . وشعر كذوائب الظلماء مسدول كانما عناه الذى قال

وفاحم وارد يقبل ممشا ه اذا اختال مسبلا غدره

ولكن أين منا نعتها وانها لغاية تنكل عنها سوابق الافهام . وتحسر دونها مبالغ الاوهام . وما أراني أزاء وصفها الا كما قيل

يسهل القول انها احسن الاشـ ـياء طرا ويعسر التحديد

وحسب القارىء ان يذكر اول فتاة عشقها ثم يصوغ على شكلها غانية هذه القصة المس اديليزا اقول فلما رآها الشاب دوندولو وكانت فيمن عهد اليه بتعليمهن عشقها شأن كل فتى على شاكلته له صبوة وفيه غزل وخلاعة

هذا وليعلم القارىء ان أكثر الناس فرصة لبلوغ وطره من الغانيات هو أستاذ الرقص وان اوضح المناهج وازلف الوسائل الى نفوس الحسان هو باب الرقص ولاستاذ الرقص على متن تلميذته وذراعيها وكتفيها وكفيها سلطان تام ثم هو جدير بأن يمد ذلك السلطان الى قلب الفتاة وينهيه الى نفسها . فكان يقول للمسز اديليز بصوت يذيبه الشغف ويبريه الشجى وهو يعلمها « مدى قدميك أصبعا يامسز اديليز وأنصبي قناتك » ثم يأخذ يدها فى رفق ولين ويرفعها حتي يحاذى بها شحمة أذنها ثم يمس بأنامل يسراه فقارها ويرنو اليها بعين هائم وله ! وذلك لعمر الله منظر يوقظ الهوى ويثير الداء . ولا طاقة لانثى بمثل هذا الموقف وهذه النظرة قط فلما رنا الفتى الى العذراء أول نظرة فالثانية لم تعرها الا رجفة الحياء وحمرة الخجل فلما رنا الثالثة أغضت ونكست وعلا وجهها اصفرار . وصاحت « قدحا من الماء ! » وخيف عليها الاغماء

فاسرع معلم الرقص لقضاء حاجتها حتي اذا عاد بالماء فصبه في فيها همس فى أذنها بصوت أرق منه الشوق وقطعته الصبابة « عبدك ماعشت وأسيرك مابقيت يا اديلبزا»

فاستقلت الفتاة بين ذراعي المسز بنكس وقد رآها العاشق الظافر ترفع طرفها الى سماء الغرفة وتناجى نفسها « دوندولو ! دوندولو ! »

وطالما كانت بعدذلك تخلو الى خليلتها وثقتها المسز بنكس فتقول «دوندولو ! لقد كان هذا الاسم فيما مضي من الزمان علما على بطل جليل وشهم نبيل . وهو ذلك الاسم الذى ضج به الآلاف المؤلفة من عباد الله منذ خمسمائة عام في مدينة فينيس ـ زينة البحر وعروس الماء ـ وكان جيش العدو أزاءها بالمرصاد فلما دوت في آذانهم صيحة الفينسيين « دوندولو ! وارتجت لها أرجاء الدأماد . ومادت جوانب الغبراء . ورجعت صداها القبة الزرقاء . طارت قلوب الاعداء فزعا . ونخبت أفئدتهم هلعا بينما الفينسيون تراجعت هممهم . وهبت عزائمهم . لتلك الصيحة التى تضمحل عندها زماجر الرعد القاصف . وتتضاءل لديها جلاجل المدفع القاذف . واها لهاتيك الايام يابنكس ! » وهنا تميل الفتاة علي ذراع خليلتها وتغمزها غمزة امرأة ضاق بالكتمان صدرها ثم تقول « أليس عجيبا يابنكس أن يبقي أحد ذرية هذا البيت المجيد . ذى الحسب العتيد . والسؤدد الوطيد . حتي يومنا هذا وانه مابقى الا لكى يعشقني ؟ ولكنني أنا أيضا كما تعلمين من بنات البحر . »

وانما قالت انها من بنات البحر لان أباها كان سماكا . وكانت قد أكثرت من قراءة القصص والحكايات وأشرب عقلها ذخرا وافرا من الخيالات حتى استبد الخيال في نفسها بالتمييز والتدبر وتغلب الوهم في ذهنها على النظر والتبصر . وكان أبوها قد أقصاها عن داره فبعث بها الى هذه المدرسة لما رآها عشقت فتي من غلمان حانوته عل في أقصائها ذلك مايشفيها من داء الهوى وهيهات ليس لداء الحب من شاف

ما للمحب اذا تفاقم داؤه غير الحبيب يزوره من راق

* * *

لا أستفيق من الغرام ولا أرى خلوا من البرحاء والاوصاب

فكان لا يلذها الا أحاديث الحب ونوادر العشاق ولا تقرأ من القصص الا الغرامية ولا من القصائد الا الغزلية ولا تزال تحفظ خصلة من شعر الشاعر الغرامي توماس مور وقطعة من شعره . وكذلك بدا المستر دوندولو لظنها المكذوب وهمها المخدوع كأنه نجل بيت من أشرف بيوتات فينيس فحسبها لذة وفخرا أن يعشقها وتعشقه

وكانت المسز اديليزا قد احرزت بفضل زيادة كانت تدفعها في اجر التعليم مزيدا في امتيازات جعلتها اكثر حرية من سائر الطالبات فمن ذلك انه كان يمكنها الطواف في ضواحي المدرسة مع صاحبتها بنكس وزيادة المكتبة وحدهما والذهاب في بعض وحاجات سيدة المدرسة والمسير الى الكنيسة لا ثالث لهما وانه ليسوءني جدا ان اخبر القارئ ان وندولو كان يتبعهما او يلاقيهما في كثير من تلك الغدوات والروحات

وكانت المسز بنكس تتثاقل في مشيتها حتى تنقطع عن صاحبتها اديليزا وهنالك يلتقي العاشقان وتقابل بنكس أيضا صديقا لمعلم الرقص فيرون مثني كتوأمى الورد والجلنار وقران القمرى والهزار . يتشاكون الغرام . ويتباثون لواعج الهيام . ويتزودون من سحر النظر وسحر الكلام . ما يكون تعلة الفراق حتى ساعة الانضمام . فليت كل صاحبة مدرسة تصادف مقالتي هذه فتعرف من كوامن الاسرار . ما هو جدير بالذكر والاعتبار . وتعلم انه لا يليق ترك الغانيات يخرجن منفردات لا راع ولا رقيب . ولا داع ولا مهيب . فيكن كالغنم المهملة لا تؤمن عليهن فتكة الضيغم وغيلة الذئب .

وكانت اديليزا تقول لعاشقها في مثل هذه الخلوات «عجبا يا دوندولو كيف كنت في الايام السالفة تجاذب الفتاة « زيلابيدج » اهداب الكلام ولا تنازعني لفظة واحدة ؟ » فيجيبها الفتى قائلا « ان لم تخاطبك يوم ذاك شفتاى فطالما خاطبتك عيناى » (الى هذا الحد من سقوط الكلفة وضياع الاحتشام كان قد وصل العاشقان)

فتقول الغانية « ولا تحسب اني كنت عنك اذ ذاك ذاهلة الفؤاد مصروفة الطرف فأينما سرت فعيني كانت على الاثر وانما كانت تلوك لعجزها أن تلاحظك وأنت بحياء الفتيات أعلم . وانه وان كان قد فات أذنك اذ ذاك دقات لساني فما أظن انه قد فاتها دقات قلبي ! »

وهنا يجيبها الفتى قائلا (ظنك عين الصواب ولقد كنت أسمع دقات قلبك كما أسمع حديثك الآن ومامنعني عن خطابك يوم ذاك الاخوفي أن أوقظ راقد الظن وأثير كامن التهمة. ثم اذكرى انه لم يجيء بي الى هذه المدرسة الاحبيك الذى دفعني الى مصادقة ربة المدرسة والتزلف اليها ولم يتم لى ذلك حتي تنكرت في زى أستاذ للرقص كما ترين (وهنا كان يعلو وجهه ابتسامة جهنمية . وتبرق فى عينه نظرة شيطانيـة .) ويمضى في كلامه فيقول . نعم لقد أسقطت مروئتي وامتهنت شرفي ووصمت سمعتى. وأفسدت حسب قومي ومجد أسرتي. وحملت الخزى ولبست العار بين طوتي هـذا الثواب الخبيث والبرد الخسيس وما تجشمت كل ذلك الامن أجلك وفى سبيل هواك (يا اديليزا) وهنا يهم السنيور دوندولو أن يركع تحت قدمي الفتاة فلا يمنعه الا وحل الطريق و بلله.

ولكن لابد لنا من ذكر الحقيقة وهي ان سيدة المدرسـة المسز زيلابيدج صادفت ذلك الرجل فى مرقص وكان رجلا عاطلا من الحرف والصناعات جواب بلدان وفلوات. فتقدم اليها فهويته . وادعى انه استاذ العاب فقبلته. ثم نظرته الفتاة اديليزا فعشقته. ورأت صاحبة المدرسة ان اديليزا قد فطنت الى ميلها لدوندولو فتغاضت لها عن كثير وأعارتها أذنا سميعة صماء .وعينا بصيرة عشواء .حتى حصل ماحصل.

ولنعد بعد الى ما كنا فيه من محاورة العاشقين فنقول وكذلك كانت اديليزا تجيبه بقولها (يالهذا النبأ الغريب . والسر العجيب !و ياقومي ما أخفى شأنك وأعظم أمرك! و ياويح نفسي من أنا حتي أعشق مثلك وأى سانح قـد جرى لى باليمن وشارق قد طلع بالسعد حتي ساقك القدر من ديارك لتستبي لب اديليزا وتختبل فؤادها؟.

فيقول (ما أصدق ماتقولين يا اديليزا) فـما حقيقتى كما تنظرين ولا أستطيع أن أكشف لك الحقيقة وانما هو نبأ عظيم .وأمر جسيم .وحديث يهول.وقصة شرحها يطول. ولـكني على ذلتي وشقائي.وخمولي وخفائي.وتنكر أمرى وسوء حالى وتجدد لوعتي وعفاء آمالى.أهواك يااديليزا. وانمـا أهواك بذلك القلب الطاهر الذى كنت أحمله بين أضلعي فى سالف زمني اذ انا نقى صحيفة الحسب طاهر ذيل الذكر ساطع شهاب

الصيت تلحظني عيون السعادة وتنام عنى أعين الدهر. أهواك بذلك القلب الطاهر وتلك النفس البيضاء . لا بقلبي المشوب الذى يخفق الآن بين يديك فانه أحط منك درجة وأسفل مقاما ! بلى ياصفوة الفتيات . ونخبة السيدات وزبدة العفاف وخلاصة الكرم وعصارة الفضل أني الآن نهب الخطوب وسلب الملمات . للحزن شطر منى وللضعة شطر . ولكن حسبي من زمني الغشوم اني أحبك وانك حلم نومي وشغل يقظتي . ومطمح أملي ومجال لذتي . واني وان عبس لى الدهر الآن وتجهم فلطالما هش في وجهي وتبسم . والحياة سجال يوم لك ويوم عليك.

فاصفرت وجنة الفتاة واصطكت قدماها . وخارت قواها . وكانت لامحالة تسقط من قامتها لولا أن تداركها دوندولو فرفع بضبعيها . وأخذ بيديها ثم تعلقت بعطفيه . ولاذت بحقويه . وقالت . انا لا أسألك من أنت ولا أبالى أسأت أم أحسنت. ولكني أحبك كيفما كنت.

فقال دوندولو « أتقولين أسأت أم أحسنت ؟ أأسيئك انا ؟ أيسيء دوندولو منية نفسه اديليزا ! اذن لقد خولطت في عقلي وجن جنوني ! » وهنا جذبها نحوه ونثر القبل على قناعها ونقابها بل على وجهها . وكان في فعله ذلك من شدة الوجد كالذى أصابه خبل ومس . ثم قال لها « ولكن خبريني أيتها المليحة الحسناء من أنت ؟ اني أخالني لا أعرف منك الا اسمك علي انه حلو الرنين لذيذ المسموع . »

فاطرقت خجلا وقالت « أنا من أسرة وضيعة » فقال الفتى « فكيف اذن بلغت أن تكوني بهذه المدرسة واني لك بدفع أجرها : »

قالت « ان أبوى علي ضعة النسب فى ثروة »

قال « فمن أبوك »

قالت « هو واخجلاه سماك » فصاح دوندولو بأرفع صوته (سماك ! هذا مالا يكاد يحتمل .) ثم سلّ يده من يد الفتاة وأطرق صامتا فلم يفه بلفظة حتى عادا الى جدار المدرسة وكانت المسز بنكس وصاحبها يعجبان من سكوتهما فلما صاروا من

المدرسة برأى قالت اديليزا (هذه المدرسة يادوندولو فلا بد أن نفترق !) ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه من شدة الوجد والوله

وهنا صدمت مسمعهما صيحة من المسز بنكس فالتفتا نحوها فاذا هى تعدو نحو المدرسة مسرعة واذا خليلها ثابت مكانه كالذاهل واذا صاحبة المدرسة المسز يلابيدج واقفة من الفتي والفتاة على كثب

والتفتت ربة المدرسة الى دوندولو آسفة غضبي وقالت (ويحك يادوندولو ! أكذلك تكذبني وتخدعني ؟ الاجل ذلك كان اتياني بك الى هذه المدرسة ترتع من جنابها خصبا مريعا . وتنزل من كنفها رحبا وسيعا بعد استنقاذك من وهدة الفقر وانتياشك من مخالب الجوع والباسك القشيب الجديد . وحملك علي الفاره الجديد ؟ أبعد ذلك كله تخفر ذمتي . وتنكث عهدى ؟ وتستبدل بي خرقاء ورهاء كهذه الفتاة التي يدعونها اديليزا أحق ماأراه أم باطل وحقيقة أم حلم ؟ وهل تصدقني عيناى ؟)

فزمجر دوندولو صائحا (قلعت عيناك !) ثم قذفها بنظرة كأنها شواظ من نار وولى مدبرا وهو يسب ويلعن حتي اذا غاب شخصه عن الابصار لم تغب عن الاسماع لعناته ودعواته . ووصله فى غد تلك الليلة قرار رفته من المدرسة فكان ذلك اليوم آخر أيامه هنالك

وفي الليلة التالية تحطمت نوافذ المدرسة جميعها بالحجارة .

وبعد ذلك اليوم بثلاثة أيام كنت ترى مركبة تطوى الطريق الى البلد وفى جوف هذه المركبة تجلس اديليزا قد أرمضت عينها الدموع وأنحل بدنها الهم والسهر.

﴿ الفصل الثاني ﴾

ولكن الامر لم ينته عند هذا وذلك ان خروج اديليزا من المدرسة أثار منها اسرارا كان كتمانها أوفر لعرض السيدة بيدج وأبقى علي سمعة المدرسة حتى اذا فشت وذاعت جرت على ذلك المعهد سبة وعارا . وفضيحة وشنارا . فهجرتها التلميذات مثني وثلاث ورباع ومنهن المسز بنكس والمسز يعقوب وغيرهما ممن لم تذكر بهذه

القصة أسماؤهن.حتى اذا مضي علي هذا الحادث نصف عام أقفرت عرصات المدرسة الا من تلميذتين . ابنتين لرجل عطار كانتا تدفعان أجر التعليم شمعا من حانوت أبيهما وبنا وصابونا وشايا

فلو اطلعت علي السيدة ومدرستها اذ ذاك لرأيت منظرا محزنا ومشهدا أليما ـ رأيت امرأة ناحلة البدن معروقة العظام عارية الاشاجع تجوب مكانا قفرا خربا . وخاويا تربا لايجيبها الا صوت خطاها ورجع صـداها . وهي ترثي حالها تارة بالصمت وآونة تقول (بلى لقد خبروني عنك يادوندولو انك مشؤوم الفال ماطلعت على امرأة قط الا بالنحس ولا عشقت أنثى الا اعشقها معك الشقاء. وانك مابزغت في روضة الحب على قوام مياس الا أذبلت فينانه. ولا أطللت ثمت على خد صقيل الا أشحبت أرجوانه. ويحك يادوندولو لقد تركت دارى للعفاء مسكنا وللبلي موطنا وسلبتها حلاها وما حلاها الا الخرد الغيد. والبيض الرغاديد. ومالى أشكر عفاء منزلى وخواء دارى : وقلبي على بعدك أعفي جنابا. وأكثر خرابا) وهنا تنهل عبراتها فكان في كل عين سحابة وطفاء. أو سقاء. واهى الخروق في كف خرقاء

وما هو الا أسبوع بعد ذلك حتى عطلت المدرسة ومحى عن بابها العنوان. عثرة لم تنعش منها آخر الابد. وانك ان تأت ذلك المكان اليوم قرأت على بابه (قاعة موسكو للمستر سويشتال وشركائه) والله وحده يعلم أين اختفت السيدة بيدج وفى أى زوايا الارض أخفت عارها وعبراتها .

ولم تصادف المسز اديليزا عند والدها احتفالا ولا احتفاء وأني تصادف ذلك من أهملت درسها واضاعت أدبها وكادت تقع للمرة الثانية فريسة في مخالب الفجرة وتخسر دينها للخسرة الكفرة فحق لابيها انه منعها الخروج الا الى الحدائق لشم النسمات أو الكنائس لشم الصلوات. وانه رغما من يقينها ان الفتى لعهد الوداد خافر. ولذمة الحب خاتر. غير انها لم تستطع الا لهفا عليه. وحنينا اليه. وادراكا له. وجنونا به.

أما دوندولو فكان قد اهتدى الى دار أبيها فجعل يذهب ثمة ويطوف بالبيت يتحين الفرص لاستراق اللمح ويرصد الغفلة لاختلاس النظر وكان يرقب الفتاة في

غدواتها الى الكنيسة فيقفو أثرها . وكم من مرة كنت ترى العاشقين يتلاصقان في الزحام فيشفيان ببرد التلامس حر غليل الفؤاد . ويأسوان بالتضام جراح الاحشاء والاكباد . ويدس الفتى الى الغادة في شفاعة الزحام رقعة تشرح الهوى ، وتصف الجوى فسرعان ماتختطفها الفتاة فتلفها في منديلها أوتجعلها تميمة لصدرها كل ذلك بحيلة الهوى ! قاتل الله الهوى فما ألطف حيلته . واكثر وسيلته . وانجح وساطته واكرم شفاعته وما اصح تفكيره وابلغ تدبيره فهو المليء بان يتخذ من خيط العنكبوت سلما الى غايته . ومن الشعرة سببا الي حاجته !

وكذلك كنت ترى العاشقين وان باتا من لذة اللقاء محرومين ولكنهما اصبحا بلذة التراسل فائزين وقد تمكنت الغادة برشوة الخادمة من ارسالها للفتى تسعة كتب فى الاسبوع كان يرد اليها منه الرد علي معظمها

واليك بعض تلك الرسائل وهي من الفتاة الى خليلها

(ماذا طرأ على حبيبي دوندولو من سوء الحال وتغير الهيئة ولماذا أراه فى تلك الثياب الرثة أبه فقر أم به تنكر وهل ركبه دين فادح أو ورى كبده حزن قادح أم ألحت عليه الغرماء أم طارده طالب بدماء الاليت أني على معونته وحوطه قديرة فاني بذلك مليئة وجديرة

ادیلیزا

ذيل — لما أعلمه عنك من حبك السمك بعثت اليك بحيتان كالتى تشتهيها مع خادمتى سوسان

ادیلیزا

ملحق — أتحب المحار ؟ ستحضر لك الخادمة كمية فى منديل من الحرير عليه رباط من شعر

حبيبتك ادیلیزا

ذيل — مع الرسول وعاء من شهد وخابية من نبيذ بوردو . فياليتني في هذه الخابية

ادیلیزا

فيظهر من تلك الرسالة أن دوندولو قد تغير زيه بتغير حاله . وانه يلبس لكل دهر ملبسا ولكل دعوى زيا . فلما ادعي انه من أسرة كريمة طليانية وانه أستاذ لبس حليا فاخرة . حتي اذا أسلمته جنايته الى العدم والاتراب وأفضت به جريمته

الى الفضاء والتراب . راح فى أسمال وأخلاق . وأطمار واسحاق . وحذاء يمتاز عن أمثاله بالغبرة والوحل . على انه كان مع تلك الرثاثة يبدى نخوة وكبرياء . وزهوا وخيلاء . يميل قلنسوته حتى يمس بها حاجبه ولاتزال يده في « بمباغه » تسويه لتحكمه ويبعث بكفه فى جيبه ان كان به دراهم ليسمع الناس رنينها وكذلك يرى القارىء ان دوندولو لم يكن الا متشردا قد أصاب من اديلمزا طعمة سهلة ولقمة سائغة

والاستاذ وان سرته رسالة الفتاة فقد كان بذيولها وملحقاتها أشد سرورا حتى جعل يلتهم ألفاظها بعينه ثم قام فالتهم مدلولات تلك الالفاظ (هدايا الغادة ـ السمك والمحار والنبيذ والعسل) بفمه .

وفي غد ذلك اليوم وردت على الفتاة من حبيبها رسالة ففضت ختامها بيد راجفة . وحشا واجفة . حتي اذا قرأتها لم تجد بها سرورا عظيما واليك الرسالة .

« كرمك ياعزيزتي يفوت كل وصف ويعيي كل واصف . علي انه ما كان انسان أحوج مني الى مثل هذا الكرم وأفقر من حبيبك البائس الى مثل ذلك السخاء ولقد صدقت في فراستك اذ تقولين أبك فقر . أم تنكر . وهل ركبك دين فادح ووري كبدك حزن قادح : وهل ألحت عليك الغرماء . وطاردتك طلاب بدماء » بلى بى كل ذلك وأبرح . وأصابني جميع ماتذكرين وأقرح . وشف قلبي من الهم ماتصفين وأقدح . ورماني الدهر بما قدعددت وأوفر . واكتنفني من المحن ماسردت وأكثر . نعم لقد حال بعدك الزمن وتغير وساء بعدك العيش وتنكر . وعبس بعدك الدهر وتنمر . وكشف لى الخطب عن ساقه وشمر

وقد زعمت اني تغيرت بعدها ومن ذا الذى ياعز لايتغير

أجل لقد تغيرت أحوالي زيا وثيابا . وزادا وشرابا . ولذة وهناء . وغبطة وصفاء . اللهم الا أمرا واحدا انا لازم له مالزمت الحرارة النار . باق عليه مابقي الليل والنهار وذلك حبيك : وغرامي بك !

وبعد فلتسمعي نبأى : أنا سليل بيت طلياني عريق في المجد أصيل في السؤدد يحل من شرف النسب في الغارب والسنام . وتبدو أبناؤه لنصاعة الاحساب غررا

في جباه الأيام وينزل من أكرم البيوتات حيث يلقى صميم الرأس مجتمع الشؤون من بيت لا أكون مغاليا ان قلت انه أمجد بيوتات فينيس ولقد أتي علينا حين من الدهر كنا في غبطة وسرور . ولذة وحبور . وثروة وفراء . ونعمة فيحاء . ولكن الظالم الجبار قددهم فينيس فحل رباها : واستحل دماها : واستباح حماها : وسلب حلاها : واشتف صبابتها : بعد ان امتص عصارتها فقسم قبائلنا بين القيد والنصل : والنفى والقتل فكان النفي قرعتى والغربة قسمتى يقاسمني اياها أم ضعيفة وجدة مقعدة واخوات لباسهن الخوف والذلة : والبؤس والقلة . وهن نحاف . صفر عجاف . لا طاعم لهم ولا كاس . ولا معاون ولا مواس . ولقد دافعت عنهم الدهر وحاربت دونهم البؤس والضر بجيوش الحيل وكتائب الصبر . فما دفعت عنهم هجاته ولا صددت دونهم حملاته وماذا أقول يا اديليزا أأقول لك اني احتجت الخبز والماء . وافتقرت الى المئزر والرداء . والى الفراش والغطاء ؟

و بعد فلقد وجدت السمك شهيا . وأكلت العسل هنيا . وشربت النبيذ مريا ولكن المزيد المزيد من هذه الطيبات فان ماوصلنا منها لا يشبع النهمة ولا يقصع الغلة على اني أستزيد وبي من الخجل مايتعثر معه القلم في أذيال بيانه ويحمر منه خد الطرس . وسلام الله عليك ورحمته من محبك الولهان . وصبك اللهفان .

فريدريك دوندولو

تقول لما قرأت اديليزا هذه الرسالة أول مرة نالها سخط وغضب وذلك لما بدا بين سطورها من آيات العدم والافلاس . ولا غرو أن يمتعض من كان له رقة مزاج الفتاة ويشمئز من تلك الصورة الشنعاء — صورة الفقر المدقع . والجوع الموجع

ولكن امتعاض الغادة مالبث ان اضمحل فزال وأعقبه رحمة أخذتها على الحبيب البائس ورقة . ورأفة وشفقة . ولا سيما عند ذكرها ذلك العدو الظلوم . والجبار الغشوم الذى تملك وطن الفتي وأمته . وأذل قومه وأسرته واغتصب حريته واستلب عزته ورفع على تلك الربي وهاتيك البطاح رايته فرددت قراءة الرسالة ولا سيما تلك الفقرة وكلما مر طرفها على تلك الكلم المحزنة ذابت مهجتها وفاضت مقلتها وصاحت « لا بلغن

في سبيلك مجهودي وان كان فيه حتفي ! »

ثم بدالها في الأمر صعوبة وهي أنها لاتعرف اني تجد مايعرض بطلبه دوندولو من المال ولكنها مالبثت ان انفتقت لها الحيلة فأصابت شيئا من الدنانير وما هي الا بضع ساعات حتى سمعت بحانوت أبيها ضجة عظيمة وسمع ابوها يصيح على غلامه بالويل والحرب ويدعو عليه بالبرص والجرب ويتهمه بأنه سرق جميع مابالصندوق من المال وتركه في احرج موقف واسواء حال ثم ساقه الى دار الخصام وبيت الاحكام وهو مما قرف به يعلم الله براء ومما وصم به طاهر الذيل نظيف الاناء حتى اذا حضرا مجلس القضاء اشرقت حجة البرىء واخزى الله المسيء ولكنه طرد من خدمة السماك ظلما وذلك لان للفتاة عاشقامعدما

وارسلت اديليزا الى حبيبها الدنانير طي الرسالة الآتية

عزيزى : ايكفيك ستة دنانير ونصف دينار فانها وربك اقصي مابلغته حيلتي وانتهت اليه وسيلتي وصحيفة عذرى بعد ذلك وضاحة غراء وديباجة حجتي وضاءة بيضاء هذا وقد سنح لى خاطر وهو ان غلامنا قد طرد وابى لايشهد الحانوت ليلاوكذلك يمكنني ان اقضي نصف الليل بالحانوت اديليزا

وما وصلت هذه الرسالة دوندلو حتي صحت على مقابلة الفتاة نيته قائلا « سألقاها وادخل ذلك الحانوت الملعون » وقد دخله وانما دخله ليعجل بالخسران على نفسه

وفي هذه الليلة قامت اديليزا وامها علي الحانوت تدبر شؤونه وجعلت الام والسكين في يدها تقشر المحار ليقدم للآكلين . ولم تكن السن قد قللت نشاطها ولا شمخت بها الثروة عن مزاولة مهنة كانت سبب ثروتها وجعلت اديليزا تنساب فى انحاء الحانوت كانها الاوزة فى الماء وهى تحمل أثناء ذلك الى الآكلين رغفان الخبز وقطع الزبد وزجاجات الخل . وكان معهما صبي صغير فكان يروح و يغدو بين الحانوت و بين خمار أمامه يحمل الى الآكلين ماشاؤا من خوابي الخمر

فلما انتصف الليل وكانت اديليزا تنظر من وراء زجاج النافذة الى نور القمر تقارن بينه و بين نور الغاز الوضاء ينعكس سناه علي صدور الحيتان المصقولة . فانه لكذلك

غرقة فى بحار الخيال تائهة فى بيداء التشبيه اذا بانف رجل قد التصقت بزجاج النافذة فتأملته فاذا هو دوندولو

فطار قلبها فرحا ومالت علي المنضدة وكاد يغمي عليها. وكان دوندولو يصفر لحنا فاستمر في صفيره ودخل الحانوت يداه في جيبيه يميل زهوا و يميد عجبا. وتظاهر بأنه لايعرف اديليزا ألبتة وسلم على الام وابنتها سلام خليع متظرف قائلا

(أسعد الله ليلتك سيدتي)وانحني أمام الام. (ماأحر هذه الليلة حران وجوعان أيتها السيدة كما يقول المثل. شد ما استهواني منظر هذه الحيتان ولا سيما اذ كان مقرونا بمنظرك أيتها السيدة)

فلما سمعت الام هـذا التغزل الرقيق قالت واحمرت حيـاء أو حاولت ان تحمر (دينك أيها الشاب (١))

فقال الشاب (أنت خير من ديني. أنت معبودتي. ولـكن من هذه السيدة أظنها أختك)

وأشار الي اديليزا وهي صامتة مبهوتة قد ملـكتها حيرة وعراها ارتباك وخانتها قواها فمالت علي كثبان من زجاجات (الجنجر) وارتاحت الام أيما ارتياح الى مقال دوندولو اذ يرى شبها فى الهيئة وقربا فيالسن بينها و بين ابنتها فيقول (أظنها أختك) ثم قالت (كلا ولـكنها ابنتي) ثم التفتت الى الصبي فقالت (ياأدلى افرش نضدا للسيد. أتريد محارا أيها السيد أم حيتانا)

فقال دوندولو (كليهما سيدتي فاني أتيت على قدمي من مكان قصي ومحلة نازحة. وقد نهكني الـكد. وأعياني الجهد. فياحبذا لو اسعفتيني بمقدار من كليهما. وسأبدأ ان شئت بالحيتان. وياحبذا زعانفها فما أرى أشبه بها فى الحمرة والرقة الا شفتيك قال ذلك وانقض علي الحيتان كأن يديه شبكة لاتبقي منها ولا تذر

---

(١) ألزم أوامر دينك فلا تشته من النساء ماليس لك .

فسرت الأم بحسن آداب الفتى وحدة شهيته . ثم أقبلت تشق له سمكات دقاقا. وداف السيد يترنح و يترنم حتي أتي مقعدا الى منضدة فجلس جلسة المغتبط المحبور.

وما كاد يستوى جالسا حتى سمعت الام من ناحيته شهيق ضحك مكتوم وصوت لثم وتقبيل وتلفتت تطالب ابنتها فلم تجدها فخالجتها ريبة وصاحت (يا اديليزا) فعادت اليها الفتاة وقد لبست وجنتها حمرة الجلنار بعد صفرة البهار .

فأمرت الام ابنتها أن تلزم مكانها وسارت هي بالسمكات الى الفتى حتي اذا جاءته وضعتها أمامه وقالت عابسة « واخجلاه أيها السيد ! » وما هو الا كطرفة العين حتي شرعت المرأة تضحك كما كانت تضحك ابنتها وختمت عبارتها التي أولها (واخجلاه أيها السيدة) بقولها (انته ودعني أذهب)

ولم أك معهما اذ ذاك فاعرف ماذا دار بينهما وماذا عكس الأمر وصرف السيدة عن الغضب الى الرضا وعن العبوس الى الضحك على انه يظهر لى أن دوندولو يغازل كل من صادف من الاناث و يعشق النساء بالكميات الجسيمة . والمقادير العظيمة .

وعادت الأم الى مكانها تمسح عن شفتيها ـ لا أدرى ماذا ؟ وقد عادت الى أكمل حال من الانشراح والصفاء وأرسل الصبي الى حانوت الخمار ليحضر زقا من « الجنجر » وراقودا من نبيذ التفاح .

وصاح دوندولو من أقصي المكان وهو يلتهم السمك التهاما « أسرع ! » وساء اديليزا ان رأت أضراس حبيبها تسرع في الطعام كالنار فى الحطب وما هكذا تكون العشاق في حضرة حبائبهم . حتى أنشد لسان حالها .

فلو كنت عذرى المحبة لم تكن أكولا وأنساك الهوى كثرة الاكل

والحقيقة أن دوندولو كان يأكل كالذى لم يذق الزاد قط . واليك مقدار ما أكل وثمنه كما قدمته اليه المرأة أم اديليزا

ثمن

عدد		صنف	جنيه	شلن	بنس
٠٢		حوت	٠	٧	
٠١		قاروص	٠	١	
٤٠		جنبرى	٠	٢	٤
٢٠	دستة	محار	٠	٧	٤
٠٢	خابية	نبيذ	٠	٢	٤
٠١		جنجر	٠	٤	٠
٠٤		رغيف	٠	١	٦
مجموع ماأكله المستر فردريك دوندولو			١	٥	٨

ويلزمه تقديم ثمنه الى المستر صموئيل جرامباس

قال المستر دوندولو عند ماقدمت اليه ورقة الحساب « كلا ياسيدتي يجب أن تسقطى لى شيئا في المائة » فضحكت الأم وابنتها والصبي من هذه الكلمة وقال دوندولو « ولكن ماعلينا وما أحسب انا ستتشاحن من جراء الطعام وثمنه. ولكن أضيفي الى الحساب زجاجة أخرى من « الكنياك » وأحضريها متي جرى لها ماسيجرى لى الآن . »

قالت المرأة « ماذا تعنى بقولك هذا ؟ » قال « أعني أحضريها متى وصلت مثلما وصلت الآن عجيزتي الى هذا الكرسي » ثم جلس في كرسيه وكان واقفا

فانصرفت المرأة تضحك من فكاهة الفتي ووقاحته وأخذ الصبي من بين أقدام دوندولو هرما ضخما من قشر المحار

وصاحت المرأة بالصبي « ياسام » اذهب الى الخمار فأت بزجاجة « كنياك » للسيد . ولكن لاتفعل فانك من التقاطك هذا القشر فى عمل أهم وأعظم اذهبي أنت ياادليزا

فساء ذلك الأمر الفتاة لانه حرمها اختلاس الكلام مع حبيبها ولعل الغيرة هي التي بعثت الأم أن تصنع ذلك الصنيع مع ابنتها »

فذهبت الفتاة ساخطة مغتمة وما كادت تذهب حتى أقبل أبوها وكان في حفلة أنس واالرجل على فرط حبه للهو والعبث لا يفرط في شيء من أمره ولا يضيع مثقال ذرة من حزمه وجده . فما دخل الحانوت حتي نضا عنه حلله ولبس مباذله (١) ثم أقبل علي امرأته يسألها ماذا حدث بعد ذهابه وماذا باعت

فقالت « حال لابأس بها. عندنا في الصندوق ليرتان. وورقة بليرة وثمانية شلنات» ثم أسلمته الورقة .

فنظر فيها وابتسم ثم قال « وكم كان آكاو هذا المقدار ؟ »

فقالت المرأة « كم تظن ؟ »

قال « اذا كان آكاوه ثمانية فلنعم ماصنعوا ولشد ماأجادوا »

فضحكت المرأة وقالت « فما قولك في واحد ؟ انه قد أكل كل ذلك وقد ذهب الصبي ليأتيه بناجود من الخمر فوق ما شرب

فذعر الرجل وارتاع وقال « أو أحد يفعل كل ذلك ؟ ثم تقولين انه لم يدفع »

فأخذ الرجل الورقة وأسرع عدوا حتى دخل المطعم وكان الصبي لايزال يلتقط قشر المحار وكان لايعد ولا يحصي. ودندولو أمام المائدة ثملا يضحك وينكش بالسواك أسنانه

ومثل المستر جرامباس امام الفتي النشوان وليس في جسمه جارحة الا ترتعد وترتعش وقد خطر بباله خاطر مزعج مشؤوم وهو انه قد رأى ذلك الوجه قبل ذلك وانه وجه لص

فتناول دوندولو الورقة ورمي بها في الهواء هازئا وقال بصوت كالرعد ما ابلهك وما اجنك اذ تحسب اني ادفع دانقا من هذا المبلغ ؟ أأنا أدفع فلسا ؟ ألا تعرفني . أنا دوندولو ! »

فهرع الحاضرون من مجالسهم لينظروا الفتي المشهور واندهش الصبي فسقط من

---

(١) ثياب الخدمة التى يتبذل فيها الرجل أو المرأة

كمنه مثتان وار بعون قشرة محار وجرى المستر جرامباس الى باب الحانوت يصيح وبصيح مستغيثا برجال الشرطة

وبينما كان يجرى عثر فى طريقه بشبه فتاة منطرحة على الارض الى جانبها خابية من النبيذ

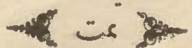
وقصارى الكلام ان الفتاة لما رجعت بخابية النبيذ سمعت الفتى ينطق ذلك الاسم المشؤوم « داندو » اسم شرير مشهور ومجرم معروف ثم ابصرت الفتي يميد من شدة السكر ويترنح و يصيح و يضحك ضحكا شنيعا ممقوتا فسطعت الحقيقة لعينها فسقطت مغشيا عليها

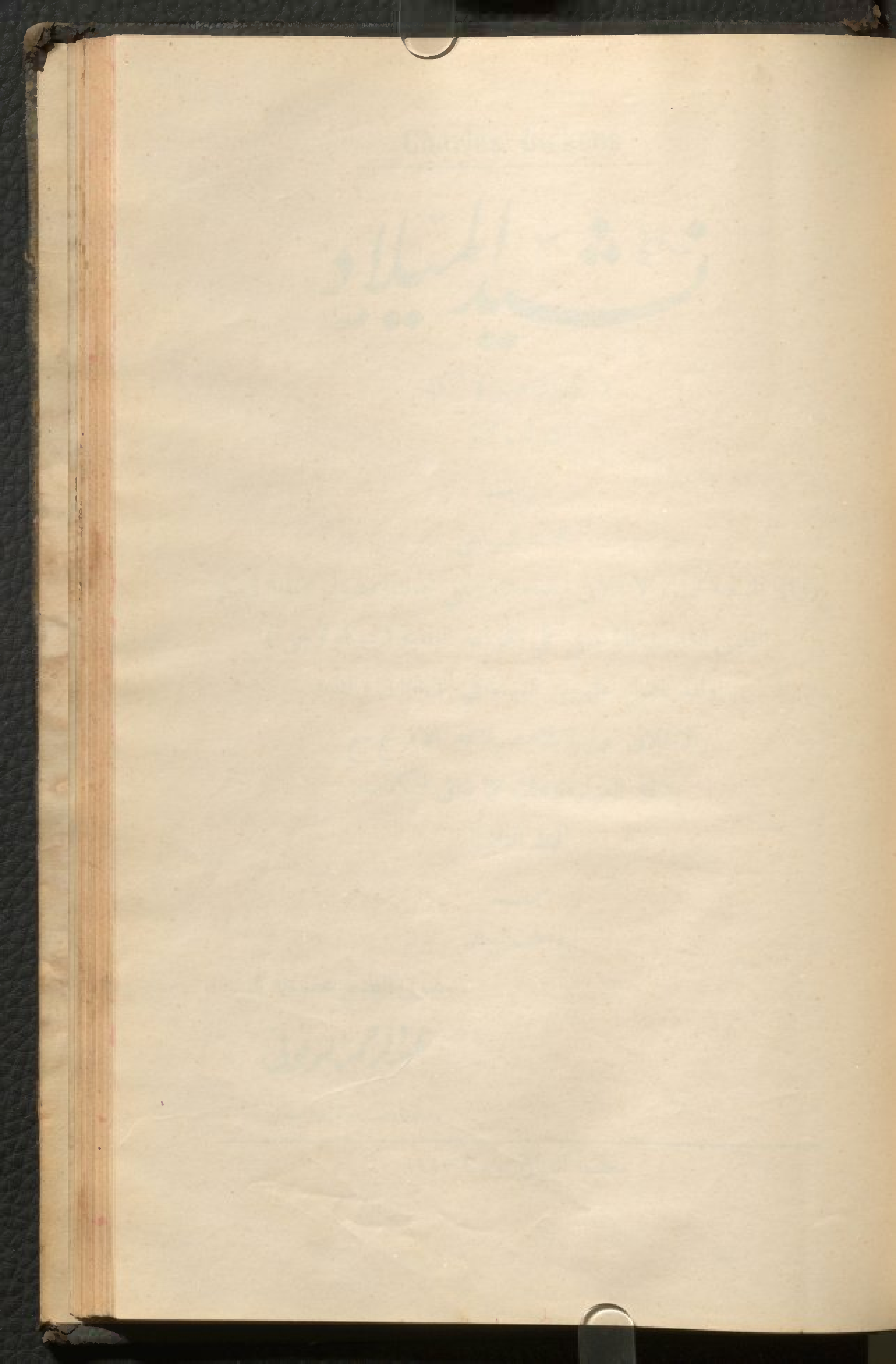
فاكب الابوان علي ابنتهما المغمي عليها وقد ذهلا عن كل ماعداها وأدنت الام زجاجة الخل من خياشيم الفتاة وسلط الاب عليها رشاش « الصودا » فعادت الى حسها ولكنها لم تعد قط الى عقلها وانما افاقت من تلك الغشية مجنونة !

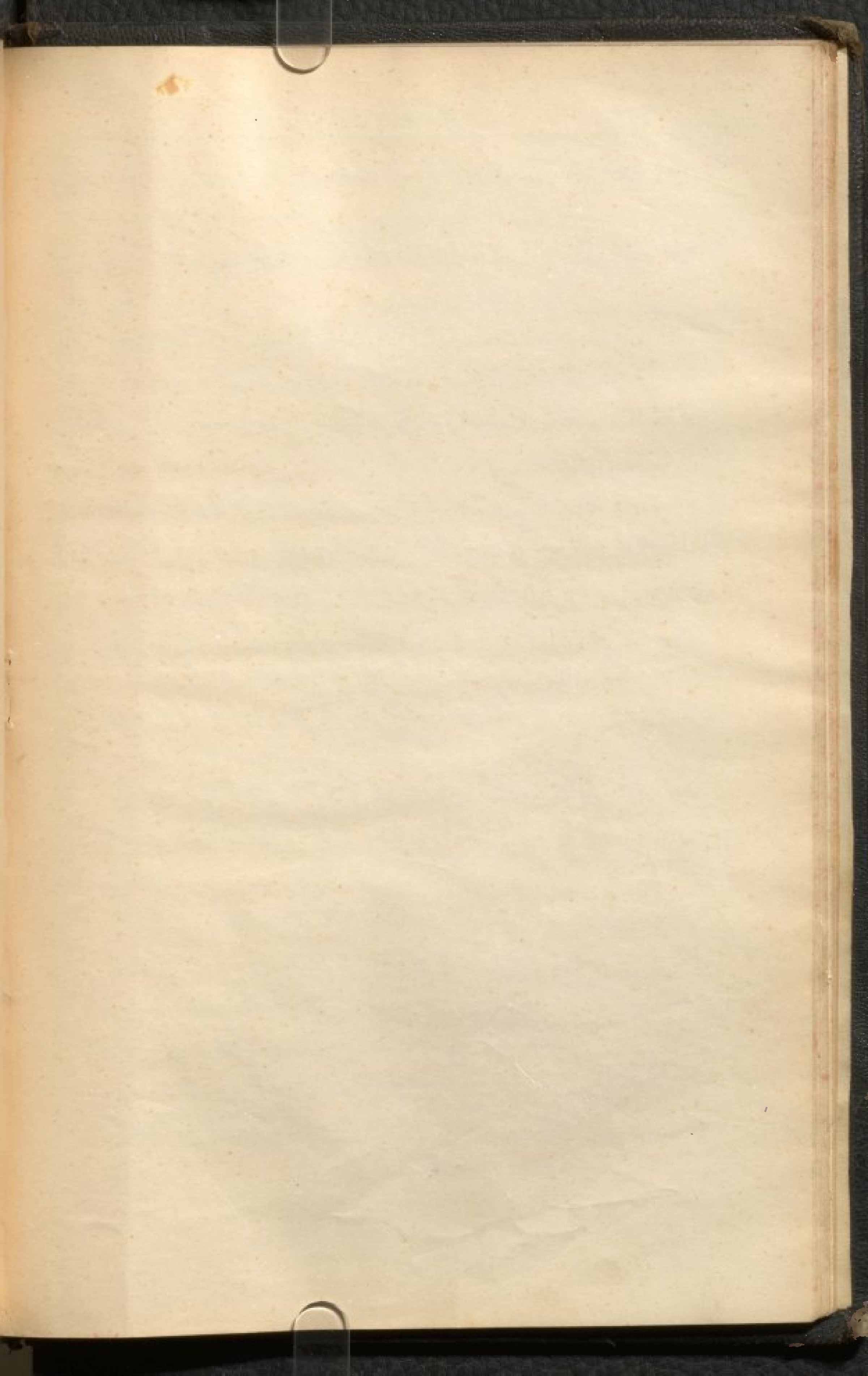
وماذا صنع الكاذب الغشاش ؟ انسل هاربا من بين الجماعة وهم في شغل عنه بالفتاة فلو أبصرته وهو مفلت اذ ذاك ابصرت نذلا جبانا ووغدا خسيسا يمر كالذى لايبالى بما يجرى حوله ولا يحفل قد أمال القلنسوة عجبا وخرج يميد و يميس خيلاء ويترنم بلحنه السافل الممقوت

ولما كان الصبي ينظف الحانوت فى غد تلك الليلة افتقد من متاع المكان وماعونه شوكتين من الفضة وصحفة من الصيني وطبقا من الصيني وابريقا ولا احسب القارىء في حاجة الى معرفة من هو السارق

ايها السادة هذه قصتى قد قلتها . فان صلحت عليها نفس فاسدة وتطهرت بعظاتها من ادران الخبث روح واحدة . فقد نلت غايتى و بلغت أربى وحسبي انها تنبه رئيسات المدارس من غفلتهن وتصحى التلميذات من سكرتهن وتبصرهن بأساليب الدهاة المكرة فيعرفنها ثم يجتنبنها . وتفطنهن الي مسالك الفسقة الفجرة فيتعلمنها ثم يتحامينها وتحذر الفتيان مخابث الشره وعواقبه ومتالفه ومعاطبه ومايجر اليه من العورات والسوآت . والآفات والنكبات . أجل لواى هذه الدروس افادت قصتى هذه لكان ذلك حسبي . ومنتهى اربي .







Charles Dickens

نشيد الميلاد

لاكبر كتاب الانكليز

شارلز دكنز

ترجمها

محمد السباعى

رواية فلسفية تصور الاخلاق والعادات وهي بجملتها فصول مختلفة في علم النفس الحديث المؤسس على القواعد العلمية (بسكولوجى) ولقد تفضل عشرين كتابا في الاخلاق والنقد الاخلاقى . وفيها تلاقت بلاغة الافرنج مع بلاغة العرب وذلك قلما يتفق لكتاب

الحلقة الثانية

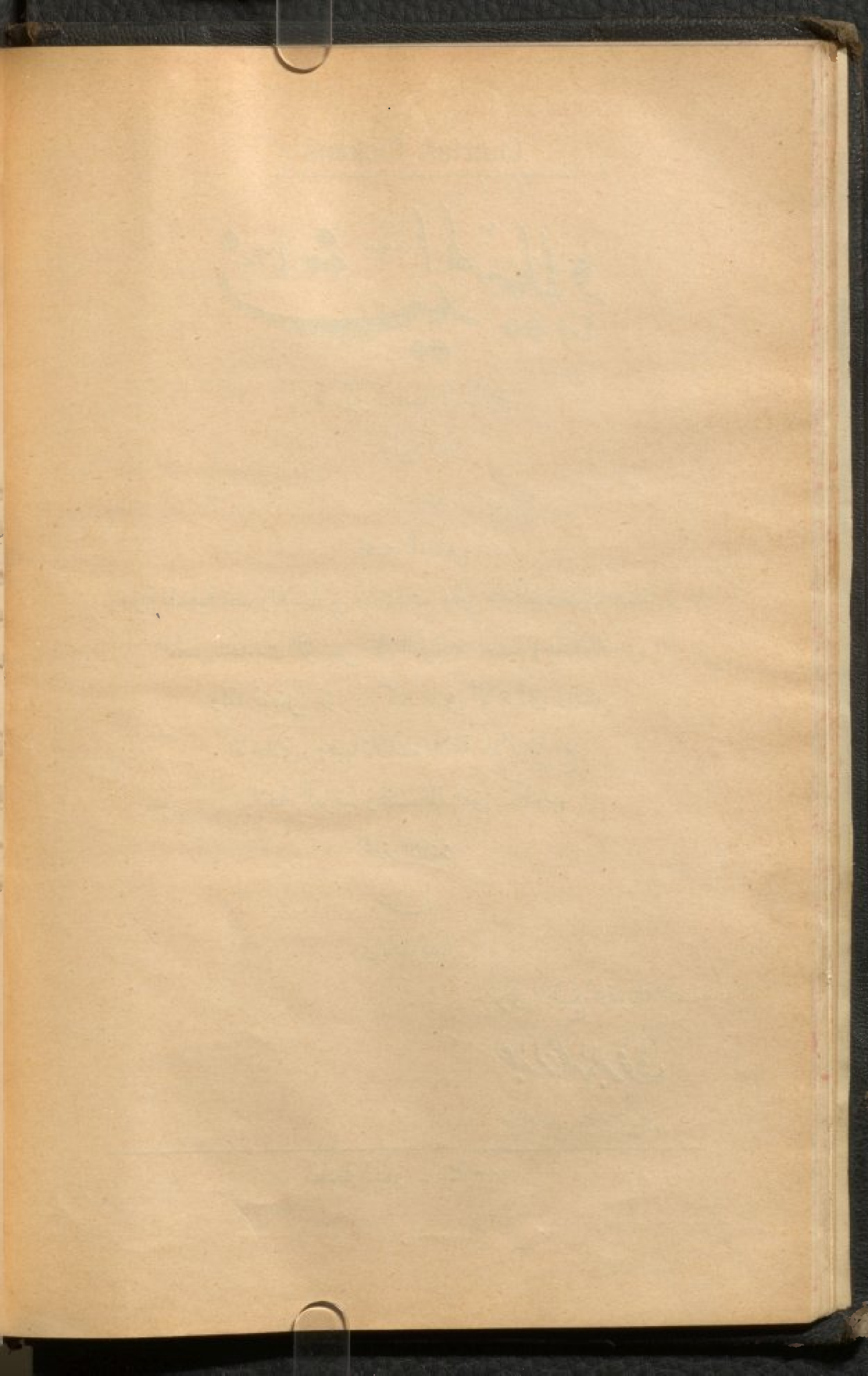
من

روايات البيان

عبد الرحمن البرقوقى

صاحب مجلة البيان

مطبعة البيان - سنة ١٩١٣



نشيد الميلاد

الفصل الاول

خيال مارلى

كان في مدينة لندن حانوت لتاجرين شريكين أحدهما يدعي « سكروج » والثاني « مارلى » فاتفق ان قبض الله « مارلى » فلم يقطع « سكروج » نفسه حسرة عليه ولا انضج كبده جوى ولا غاب عن صوابه ولا زل عن عقله ولكنه كان يوم وفاة صاحبه مثله يوم شرخ شبابه جلدا وقوة واستمساكا وحضور ذهن وسرعة بديهة حتى لأبدى هو فى مساومة الدفنة والمشيعين من الشدة والذكاء مالم يبده فى مساومات الشراء والبيع .

نقول ان مارلى صاحب سكروج كان قد مات قبل موقع حوادث هذه القصة بأزمان وقبر وعاد رهن قاع صفصف ووديعة ملحودة ضنك وانما نكرر هذا القول ليستمكن من ذاكرة القارىء ويرسب في وعائه (١) والا فلا غرابة فيما سنلقيه عليه من النبأ وننبذه اليه من الحديث ولولا صحة اعتقادنا ان أبا « هامليت » قد مات فقبر قبل مبدأ الرواية لما راعنا الماطيف خياله بظلال بيته يجوس خلالها تحت سرادق الليل على مساحب أذيال الصبا

وكان يلوح فوق باب الحانوت عنوان قد ضمن اسمي الشريكين فلما مات مارلى لم يحفل سكروج أن يزيل من الصحيفة اسم من قد زال من صحيفة الكون شخصه بل أبقى الاسمين كما هما جنبا الى جنب فكأنهما معا اسم للحانوت وعلم على التجارة وكأنهما مترادفان معناهما واحد وربما نودى سكروج بعد وفاة صاحبه « بمارلى »

---

(١) قلبه

فاجاب النـداء كما لو قد نودى باسـمه فهو سكروج ان شئت وان شئت فانه ما،لى سيان فى نفسه الاسمان وفى أذنه الجرسان (١)

ولقد كان سكروج هذا أبخل الناس وأجدبهم فناء (٢) وأجعـدهم كفا (٣) كأنما صاغه الله حين صاغه من الجلمد الصلد ذلك الذى لايرى (٤) على القدح (٥) ولا يدر (٦) على العصب (٧) والمسح (٨) وكان جافيا منقبضا محتجزا منزويا بمعزل عن الخلق منفردا وكان بارد الاحشاء لايجد القابس بين جنبيـه جذوة خـير كانما أشرجت أضلاعه على البرد والثلج يرسلان القر الى وجهـه ويلفحان بالزمهرير اسرة جبينه حتى يحولا محياه حجرا فـكأنها هو من الصخر منحوت أو سخطه الله جلمدا فهو أحمر العينين أزرق الشفتين بطىء المنطق أبح الصوت وكأن وخط المشيب في لحيته وحاجبيه ومفرقه لمع الثلج بين أوراق شـجرة هرمها الشتاء و بيض قرونها (٩) القر وكان برده الغريزى لايفارقه طرفة عين فـكان هذا الرجل يثلج هواء حانوته في حمارة القيظ ولا يدفئها في صبارة الشتاء مثقال ذرة

نعم لم يكن للحر والقر سلطان ماعلى جسم ذلك الرجل ولا أدني أثر في نفسـه فليس يشعر بحر ولابرد وليس للريح العاصف مهماطغت مثل قسوته ولاوا كف الثلج مهما ألح وألحف مثل اداآبه وصرامتـه ولا لمنهمر الغيث مهما هتن مثل أصراره ولجاجته .

وكان مقفرا من الصديق معدمامن الصحب لاخل له ولا أليف . ولاخدن ولا حليف . وما حدث قط ان بشرا من عبادالله استوقفه بطريق فسأله عن حاله وصحته واستجداه عونه أو سأله قضاء حاجته ولا حدث قط ان وقف عليه سائل أو استماحه

---

(١) الصوتان . اى صوتا الاسمين . (٢) و (٣) كناية عن شدة البخل (٤) ورى الزيد يرى جاد بالنار فهو وار . (٥) استخراج النار من الزند (٦) يجود بالدر وهو اللبن (٧) العصب هو شد فخذى الناقة لتدر قال الشاعر

وان صعبت عليكم فاعصبوها   عصابا تستدر به شـديدا

(٨) والمسح هو أن يمسح الضرع ليدر قال الشاعر

ويدر درك للالى يبغونه   عفوا بلا مـسح ولا ابساس

(٩) ذوائبها

عاف (١) أو عرج عليه طفل يسأله كم الساعة أو رجـل يستهديه السبيل أو مرأة تستنشده ضالة . بل كانما كانت كلاب العميان تعرفه فاذا رأته قادماجذبت بأذيال أربابها نحو أبواب الدور وأفنيتها خشـية منه عليهم ثم تهزز نحوه الاذناب كانما تحاول ان تقول له كفانا الله شرك ايها العبوس الانـكد »

ولـكن ماذا على سكروج من مثل ذلك الانـكار والمقت ؟ واني يسوءه ذلك وانما هو عين ما يحب و يهوى وهل كانت بغيته من العيش وشعاره في الحياة الا مسابقة الناس الى كنوز الارض يضرب الى هـذه الغاية جموح الراس مخلوع العنان لا يجذب زمامه استرحام ولا يلوى عطفه استعطاف ؟ بئست الغاية وساءت سبيلا .

فلما كان يوم عيـد الميلاد وقد جنحت الشمس للغروب كان سكروج جالسا بمنقده (٢) يكد الخاطر في حساب له وكان يوم قرة مقشعر العشيات نفاح الاصائل ذا أزيز وصراد مغيم الارجاء مضب الاجواء . وكان يسمع من حيث يجلس السابلة خارج الحانوت مقبلين مدبرين في عجلة يقضقضون الانياب من قرة ضاربي الصدور بالأكف والأرض بالأرجـل طالب الدفء وكانت ساعة المدينـة قد دقت ثلاثا ولـكن الظلام قد أناخ بكلـكله وضرب بجرانه — ولم تـكن الشـمس قد تجلت قط أثناء ذلك النهار — فـكانت الذبال تلهب فى كوى الدور المجاورة وكأنها على جانب الهواء الاسود الـكثيف داميات الجراح في جلود الزنج أو شـعل الحريق في أوصالها . وكان الضـباب مولعا بكل ثلمة في جـدران المنازل وأبوابها وكل خرق ينصب فيـه جما غزيرا وقد تـكاثف خارجها حتي لعادت الدور المقابلة لاحتجابها بالسابغ الصفيق من سجوفه واستاره وكانها أشباح الخيالات على قرب مواقعها ودنو مواضعها وحتي لخيل الى من كان يرمق تلك السحب الوطفاء البليلة الاردان الخضلة المطارف قد كتمت كل مشهد وجنت كل منظر ان الطبيعة قد قامت منه على كثب تبذل المجهود فى طبخ النبيذ — نبيذ الشعير

وكان باب حجرة سكروج مفتوحا حتي لا يزال مطلعا منـه على كاتب له كان يشغل غرفة قريبة القطرين . دانية الحجرتين . كانه يقوم منها في وجار أو نحوه وهو

(١) طالب المعروف (٢) موضع نقد الدراهم

ينسخ أوراقا وكتبا وكان بغرفة سكروج نار ضئيلة ولكن نار الكاتب تخالها لفرط الضؤولة جذوة واحدة . وليس فى وسعه أن يحشها لان مفتاح وعاء الفحم كان يحفظه سكروج في غرفته فلما دخل عليه الكاتب في يده المسعر قال له سكروج مابك الآن الى النار من حاجة فانما هي برهة وتنصرف فارتدى الكاتب رداءه الابيض وحاول الدفء علي لسان الشمعة واذ كان جديب الخيال لم يرزق تصورات الشاعر خاب مسعاه فى ذلك وأخفق .

« عيد سعيد ياعماه ! أحياك الله لكل عام ! » بهذه الدعوة صاح صوت جذلان مبتهج صوت ابن أخي سكروج وكان قد أقبل نحوه مسرعا حتي لم يشعر به الاماثلا بين يديه

فقال سكروج « هراء كل هذا وهذر »

وكان هذا الشاب القادم قد أحمى بسرعة السير فى البرد والضباب عروقه حتى ليتوهج وجهه وتتقد عيناه

ثم قال لسكروج « أتقول عن تمجيد العيد هراء وهذر ياعم ما أحسبك تعنى ماتقول »

قال سكروج « بل أعنيه أتقول عيد سعيد ! بأى حق تسعد ؟ بأية حجة أم بأى عذر تسعد ؟ ان لك فيما أنت فيه من الفقر والعسر لمندوحة عن السعادة »

قال ابن أخيه في جذل وفرحة « وأنت بأى حق تحزن و بأى حجة أم بأى عذر تكتئب أو لست غنيا ولك في غناك عن الحزن والاكتئاب مندوحة »

ولما لم يكن لسكروج على هذا الكلام رد حاضر لم يجد خلاف تكرار كلمته السالفة هراء كله وهذر ! »

قال ابن الاخ « لا تغضب ياعم ! »

قال العم « كيف لا أغضب وقد ابقاني الله في خلف كجلد الاجرب كلهم مأفون الرأى أحمق . عيد سعيد ! سوأة للعيد أين منه السعادة انما هو ابان الدفع وزمن التقاضى على حين لا مال ولا نشب . ولا فضة ولا ذهب . زمن تتأمل فيه نفسك فاذا قد زيد عام فى عمرك ودنوت من القبر مرحلة وما دنوت من الثراء خطوة

وأما لو كان بيدى الامر لحكمت على كل أحمق يجوب انحاء البلدة مرددا قولة « عيد سعيد » بأن يسلق فى مرجله ويدفن وقد غيب في حشاه عود شواء ! »

« عماه ! »

« بني أخى ! الكل مناديدن ومذهب فالق العيد بما تشاء ودعني أتلقه بما أحب »

« أدعك تتلقى ! ولكن لا تتلقاه »

« اذن دعني انبذه فانه لا يضيرك ولا بأس عليك منه ! بل ربما أفادك ونفعك ! »

قال ابن الاخ « ان هناك أشياء جمة قد كنت لو وفقت واجدا فيها نفعا فاما ولم أوفق فلقد حرمت جداها ولم أرزق خيرها ومن بين هذه الاشياء عيد الميلاد بيداني على كل ذلك لا ازال أذكر عيد الميلاد بخير وأشهد انه زمن بر وفضل ومعروف ونائل وعفو وصفح وعطف ومرحمة . وانه كذلك وقت روح وانس وبشاشة وبشر وصفاء وحبرة ودعة وغبطة وان فيه لافى غيره يتبادل الناس الوداد ويتباذل الخلق المحبة ويفتح المرء لاخيه أغلاق نفسه ويفض الرجل لجاره خواتيم صدره ويتهادى الخلان ودائع الضمائر . ويتقايض الاخدان دفائن السرائر . ويرى أعيان القوم فيمن هم دونهم من العباد أناسا مثلهم يجمعهم وأياهم اب واحد وقد خلقهم وأياهم اله واحد وانهم يسيرون واياهم في طريق واحد الي أمد واحد — القبر — لذلك رأني وان لم استفد من عيد الميلاد لا دينارا ولا درهما أعلم حق اليقين اني لقيت منه خيرا وسوف القي . فلا غرو ان رفعت عقيرتي بالدعاء له قائلا الا فحيا الله عيد الميلاد مادعا الله داع ! »

فطرب الكاتب في غرفته من خطاب الفتي ولعبت بعطفيه أريحية فقال « آمين لافض فوك ! » غيرانه فطن فى الحال الى ماصنع وعلم انها هفوة فاقبل علي النار حائرا خجلا يؤرثها وماذا يؤرث جذوة كليلة تموت وتحيي فما هو الا ان أجال بها المسعار حتي خمدت .

وقال سكروج يخاطبه اسمعني حرفا آخر اجعل رأس ملاذك في هذا العيد عزلك عن عملك ! ثم التفت الى ابن أخيه فقال « لله أنت يافتى من بليغ لسن

خطيب مجمعة تغلي شقاشقه اذا رموه بابصار واسماع

أ كفف عني غرب لسانك فانه طلق ذلق غواص على موضع الحجة ودعني فاست من أقرانك عجبا لك يكون بين شدقيك مثل هذا الصارم العضب ثم لا تذهب الى البرلمان فتعلو ذؤابة منبره تخطب القوم فتطبع الاسجاع بجواهر لفظك . وتقرع الاسماع بزواجر وعظك ! »

قال ابن الاخ « خفض عليك ياعم واحضر اخواننا مساء غد »

قال العم أبي الله أن أفعل ذاك ولم ياعم

« لانك اتخذت زوجة فقل لى لم تزوجت ؟ » « لاني هويت »

فقال سكروج متهكما كانما ليس في الكون شيء أسخف من الفرح بالعيد الا الحب « لانك هويت ! أمض في شأنك وسلام عليك »

قال الفتى « وهل كنت تصلني ياعم وأنا عزب فأذم الزواج اذ صار سبب هجرانك وقطعيتك ؟ »

فقال سكروج « عليكم السلام »

قال الفتى « أنا لا أطلب اليك شيئا ولا استجديك عطاء فما هذا السخط والعداوة »

قال سكروج « عليكم السلام »

« شد مايسوءني والله أن أجدك على الصد والجفاء مصرا ولم يك قط بيننا مشاجرة أو مشاحنة. غير اني أديت بزيارتي اياك فرضا حتما وقضيت حقا لازما وان من تمام الفرض ان لا أقابلك بمثل صنعك ولا أجزيك بالشر شرا فهون عليك وأطلق وجهك و يمن الله طلعة العيد ياعم ! »

« عليكم السلام »

(واحياك الله لامثاله)

(عليكم السلام)

فخرج ابن أخيه غير ساخط ولا ناقم ولا ناطق بأدني مذمة ثم وقف بالكاتب هنيهة فحياه بقدوم العيد وكان على قرة اطرافه ادفأ ناحية من سكروج وأحر باطنا فرد علي الشاب التحية .

وسمعه سكروج فقال لنفسه عجيب والله ! هذا انسان آخر أجره خمسة عشر

شلنا في الاسبوع وأبو اطفال و بعل زوجة ثم هو مع ذلك يذكر العيد والسعادة ويتحدث عن الفرح والمسرة . مابقى والله لى الا أن أمضي الى مستشفى المجانين »

وكان الكاتب عند تشييعه الشاب الى باب المحل مكن رجلين من الدخول وكانا بادنين بشوشين فمثلا امام سكروج حاسرى الرأس تحية واكراما وانحنيا وكان في أيديهما أوراق ودفاتر

وقال أحدهما ونظر فى جدول أسماء بيده (سكروج ومارلى على ما أظن المستر مارلى أخاطب الان ياسيدى أم المستر سكروج)

(لقد توفي المستر مارلى منذ سبع سنين فى مثل هذه الليلة)

(لاشك عندنا فى أن السيد الباقي خير خلف من الذاهب وان سيل الجود والمعروف مانبض من كف غيبت في اللحد الا ليفيض من يديك الخضلتين) ثم قدم القائل صحيفة الاكتتاب

فلما سمع سكروج لفظتي الجود والمعروف هز رأسه عابسا ورد الصحيفة الى ربها

قال الرجل وتناول قلما « في مثل هذا الوقت من العام يجمل بنا يامستر سكروج ان نبذل للفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل شيئا من الزاد والملبس برا بهم ورحمة فكم ألوف من الانام غرثي الاكباد الى فلذة كبد مشوية وكم ألوف ظمأى الشفاه الى شفة كاس روية . وكم ألوف مهادهم الغبراء . وغطاؤهم السماء . وكم غير ذلك من حرق بقلوب خلق الله وآلام . وغليل في مهج عباد الله وأوام . فرحم الله امرأ أخذته على أبناء الخطوب رحمة . وجزى الله امرأ فرج كربة وكشف غمة . »

قال سكروج « أليس في البلد سجون؟ »

قال الرجل ووضع القلم « بلي وما أكثرها »

(وملاجئ ؟ أليست الملاجئ باقية ؟)

قال الرجل (نعم وليتها ليست باقية)

(اذن فقانون العقوبات وقانون الفقراء لايزالان ينفذان؟)

(نعم ياسيدى)

(الحمد لله على ذلك فلقد والله أوهمني كلامك ان شيأ أصاب القانونين فأبطلهما)

قال الرجل (انه لاعتقادنا ان السجون والملاجيء لاتهب العباد روح القلب وراحة البدن قد قمنا بجمع شيء من المال نبتاع به للمساكين مأكلا ومشربا وملبسا وانما اخترنا هذا الاوان دون سائر الاوقات لان فيه يبلغ الرخاء والشدة أقصاهما ويصل الضيق والسعة الى منتهاهما . وفيه يغدو المنعم الخافض أحس ما يكون بخصبه وكثرته . و بجدب المعدم المحتاج وقلته فبكم تتبرع ياسيدى ؟)

(بلاشيء مطلقا)

انما أريدان تدعني وشأني واما وقدسألتني مارغبتي فهذه رغبتي ايها السيدواذ كنت لاالهوايام العيد فكيف اعين علي اللهواهل الكسل والبطالة ؟ فاما المعوزون فأبواب الملاجيء والسجون امامهم مفتوحة)

ولكن كثيرا من الفقراء لايستطيعون الذهاب ثمت وكثيراما يؤثرون علي ذلك الموت »

« اذا كانوا يؤثرون الموت فدعهم يموتوا ليخف الزحام فتتسع مذاهب الحياة وتصفو مشارب العيش واعذرني بعد فلست افهم هذه الاكتتابات ولا افقهها »

« ولكنه يمكنك ان تفهمها »

« انه امر ليس من عملي وحسب المرء ان يفهم عمله فان فيه عما سواه لشاغلا والسلام عليك ايها السيد ! »

فلما وجد الرجلان انه لافائدة في الكلام ولا طائل وانهما انما يخاطبان من ذلك الفظ صخرة صماء . ويرقيان منه حية لاتطاوع الرقاء .

كانا اذ سألناه وقفنا سائلى رسم

مال بهما عنه جانب من اليأس صادف . وثناهما دونه عطف من الاباء عازف فولياه ظهريهما وخرجا . وعاود سكروج أعماله وهو أرضي ما كان عن نفسه وأسر ما كان بخلقه .

وكان الضباب قد زاد ارتكاما وزادت الظلماء تكاثفا وجعل الناس يهرعون من مكان الى آخر حاملي المشاعل وكان ببرج الكنيسة المقابلة جرس ابح الصوت يشرف علي سكروج ابد الدهر من كوة قديمة بالحائط فلما تراكم الضباب استتر

ذلك الجرس وجعل يدق الساعات والارباع من وراء حجاب يتبع كل دقة بذباذب رجافة تخالها قضقضة أنيابه فى رأسه المقرور وطغا القر وكان بقارعة الطريق نفر من العمال يصلحون أنابيب الغاز فلما أفرط عليهم البرد شبوا نارا وثابوا اليها شبابا في رث الثياب وكهولا يصلونها ناشرى الأكف على ذوائب لهيبها قريرى الأعين من فرحة وسرور . وكانوا قد خلفوا الحوض لاحد عنده فجمد فيضه وآل ثلجا غليظا جافيا . وكانت الحوانيت مسرجة تتلألأ والمصابيح في كواها وهاجة تتمطى أعواد الريحان فى حرها وتطقطق . وتتفطر جلود الثمار وتتمزق . وماء البشر في وجوه الناظريها يجول ويترقرق . وشعاع الفرح يضيء ويتألق . وأصدر محافظ المدينة من سماوة عرشه أمره العالى الى طهاته الخمسين أن يحتفلوا فى صنع المآدب أيما احتفال ويتأنقوا أيما تأنق وان يأتوا بما هو خليق بشرف منصبه السني وسمو منزلته الرفيعة ولم يكن الخياط المسكين الذى غرمه المحافظ خمسة شلنات منذ يومين لسكره وعربدته بأقل احتفالا للعيد من المحافظ نفسه فلقد أقبل هذا المسكين تلك الساعة على قدره يوقرها لحما وشحما وقد خرجت امرأته القمئة الضئيلة وغلامه الصغير فى ابتياع البقول والتوابل .

وما برح الجو يزداد غيما وقرا وأى غيم وقر ! ضباب كان على مناكب الليل منه دكن المطارف وسود العصائب . وبرد كانما يسل الهواء به حماة العقارب. وظبي البيض القواضب . ولقد حكي ان ولى الله القديس « دانستان » حارب الشيطان بالصارم المرهف . والذابل المثقف . فما بلغ منه ولو انه رمى عرنينه بقطعة من برد تلك الليلة لخطم أنفه . وذلل عطفه. وشر مارمى به الأنف برد قارس . في ليل دامس . نقول وقدم على حانوت سكروج فى تلك الساعة مسكين قد خزم أنفه القر وعض مارنه الصر كما يعض الكلب العظمة ويقرضها فاكب على ثقب بابه وأنشأ يتلو .

حباك الله سراء ولا لقاك ضراء
وساق اليك فضل الله نعماء فنعماء

وما كاد يتم البيت الثاني حتى اختطف سكروج مسطرة من ورائه فأهوى بها نحو الباب ففر السائل مذعورا وأسلم لغاشية الضباب ثقب الباب .

وأخيرا آن للحانوت أن يقفل فنزل سكروج عن مجلسه و بوده لا ينزل ثم اعلم الكاتب المنتظر المرتقب انه قد حان أبان الذهاب فتلقى الكاتب النبأ المفرح مثلوجا به صدوه مشنفا به سمعه

وكان أغض فى قلبي وأندى على كبدى من الزهر الجني

ثم أطفأ الكاتب الشمعة ولبس قلنسوته .

وقال سكروج « أتريد أن تفرغ النهار كله غدا ؟ »

قال الكاتب « ان سمحت ياسيدى وكان لا يسوؤك »

قال سكروج « انه ليسوؤني وليس عدلا وهبني نقصت أجرك لذلك شلنين أما كان يسوؤك ؟ »

فابتسم الكاتب ابتسامة كليلة :

وقال سكروج « ولكنك لاترى في انقطاعك غدا غبنا علي ولا وكسا ولا تجد في ذلك ما يسوؤني »

فقال الكاتب أنها مرة في العام واحدة

قال سكروج « قبح عذرا والله ان تسرق من مال الرجل كل خامس وعشرين من ديسمبر ثم تقول له انما هي مرة في العام واحدة »

ثم زر عرى جيبه الى الحلقوم وقال

(ولكني لاأرى بدا من فراغك طول الغد فليكن ذلك أغرى لك بالبكور غداة تاليه فوالله لو جئت مع القطاة مطلع الفجر ما كنت عائضي مما خدعتنى عنه)

فوعده الكاتب ذلك وخرج سكروج يسب و يلعن ثم أغلق المكان في أسرع من اللمح وانطلق الكاتب الى داره

أما سكروج فتناول غداءه في كآبة على خوان تضفو عليه ظلال الكآبة بخان تغشاه ظلم الكآبة و بعد أن قضي ساعة من الليل بين الصحف والدفاتر ذهب الى

مثواه وكان يسكن غرفا قد كن من قبل مثوي شريكه وكانت تلك الغرف تشغل جانبا من بيت عتيق يحل من موضعه ذلك محلا لايشبا كله وليس بينه و بينه مشابهة حتي لتحسبه انه كان يلاعب اذ هو صغير أندادا له من البيوت وأترابا فرمت به الاجارى تلك البقعة وأراد الرجوع فاشتبهت عليه معالم القصدوعميت عليه المذاهب فبقي حيث هو وما أطاق حراكا وكان بيتا عتيقا قفرا موحشا لايسكنه غير سكروج انسان فاما سائر الغرف فكانت مكاتب تجارية : وكانت الساحة من شدة الظلام بحيث جعل سكروج يسعي بها متعيثا وانه للعليم بموضع كل حجر فى بنيانها وموقع كل لبنة وكان الضباب والبرد قد جالا مدخل الدار وحفا جوانبه فكأن شيطان الزمهرير قد نصب ثمت أريكته وجلس مطرقا من الهم يتدبر

وكان بالباب مقرعة ليس لها ميزة قط سوى أنها كبيرة ولقد كان سكروج يراها منذ سكن تلك الدار صباح مساء وسكروج فليعلم القارئ أجدب الناس مخيلة وأقلهم توهما ثم انه منذ مات صاحبه لم يذكر عهده أبدا ولا خطر قط بباله واذ كان ذلك كذلك فمن لى بمن يفهمني كيف ان سكروج أبصر فى تلك المقرعة حين وضع المفتاح في قفله لامقرعة وانما وجه مارلى ؟

وجه مارلى ولم يك عليه غشاوة من الضباب وحجاب من الليل كسائر الاشباح ثمت ولكنما كان محفوفا بنوع من النور شاحب يورث الحزن والوحشة ولم يك على ذلك الوجه سيمياء غضب ولا غلظة بل رآه سكروج على عهده به أيام حياة مارلى علي جبينه الخيالى نظارتاه الخياليتان وكان أشعث الرأس كأنما نفش شعره نفس متنفس أو هواء حار وكانت عيناه على سعتهما شاخصتين لاحراك بهما وكان ذلك الشخوص مع شدة انتقاع اللون مدعاة الى بشاعة ذلك الوجه وشناعة صورته على أنها بعد بشاعة برغم أنف ذلك الوجه وفوق طاقته وليست من خواصه وصفاته

فلما أدمن سكروج الى تلك العجيبة النظر اذا بها قد تحولت بغتة مقرعة فلو اننا قلنا ان سكروج لم يرع ولم تعره هزة ماالمت قط به منذ عرف الدنيا

لقلنا اذن كذبا على انه برغم ما أصابه من الروع والذعر أمسك المفتاح فلواه بشدة حتي اذا انفتح الباب ولجه واشعل شمعة

وتوقف برهة قبل ان يغلق الباب وفتش ماوراءه كانما كان يوجس ان يرى بثقب الباب ذيل رداء مارلى ناشبا ولكنه لم يبصر بالباب شيأ فقال (نعوذ بالله) ثم دفع الباب فانغلق محدثا صوتا

فدوى لذلك الصوت فى ارجاء المنزل صدى اشد والله من جلجلة الرعد وزمجرته وكان لكل حجرة بأعلي البيت ولكل طابية بحوانيت الراح بأسفله اسلوبا من الدوى وضربا من الطنين خاصا بها ولكن ليس مثل سكروج من تروعه الاصوات وتهوله الاصداء فعمد الى الباب فشد اغلاقه وسار يجتاز الساحة ثم صعد السلم على مهل يصلح الذبالة وهو صاعد

ثم تراآى له مركبة نعش عريضة المناكب ترقي السلم امامه في الظلام وكان حالكا بذلك المكان لاينفذ في حجابه الصفيق ولا عشرون مصباحا فليتصور القارئ فى اى ظلمة كان سكروج اذ ذاك

ولكن سكروج ليس بالهيابة الجزع يروعه الظلام وتذعره الظلال والاشباح ولو لم يكن للظلام فضل على الضوء الا ان هذا غال وذاك رخيص لكفي بذلك مغريا لسكروج بحب الظلام وايثاره على الضوء فأما الاشباح والظلال فمادام لاطماح بها الى جيوب سكروج فانه لاضير عليه منها مهما تشبهت له وتراءت . الا انه مع ذلك لم يغلق باب مثواه حتى جاس خلال حجراته ليرى هل بها من بأس وكان يحمله علي ذلك مالم يزل يستحوذ على مخيلته من صورة مارلي

وكانت الغرف مقر الأمن ومهبط السلام لاظل بها ولا شبح ولا خيال ولا حس ولا حركة تقد فى مصلاها نار صغيرة وعلى الخوان ملعقة وصحفة وابريق فيه حساء دواء لسكروج من برد أصابه والمكان بحمد الله خال خاو لاأحد تحت المائدة ولا تحت النضد ولا تحت الوسادة ولا أحد يختبيء بين حضني جلباب نومه المعلق علي الحائط بهيئة مريبة . ثم غرفة المتاع كما هي وكذلك المدخنة والاحذية

والجراب والسلة وحمالة الزير والمكنسة

حتي اذا اطمأن باله وقرت حاله أغلق وراءه الباب وراح آمن السرب ثم نضا ثيابه ولبس جلباب النوم وجلس الى النار ليتعاطى حساءه

وكانت نارا كليلة ضئيلة لاتعد شيئا في مثل هذه الليلة الخصرة والقرة المرة . فكان لاحيلة له فى امتيار الدفء من تلك الجمرات القلائل الا الدنو منها وطول مصابرتها ومطاولتها . وكان الموقد قديما قد فرشت أرضه بشظايا حجارة نضد بعضها الى بعض ونقشت عليها صور من الانجيل والتوراة كصورة هابيل وقابيل وبنات فرعون و بلقيس ورسل من الملائكة تهبط من السماء على مطايا من السحاب وصورة ابراهيم و بختنصر والحواريين ومئات غير هذه كلها جدير ان

يدافع أناء الملالة شكله ويجتذب العين اجتذاب الزخارف

ولكن وجه مارلى ذلك الذى باد فانقرض منذ سبع سنين مالبث ان أقبل فالتهم جميع هذه الاشكال والصور مثلما التهمت عصا موسي أفاعيل السحرة ولو ان كل حجر منها كان غفلا لاوسم عليه وكان قد أوتي القدرة علي أن ينقش على وجهه صورة. اذن لعاد علي كل حجر منها نسخة من وجه مارلى .

قال سكروج « حديث خرافة ! » ثم قام يجوب انحاء الغرفة .

حتي اذا طاف بأركانها مرارا جلس علي أحد الكراسي مستلقيا فأخذت عينه جرسا مهجورا معلقا بالغرفة يتصل لامر لا يعلم الآن ماهو بغرفة في أعلى الدار . فماذا كان ارتياعه ودهشه لدن أبصر ذاك الجرس قد شرع يهتز وكان اهتزازه باديء بدء فى لين و بطء حتي لم يسمع له صوت ولكنه مالبث ان علا له طنين تصحبه الرنة من كل جرس آخر بتلك الدار .

واستمر ذلك نصف دقيقة أو دقيقة ظنها سكروج ساعة ثم خفتت الاجراس معا مثلما صدحن معا . وتلاها صوت أشبه الاشياء بصليل سلسلة ثقيلة يسحبها ساحب على دنان الخمر بحوانيت تجارها في أسفل البيت . اذن تذكر سكروج انه قد سمع عن العفاريت أنها ربما جرت السلاسل في حنادس الليل بأسافل الديار المسكونة .

ثم انفتح باب حانوت الراح لهصرير وارتفع صليل السلسلة وكانما يرقي بها

الساحب سلالم البيت ثم سمع سكروج صليلها يدنو من باب غرفته .

قال سكروج (حديث خرافة ! أنا لاأصدق ذلك ولا أومن به)

حتى اذا ولج الخيال الباب دون ماتريث امتقع لون سكروج وطار اللهيب المضمحل كانما يصيح (اني لاعرفه ! اني لاعرف خيال مارلى ! ثم وقع اللهيب ثانيا الى حاله الاولى

وأقبل الخيال يدنو من سكروج يحمل وجه مارلى لاريب ولا نزاع وسائر شكله وصورته وحليته وشارته . البردة ذات الذنب والصدار الضيق المحكم وعين ذلك الحذاء والجورب تضيء عليه أربع لامعات — هداية الحذاء وذنب الرداء وكاه ولمته وكانت السلسلة التى يجرها تحيط بخصره . وكانت مصنوعة من صناديق التوفير والمفاتيح والأقفال والوثائق والعقود والاكياس كل هذه مصوغة من الحديد . وكان جسد مارلى شفافا حتى لابصر سكروج الزرين المثبتين في ظهر ردائه من خلفه .

وكان سكروج برغم ماأبصرت عيناه من ذلك الشبح الماثل وبرغم ما أرعد فرائصه من وقع هذه اللحاظ القارة تتراءى بينها صورة الموت روعاء شنعاء وبرغم ماعاين من نسيج ذلك المنديل المعصوب به فوداه الى ذقنه ـ لقد كان سكروج برغم هذه الحجج المشرقة والأدلة الناطقة يكذب عينيه ويدافع حواسه غير مؤمن ولا مصدق .

ثم قال فى جفوة وقسوة (ويحك ياهذا الشبح ماذا تريد مني ؟)

(الم الكثير)

صوت مارلى ولا شك

(من أنت ؟)

(سلني من كنت ؟)

قال سكروج رافعا عقيرته (من كنت اذن ؟ ماحسبت ان شبحا وخيالا يكون له مثل هذا التدقيق في القول)

لقد كنت فى الحياة شريكك يعقوب مارلى)

فنظر اليه سكروج عن ريبة ثم قال

(أتطيق — أتطيق أن تجلس؟)

(أطيق)

(فلتفعل اذن)

وكان يشك سكروج في ان خيالا شفافا كهذا يستطيع الجلوس وظن انه ان أعلن الخيال استحالة هذا الأمر كان جديرا به أن يبين له سبب الاستحالة مما يدعو الى مناقشة طويلة وشرح مسهب ولكن الخيال جلس في الحال ازاءه كانما الجلوس أمر هو جد معتاده ·

قال الخيال (ألست تؤمن بي؟)

قال سكروج (كلا)

(أى حجة تريد ودليل تبتغى بعد شهادة ناظريك ومسمعيك ؟)

قال سكروج (لا أدرى)

(ولم تتهم حواسك ؟)

قال سكروج (لان أتفه الامور جدير ان يفسدها وأحقر الأشياء خليق أن يخلها وربما أصاب المعدة أهون العلل فاذا الحواس قد سلبت سدادها وحرمت هداها وعادت أضاليل بعد اذ هي أدلة. وأخاديع بعد ان كانت أئمة . فلا يبعد أينها الخيال أن لا تكون الا قطعة لحم لم تهضمها معدتي أو قطرة خردل أو كسرة خبز أو شظية بصل ولانت فى نظرى أشبه والله برهائن المراجل والقدور · منك برهائن الحفائر والقبور . وأ كاد أشم من اعطافك ريح الحمام . لاريح الحمام)

ولم يك المزح من شيمة سكروج ولا كان من خيمه المجون ولكنه أراد أن يروح عن قلبه و ينفس من كربه بأية حيلة وأن لا يدع الى طرد الهواجس ونفي الوساوس وطرح المخاوف سبيلا وكيف ولقد كان صوت الخيال يكاد يسل النخاع من صلبه و يزدهف المخ من العظام

وكان سكروج يعلم أن جلوسه صامتا ينظر في تينك العينين اليابستين البارقتين هو العذاب الانكل والبرح المبرح وهو الخبل والمس والجنة وكان يزيد الهول هولا والطين بلا ان الخيال محاط بجو جهنمي من ذات نفسه ولم يشعر سكروج بأثر ذلك

الجو ولكنه استدل عليه باهتزاز أذيال برد الخيال وازراره وشعر رأسه كانها تهب بها سموم هاجرة سجراء أو تضربها الانفاس الحرار من تنور فائره وان بقى سائر الخيال ثابتا لايتحرك

قال سكروج مسرع العودة الى التهمة التي رمى بها الشبح ولا قصد له الا ماذكرنا وبوده لو ثني نظرة الخيال عنه ولو عشر معشار ثانية . (أترى هذا السواك ؟)

فاجاب الخيال (نعم أبصره)

قال سكروج (انك لا تنظر نحوه)

قال الخيال (ولكني أراه برغم ذلك)

قال سكروج (ماهو الا ان أبتلع هذا السواك حتي أصاب بعلة باطنية تتركني طول أيامي عرضة لكل غاد من بنات الجن ورائح . وكل سانح من طائف الاشباح وبارح وكلها من صنعة وهمي وتوليد خيالى. حديث خرافة كل هذا وأضغاث أحلام!)

عند ذلك أرسل الخيال صيحة مزعجة وهز السلسلة هزا عنيفا حتي لاذ سكروج بحقوى كرسيه يتأيد به و يعتصم من غاشية الاغماء ولكن ماذا كان رعبه حين فك الخيال العصاب الذى يشد ذقنه الى ذؤابته فسقط فكه الاسفل حتي ضرب صدره!)

فخر سكروج الى ركبتيه وغطي عينيه بيديه .

وقال (رحماك أيها الشبح المزعج لاتزعني!)

قال الخيال (أيها الرجل الدنيوى ! أتصدق بي أم لاتصدق ؟)

قال سكروج (بل أصدق ومالى من التصديق بد . ولكن مابال الخيالات يطأن أديم الأرض وما بالهن يزرنني ؟)

قال الخيال (انه فرض حتم علي كل حي أن لايزال يبعث شعبة من روحه تجول بين اخوانه من عباد الله لتطلع علي أحوالهم ماخفي منها وما علن فتشاطرهم السراء والضراء . وتقاسمهم البأساء والنعماء . تأسى لترحهم وتسر بفرحهم . فاذا كان الحى لايزال يحجز روحه بين دفتى حيزومه أثناء حياته و يحبسها فى قفص أضلاعه قسوة وجفاء وشحا ولؤما معرضا عن عباد الله ثانيا عطفه زاو يا وجهه قضي الله عليه بعد الممات أن لاتزال روحه مشردة في الآفاق حيرى طريدة تقطع الوعث والجدد . وتجوب كل غور ونجد . تنظر من أحوال الخلق مالاتطيق أن تشاطر ومالوانها علي قيد الحياة كانت

لامحالة ممتاحة منه خيرا وواجدة فيه مسرة ! »

وهنا صرخ الخيال صرخة شديدة وهز سلسلته ودق يدا خيالية بيد .

قال سكروج مرتعشا « انك محزون كمد فقل لى ماخطبك ؟ »

قال الخيال « اني أجر السلسلة التى صغت أيام الحياة بيدى نعم لقد صغتها حلقة حلقة وصورتها ذراعا ذراعا . و بيدى والله و بمحض ارادتي عقدتها بوسطي و بمحض ارادتي أجرها واسحبها . أفلا تبصرها ؟ أفلا ترى من أى شيء صنعت ؟ »

فازداد بسكروج جزعه وغلا به ارتعاده .

وقال الخيال « ألا ليتك تعلم ثقل ماتجر أنت من حلق الحديد وطول ماتسحب لقد كانت سلسلتك مثل هذه ثقلا وطولا منذ سبعة أعوام وما زلت منذ ذاك الوقت تزيدها باجرامك ثقلا وطولا يرحمني الله واياك ان سلسلتك والله جد ثقيلة ! »

فالتفت سكروج حواليه وهو يخال انه سيبصر على الأرض حول قدميه خمسين أو ستين فرسخا من الحديد ولكنه لم ير شيئا .

قال سكروج متضرعا الى الخيال مبتهلا « يعقوب ! أخي يعقوب زدني . يعقوب صاحبي وصديقى خفف كربتى وكفكف لوعتي بكلمة عزاء خفف الله عنك وهون مابك ! »

قال الخيال « ليس عندى لك من عزاء وانما للعزاء منابع أخرى يا ابنز يرسكروج وان له رسلا غيرى يهدونه الى أناس غيرك . كلا ولا يمكنني ولا يجوز لى أن أخبرك كل ماعندى . وما بقى لك لدى من النبأ الا أقله . ثم اني لا أطيق بقاء عندك وليس لى بأى جهات الارض من تلبث . ولا بأى أطراف البسيطة من تريث . أجوب الميث والاجراع . واذرع الاضواج والاجزاع . بما كنت لا أزال أيام الحياة حاجزا روحي عن التطلع الى أحوال الناس . حاجبا خاطرى عن التطاول الى ما ينتاب خلق الله من ضر و باس . »

وكان من عادة سكروج اذا أطرق أن يضع يديه فى كميه فلما أخذه التفكير فيما قاله الخيال أطرق واضعا يديه في كميه غير رافع ركبتيه عن الارض ولا ناظريه

قال سكروج « ما أرى الا انك كنت في سيرك بطيئا »

قال الخيال « بطيئا ! »

قال سكروج « سبع سنين منذ وفاتك ولا تزال تسرى ! »

قال الخيال « نعم ولا أزال أسرى فيالها رحلة طروح ونية قذف وادآب سير لامقيل فيه ولا معرس ! والضمير أثناء ذلك يلذع و يلسع . والندم ينكأ قرح الفؤاد فيبجع ! »

قال سكروج « احثيث سيرك ؟ »

قال الخيال« احث من الريح تعصف . والبرق يخطف. والقطر يذرف. والجفن يطرف. »

قال سكروج « ماأراك الا قد قطعت أطول مسافة أثناء هذه السنين السبع »

فلماسمع الخيال ذلك أرسل صيحة أخرى وقعقع بحلق الحديد حتي لاسمع الجن فى مسارحها والملائكة في مسابحها . وحتي لأيقظ من في القبور . واثار الهام والاصداء في سدفة الديجور .

وصاح الخيال « بعد ماندت عنك الدراية ونفرت منك الحقيقة وما كان أجدرك أن تعرف ان لارواح الفجار بعد الموت عناء وتعبا ، وجهداونصبا ، فربما انقضت الازمن والعصور وما انقضى عقابها ،وانقرضت الحقب والدهور وما انقرض عذابها ذلك بما غفلت عن الخير. وخدعت عن البر. ولعمر الحق لو بلغ امرؤ في سبيل المعروف والتقى وطريق الرشد والهدى مبلغ النسكة الاخيار ورتبة الزهدة الابرار لما كان الا دون الغايه مقصورا،وعن بلوغ الامد نا كلاحسيرا ، وأين منه الوفاء بحق المروءة وفي كل نفس من أنفاسه فرصة لفعل الاحسان تضاع،وموضع لنفع الانسان لا يمد فيه بالنفع باع . فياحسرتا على مضيع فرص البر والندى،ومنفق سويعات العمر النفيس سدى ، أى منكراتي وشرجني و ياطول ندمه بعد الممات وآثامه وأحزانه على مافات وآلامه وليت فى طول الندم مايبل غليلا أو يبل عليلا ! »

قال سكروج متلجلجا (ولكن عهدى بك يامارلى رجل جاد فى تجارتك)

قال الخيال وقرع يديه من الوجد (تجارتي ! وهل كان ينبغي أن تكون تجارتي الا مسرة خلق الله والا الكرم والاحسان والفضل والبر والصدقة والمروءة أتظن انه

لم يخلق لى الله عملا سوى التجارة . ضلة لك ان كنت تظن ذلك . وماذا التجارة في جانب ما أوجد الله المرء لاجـله ؟ الا انما منزلة التجارة من سائر ماخلق له الانسان من صالح الاعمال كمنزلة القطرة من المحيط ! »

ثم رفع الخيال بالسلسلة ذراعه كانما هذا الذى ذكره هو سبب كمده وجواه ثم طرحها علي الارض صلالة رزينة .

وقال الشبح « أنا أحزن ما أكون في مثـل هذا الاوان من العام . سوأة لى كيف سرني أن أسير وسط عباد الله فى أعياد الميلاد (اذ أنا حى) صادف الجيد عنهم صارف الطرف عازف النفس مغضف الأذن محجوب القلب . قتلني الله هلا أطعت آمر الرحمة ولبيت داعي الحنان وسريت في شعاع ذلك الـكوكب المسعود أقفو دليل سناه الى بيوت المساكين ومنازل ذوى الحاجات ؟ »

فلما رأى سكروج الشبح قد امتد به نفس الـكلام في ذلك الضرب من الحديث زاد كربه . واشتد رعبه . وتمادت به رعشة الوجل

قال الخيال « انصت الى فلقد كاد وقتى أن يفرغ »

قال سـكروج « سأفعل ولـكن رفقا بى ورحمـة وأقلل ما استطعت من بارع التشبيه ورائع المجاز والاستعارة يايعقوب يا أخى و ياخلى . فحسبي بعارى القول وعاطله مضاضا اليما وحزازا كاوما

قال الخيال « وليس لى أن أعلمك لماذا تراآيت لك اليوم شبحا وبدوت لناظريك خيالا على اني طالما جلست الى جنبك لاتراني . »

ولم يك هذا النبأ باجدير أن يسر سكروج فارتعد وتفضج وجهه عرقا فانتكف العرق بيد رعشة عن جبينه

قال الخيال « ثم أعلم ان ما زيار الليـلة اياك الا لامر خطير . وذلك اني أنعي عليك ماقد سلف لك من الآثام وابشرك انه لايزال امامك للتوبة مجال فان أويت الى الله وثبت الى التي هي أحسن لم يبخل الله عليك بعفوه وثوابه ووقاك شرما ألقي من العذاب وأكابد . »

قال سكروج « شكر الله فضلك ياصديقي فلقد والله حققت أملي فيك وكنت عند ظني بك . »

قال الخيال « سيزورك ثلاثة من الجن »

فارتعد سكروج واسترخى فكه الاسفل من الرعب كاسترخاء فك الخيال حينما فك رباطه

ثم قال بصوت راجف « اذاك ماوعدتني من الخير يايعقوب ؟ »

« نعم »

قال سكروج « أولى لي والله أن أبقى بحالي التي أنا بها الآن على سوء عاقبتها من أن أبغي التوبة والتمس عفو الله وثوابه بواسطة الجان الثلاثة »

قال الخيال « انه لاخوف عليك منهم فانهم أخيار ثم اعلم انه لامفر لك من سوء المآل الا أن يزوروك فاذا قرع الجرس بعد جوف الليل فانتظر أول الثلاثة »

قال سكروج « أفلا يمكن أن آخذ الثلاثة معا واخلص من هذا البلاء »

فاذا كان حين هذا الميعاد من اليوم التالى فارتقب مقدم الثاني . وارصد موفد الثالث اذا خفت الصدى من آخر رنات الساعة الثانية عشرة من اليوم الثالث واني ذاهب الآن ثم لن تراني أبد الدهر فاذكر مقالتي هذه واعمل بها ان كنت تبغي بنفسك خيرا ! »

ولما فرغ الخيال من هذا المقال تناول العصاب من فوق المائدة وعصب به رأسه على مثل ما كان عليه قبل وعرف سكروج ذلك من صريف الانياب حين تلاقت ثم تجاسر فرفع عينيه نحو الخيال فاذا هو منتصب امامه قد عطف على معصمه فضل سلسلته

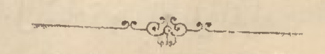
وجعل الخيال يتقهقر خطوة خطوة وزجاج النافذة يرتفع قيد شبر عند كل خطوة حتي اذا بلغ الخيال النافذة الفاها مفتوحة عن آخرها . ثم اومأ الى سكروج أن يدنو فدنا فلما تقارب مابينهما فليس يربو على ذراعين رفع الخيال كفه ينذر سكروج أن يقف عند هذا الحد . فوقف من فرط الرعب لا الطاعة وكيف وما رفع الخيال كفه حتي طن الهواء ودوى الجو بلجب شديد من صرخات ندبة وندامة ورنات عويل وبكاء

فوقف الخيال لحظة ينصت ثم رمي برنتـه بين ذلك اللجب والصجيج وخرج يسبح في الفضاء يمتطي مناكب الظلماء تحت رواق الليل القديم

فمضي سكروج الى النافذة مدفوعا بعـامل التطلع ثم أشرف فاذا الهـواء مفعم بالاشباح تسرى ههنا وههنا عجلة مرهقة رافعـة العقائر بالعويل لـكل واحد سلسلة كالتى لمارلى و بين هذه أشباح مقرونة في صفد (لعلها أشباح دول تحالف أثيم واتحاد طالح) ولم يكن بين هذه الخيالات جميعها الا مكبل مغلول . وعرف سكروج فيهـا عددا جما ممن كان يعرف أيام الحيـاة فمن هذه شبح هرم في رجليه قيـد وهو يضج و يعول لعجزه أن يمد يد المعونة الى امرأة بائسة ذات طفل قد افترشت فناء دارها بالطريق تحت عينيه وكان أس شقاء هذه الخيالات ومصدر بلائها أنها كانت تحاول اعانة خلق الله فلا تستطيع

ثم املست هـذه الخيالات فليس يدرى أتحولت غيما أم طواها الغيم ولـكنها زالت وزالت معها أصواتها وعاد الليل الى مثل حاله ساعة يسعى الى داره

فاغلق سكروج النافذة واختبر الباب الذى دخل منه الخيال فاذا هو كما تركه مقفل واذا الاغلاق على حالها لم تمسها يد فحاول أن يقول « حديث خرافة » ولـكنه غص حلقه باول حرف فلم يقل شيئا واذ كان قد أغرى به النوم ما أصابه من تلك اللواعج أو مالحقه من كد النهـار أو مالمحه من مخبآت الغيب ومنظر الاخرة أوما شفه من حديث الخيال مضي مسرعا الي مرقده فتهالك علي الفراش ولما ينض ابراده



الفصل الثانى

أول الخيالات الثلاثة

فلما استيقظ سكروج وجده فى ظلام حالك حتي لم يميز وقد أطل من فراشه شفاف زجاج النوافذ من صفيق الجدران . فانه ليحاول خرق ستار الظلماء بظي لحاظه اذ طرق مسمعيه صوت الساعة بالبيعة المصاقبة تدق أربعة أرباع فارهف أذنيه ليعد دقات الساعة

فما راعه الادق السابعة بعد السادسة ثم الثامنة بعد السابعة حتى دق الثانية عشرة ثم وقف . اثنتى عشرة . ! لقد كانت اثنتين حينما ذهب الى مرقده لاجرم ان بالساعة لخللا !

فحرك المنبه التماس الحقيقة مستفسرا فنبض اثنتى عشرة تصديقا لدقات الجرس ومطابقته

قال سكروج (أنا لا أحسب اني قد رقدت طول النهار ونصف الليل بعده ولا أحسب انه قد نزل بالشمس نازل وأنا بمنتصف النهار !)

فلما ذعره من هذا الخطب ماذعره زحف عن الفراش يتعيث حتي بلغ النافذة فاقبل يحسر عنها غاشيه البرد بكمه ليبصر مادونها حتي اذا حسره لم يكد يبصر شيئا سوى الضباب المرتكم ولم يكد يحسن شيأسوى شفيف القر

فثاب الى مضجعه واخذيفكر ثم يفكر ثم يفكر بلانتيجة ولاثمرة وكلما ازداد تأملا ازيدحيرة وارتباكا وكلما رام عن التأمل انثناء زيد بالتأمل اغراء

وكان خيال مارلى قد شغل باله وأقلق خاطره فكلما دفع نفسه الى الاعتقاد بأن كل ماقد رأى من ذلك الخيال انما هو اضغاث أحلام انفتل عقله راجعا الي الشك فساءله (أكان حلما أم يقظة وحقا أم باطلا ؟)

وعلى هذه الحال بقي سكروج حتي دق الجرس أرباعا ثلاثة اذ طرأ بغتة على باله ان أول الجان الثلاثة سيزوره متي دق الجرس واحدة فاجمع أن يبقى مستيقظا حتى يحل هذا الموعد وأيد عزمه يأسه من النوم وان الكرى كان أبعد منالا من السماكين وابطأ حلول الموعد جدا حتي لخال أنه قد سرقته عينه ثم هب وقد فاته الموعد ولكنه مالبث أن قرع مسمعيه الرنة

(دنج دنج)

قال سكروج (ربع بعد الثانية عشرة)

(دنج دنج !)

قال سكروج (نصف بعد الثانية عشرة)

(دنج دنج)

قال سكروج (ربع دون الاولى)

(دنج دنج)

قال سكروج (الساعة الاولى) وخفق قلبه وجلا

وكان قوله ذلك قبل أن يدق الجرس الواحدة فما أتم لفظه حتى قرعها طنانه بطيئة جوفاء واذا ارجاء الحجرة قد توهجت نورا وارتفعت سجوف فراشه

وارتفعت سجوف فراشه يشهد الله بكف ومعصم ولا تحسبنها السجوف التي عند قدميه أو تلك التي وراء ظهره ولوانها هذه او تلك لهان الخطب ولكنها المحاذية وجهه فانتصب سكروج جالسا فاذا هو خيال الطائف الجني الذي وعد وقد دنا منه دنوى منك ايها القارىء واني لبين يديك بروحي كما تعلم

وكان غريب الشكل له صورة الشيخ المسن في صغر جرم الصبي ذا لمة بيضاء تنسدل على منكبيه . وتضرب متنيه . وهو وان كان أشيب القذال فلقد كان غيداق الشباب ناضر الوجه أسيل الخدين . صقيل العارضين، ثم تراه مع ذلك فعم العضدين عبل الساعدين رحب الذراع رحب الراحة شديد علاج الكف مجدول الساقين لطيف القدمين عارى الاطراف عليه ريطة بيضاء ونطاق يتلألأ وفي يده عود ريحانة فينان وقد كال حواشي برديه أزاهير الربيع وأنواره ولكن أعجب مابه ان عمودا من النور

كان يرتفع من ذؤابته فيفيض الضياء على سائره وذلك الذى بعثه على جعل قلنسوته مطفأة اذا شاء أن يسطع و يتألق نضاها فتأبطها وان رام ظلمة وخمودا وضعها على رأسه وكان اذ ذاك متأبطها .

بل لقد كان بالجني على تدقيق النظر خلة أعجب من هذه وأغرب فكما ان نطاقه كان يبدو به اللألاء في هذا الجانب طورا وفي ذاك تارة فما كان منه اللحظة مشرقا تراه اللحظة الأخرى ظلاما فكذلك كان شخص الجني يتجدد للعين في شتي من الصور فبينا هو كامل كما وصفناه آنفا اذا هو ذو ذراع واحدة وساق فذة ثم لا يكاد يتراآى لك كذلك حتى تراه ذا عشرين رجلا فانه لكذلك اذ لا ترى العين فيه الا رجلين بلا رأس فما هو الا كلا ولا حتى تراه رأسا بلا جسد . وكل ما زايل البدن من هذه الاعضاء غاب في اعماق الظلام الدامس لتوه ولحظته حتي لا أثر له فبينما العين من تلك الاعاجيب فى حيرة اذا بالخيال قد راجع أصله واذا هو كاتم ما كان وأنصع

قال سكروج « مولاى ! أأنت الجني الذى وعدت ؟

« نعم أنا ذاك ! »

وكان صوته غضا رقيقا خافتا فكأنما يجيء من أقصى مدى

قال سكروج « من أنت وماذا أنت ؟ »

« أنا خيال عيد الميلاد الذى مضي »

قال سكروج وهو يرمق صغر ذاك الجرم وقصر القامة « أخيال عيد مضي منذ أزمان طويلة ؟ »

« لا بل خيال ماضيك »

وكان بسكروج ميل شديد الى أن يبصر الجنى قد وضع المطفأة (قلنسوته) على رأسه ميل لم يعرف له أصلا ولو سأله سائل عن سببه ما أحار جوابا .

قال سكروج « نشدتك الله الا ما تغطيت بقلنسوتك »

فصاح الجني « ويحك ! أتريد أن تطفيء بيديك الاثيمتين ما أنا معطيك من نور الله وعلمه ألم يكفك انك أنت الذى بشحك وبخلك وعماك وجهلك صغت لى هذه

القلنسوة واضطرتني الى لبسها تغمرني وتخمد هدى الله من رأسي الحقب الطوال والازمان المديدة ؟ »

فبرىء سكروج الى الجني من أدني تعمد اساءته وقال انه لايذكر قط انه صنع له قلنسوة في وقت ما ثم اجترأ فسأله ماذا حدا به اليه

« مصلحتك ! »

فأعلن سكروج ثناءه ولكنه ما ملك ان ظن — وان لم يفه به — ان هجعة الى الصباح لم يؤرقها مؤرق كانت ولا مشاحة احرز لمصلحته. وا كفل براحته. وسمع الجني نجواه فقال له ثم مد يده القوية فأمسك ذراعه في رفق

« قم فسر معي ؟ »

فعلم سكروج ان من العبث أن يعتذر عن البقاء بالقر والظلام وان الفراش وثير دفيء علي حين قد هبط مقياس الحرارة تحت الصفر دركا بعيدا وانه لم يدرع من اللباس الا شفوفا لاتقي عدوات الجو وسطوات الهواء ذلك الى برد قد ألم به منذ أيام فلم يزايله نعم لقد أيقن سكروج انه لافائدة فى الاعتذار عن البقاء بأمثال هذه العلل وانه ليس له الا الذهاب وانما أشعر قلبه ذلك اليقين ان قبضة يد الجني على ذراعه كان على رفقها ولينها وعلي أنها كيد الفتاة الغضة الناعمة شديدة السلطان لامصد لها ولا مرد . فقام حتى اذا رأى الجني يعمد الى النافذة أمسك بذيل ريطته استغاثة وقال « اتئد أثابك الله واعلم أني انسان ولا أطيق سيرا على الهواء)

قال الجني وألقي يمناه علي صدره (لتمس راحتي صدرك فانك تصير قديرا علي امتطاء ماهو أخون متنا من الهواء وأخور !)

و بينا هو ينطق هذه الكلمات مرقا من الجدار ونزلا منهجا واضحا بالريف على جانبيه الرياض والمروج وقد انقشعت المدينة فلم يبق لها أثر وانقشع معها الضباب والظلمة فما راع سكروج الا سحر صافي الاديم . خصر النسيم . قد فرش الثلج غبراءه وسربل الغيم خضراءه .

— ٤ —

قال سكروج وصفق بيديه (الله أكبر ! هذا مسقط رأسي وحيث نشأت وترعرعت

بلاد بها عق الشباب تمائمي   وأول أرض مس جلدى ترابها

فرنا اليه الجني عن رقة وكان سكروج لايزال يحس بصدره أثر لمسة الجني ويسوف من اردان الهواء ألف ريح عبقة تبعث كل نفحة منها من ارجاء ذهنه وتثير كل زفرة منها من أكناف نفسه ألف خاطر . وألف أمل . والف امنية . والف فرحة والف ترحة مما قد باد منذ ازمن فعفا !

قال الجنى (ان بشفتيك لرعشة . وماذا ارى بخدك ؟)

قال سكروج بصوت خافت

ثم طلب الى الجني ان يذهب به حيث شاء .

قال الجني (اتذكر الطريق ؟)

فصاح سكروج محتدا (اذكر الطريق ! اني لاعرفه مغمض الاجفان)

قال الجني (عجيب ان لاتكون نسيته بعد مضي هذه الازمان ؟ سر بنا)

فسارا على الطريق لايمران بباب او سارية او شجرة الا عرفها سكروج حتى عنت له عن بعد قرية ذات سوق وجسرها و بيعتها ونهرها المعرج . وعنت له كذلك قطعة من الحمر تردى نحوه على متونها اصيبية وغلمة على عجلات الحصاد تزجيها حصدة الثمار . وكانت الغلمة طربي مفاريح تهوى بها نشوة . وترمي بها نزوة . وتتهاداها مسرات . وتتقاذفها اريحيات . تتنادى وتتهاتف كأنها الورق في الايك تتناغم . والأدم فى الكنس تتباغم . حتى فاض اناء الجو من اصوات اولئك الغلمان بأحلى من النغم الرنان واعذب . واكتظ جوف الطبيعة من هتاف هؤلاء الصبيان بأشهى من اغاريد القيان واطرب . واقبل الهواء يرقص علي ذاك الغناء و يقهقه .

وقال الجني (انما هذه ياسكروج خيالات ماقد كان لاتراناالآن ولاتشعر بنا)

ثم مر الرفاق فعرفهم سكروج وسماهم فردا فردا فياليت شعرى ماذا سره من

رؤية الرفاق حتي طار فرحا وحتي طفر قلبه في صدره واغرورقت عيناه جذلا وليت شعرى ماذا اطربه من تهاديهم التحية بالعيد لدن يتشعبون فرقا ؟ وماذا يعني سكروج من العيد وسعوده . ويوم الميلاد وجدوده ؟ سوأة للعيد وسواة ليوم الميلاد اى خير فيه وماذا افاده ؟

قال الجنى (هذه مدرسة الحى قد مضي عنها الصبيان الاغلام فرد هجره خلانه وتركه اخدانه .)

قال السكروج (اني لاعرفه) ثم انتحب باكيا

وتركا معظم الطريق سالكين شعبا معهودا فبلغا بيتا من الطوب الاحمر علي جداره جرس معلق وكان رحبا فسيحا قد خيم به البؤس وضافه البلي فاقفرت عرصاته . واقوت حجراته . وتحطم زجاج كواه . وعريت ذراه وتعطل ذراه . وكان باصطبله دجاج يمشي الخيلاء . بين تبختر وزقاء . وقد نبت بحظائر الماشية العشب والكلا . بئس آية الاقواء والبلي .

ولم يكن داخل المكان اقل دثورا من خارجه فلقد كانت مقاصيره وحجراته من وثير الفرش عارية . من وطئ المهد خاوية . قد بز من بسط الديباج أرضها . واستل من ستور الحرير جدرها . واعتاضت من هذا وهذاك الخواء والبرد مهادا . والعرى والغبار ابرادا . وأحست النفس من خلال ذلك وذاك ان سكنة هذا المكان قد كانوا يسهرون الليل و يصومون النهار .

ثم ذهب الجني وسكروج يجتازان صحن الدار الى باب بمؤخر البيت فانفتح لهما واذا مكان مستطيل قفر موحش عار يزيده عريا مقاعد من الخشب العاطل ومكاتب على احداها غلام فريد يقرأ بجانب نار كليلة فجلس سكروج يتأمل في ذلك الغلام نفسه أيام هو غلام و يذرف الدمع رحمة لذاك الخيال من ذلك الهجران والوحدة

فلم ينشأ بالبيت رز ولا نأمة من صدى يطن . أو بومة تحن . أو قطرة من المسارب تهمي . أو ورقة بالشجر المطرق تهفو . أو نفس للصبا العليلة تسرى . أو صرة لباب

أو خفقة من حجاب . الارق له قلب سكروج وذابت عليه كبده وفاضت له ذنوب دموعه

فلمس الجني ذراعه وأشار الى شخصه القديم عاكفا علي كتابه . ثم ترآى بجانب النافذة رجل في ثياب أجنبية واضح الشخص ناصع الصورة قد علق في نطاقه فأسا يأخذ بلجام عير يحمل حطبا

فصاح سكروج طربا « هذا والله علي بابا ! هـذا أخو الصفا . ورفيق الصبا . علي بابا !

نعم انه هو ! ولقد طرق الغلام الصغير أول ماطرقه عشية أحد أعياد الميلاد على هذه الهيئة وفي هذا الزى وكان الغـلام المسكين موحدا منفردا فـكان أنس وحدته ومسلاة وحشته . وهذا فالنتين وهذا أخوه أورسون وهاك الذى وضع على باب دمشق نائما أما تراه ؟ ما اسمه ؟ وهذا خادم السلطان قد قلبه الجني رأسا لاخمص بما كسبت يداه ! لسرني والله ماقاله من العقاب ما أغراه بزواج الاميرة ابنة الامير !

فلو أن ابناء التجارة انداد سكروج رأوه اذ ذاك يقذف جمرات وجده في عرض حديثه عن هـذه الاشباح بصوت يذوب شجا و يتقطع لهفا خارجا من صميم الفؤاد بين الضحك والبكاء يرفض الدمع عن صفحة منه والشرر عن صفحة لاستحوذ عليهم العجب وذهب بهم الدهش كل مذهب .

قال سكروج « وهاك الببغاء أخضر الجسد أصفر الذيل

متوج أعلي قمة الرأس ساحب جناحيه بالوشي اليماني مطوق

حبذا نداءه صاحبه غب عودته الى الوطن بعد طول نأيه واغترابه اذ يناديه روبين كروسو أيها المسكين روبين كروسو أين كنت روبين كروسو ؟ » فخيل الى الرجل انه في حـلم وما هو في حلم ولـكنه الببغاء كما تعلم . وهاك عبده « جمعة » يعدو هاربا من الموت . نجيت هاربا «جمعة» وحييت آيبا !

ثم التفت ناظرا الى شخصه القـديم بسرعة لم تعهـد فيه وقال مترحما على ذاته الاولى (لك الله أيها الغلام الوحيد) ثم انتحب باكيا

قال سكروج واضعا يديه فى جيبه ملتفتا حواليه ونهنه عبرته . وأرقأ دمعته بودى ولكن قضي الامر

قال الجني (ماخطبك ؟)

قال سكروج (لاشيء . لاشيء مطلقا . لقد وقف أمس بباب مكتبي غلام يهتف بنشيد العيد فليتني منحته شيئا)

فابتسم الجني مفكرا ومد بنانه قائلا (لنر الآن عيدا آخر !)

فما نطق هذه الكلمات . حتي تجسم خيال سكروج وعظم جرمه وازدادت الحجرة ظلمة وقذارة وتقبضت ألواح زجاج النوافذ وقرقعت وتساقط من السقف قطع من الجص ولكن سكروج لم يدر قط ماذا سبب هذا التغير . وان درى انه طبق الواقع وان ذلك بعينه الذى كان وحدث في سالف الايام وانه كذلك بقي منفردا كرة أخرى وقد مضي سائر الغلمان لينعموا فى أوطانهم بالعيد

ولم يك الآن يقرأ ولكنما يسير فى الغرفة جيئة وذهابا مطرقا من الهم قد شفه اليأس فنظر سكروج الى الجني وهز رأسه اسفا ثم حول بصره الى الباب

فانفتح ودخلت صبية اصغر من الغلام باعوام فاسرعت نحوه وطوقته بذراعيها وأوسعته ضما ولثما ونادته اخي عزيزى وحبيبي

(اخي قد جئتك لآخذك الى البيت !) ثم صفقت بيديها الصغيرتين وانحنت تقهقه معيدة قولها (لآخذك الى البيت الى البيت الى البيت !)

قل الغلام (الي البيت يافان !)

قالت الوليدة وهى لاتتماسك من الجذل (اجل يااخى الى البيت ومابه من حسن وطيب الى البيت لتبقي به ماحييت لاتتركه لسبب ماولقد والله صار لنا والدنا بعد الجفاء والقسوة من البر والاحسان الي مانشتهي حتى لعادت الدنيا بفضله جنة ! واقد كان من لين خطابه لى احدى الليالي ما اطمعني في استعطافه عليك واستلانته لك حتي سألته ان يستدعيك و يستقدمك فاجاب وانفذني اليك فى مركبة كى أرجع بك فابشر

فلسوف تصبح رجلا فلا تعود الى هذا المكان ولكنا سننعم معا بالعيد قبل كل شيء ونحظى باطيب وقت واكرم زمان .)

فصاح الغلام (لله درك يا اختاه ما ارجح لبك وأوفر عقلك لكأنك والله نصف)

فصفقت بيديها وضحكت وحاولت ان تلمس رأسه ولكن قصر دون ذلك باعها فضحكت كرة أخرى ووقفت على مشطى رجليها لتضمه ثم شرعت تجره نحو الباب في جد وعجلة وطاوعها منه سلس العنان . ذلول الظهر مذعان .

وصاح صوت شديد ينادي (انزلوا حقيبة الغلام سكروج ههنا !) ثم ظهر ناظر المدرسة فصوب نحو سكروج الحاظا حدادا قد جمعت بين لين التواضع وشدة الكبرياء ثم تقدم نحوه ذلك الرئيس فازعج خاطره وارعد فرائصه بمده اليه يدا مصافحة ثم وجهه واخته الى غرفة الجلوس اجارك الله من امثالها وما هي الا بئر سميت (غرفة) ظلما قرى نازليها القر والرعشة قد اعار بردها ماعلي الجدر والنوافذ من خرط وكرات ارضية وسماوية ثوبا من الوضر ضافيا . وهنا استخرج ناظر المدرسة خابية من النبيذ ورغيفا رائع الضخامة فأدب الغلام واخته الى هذه الطعمة السائغة واللقمة الكريمة و بعث بزجاجة من «لا اعلم ماذا» الى سائق المركبة الواقف بالباب فردها السائق مثنيا علي المهدى معتذرا عن الرفض بأنه يخشي ان تكون مما قد اهدى اليه المرة السالفة وما كان ليذوق ذلك العلقم ولو منح زنته ذهبا

ثم ان الطفلين ودعا الناظر وسارت بهم المركبة وان عجلاتها لتنفض الثلج عن صحف الورق النضير نفض العاصف ذوائب الموج

قال الجني « لله هذه الفتاة ما أرق كبدها وما أرحم جنانها لكأنها والله الزهرة الغضة يكاد يذبلها لمس الانامل . ويذويها مر الشمائل. على ان لها مع ذاك قلبا كبيرا)

قال سكروج (نعم قد كان قلبها كبيرا وهذه كلمة منك مالي عن تأييدها مميل يأبي لى الله ذلك والحق !)

قال الجني (أحسبها قد ماتت عن ذرية ؟)

قال سكروج (ولد فرد)

قال الجني (ابن أختك ؟)

فاعترى سكروج ضيق في الصدر وقال موجزا (نعم)

ثم نظر سكروج وكان لم يمض لهما على ترك المدرسة غير لحظة فاذا هو فى سوق بلد غاصة بالخلق تذهب وتجىء في انحائها أناس خيالات. والدواب تزاحم علي السير والمركبات . وهيئة الحوانيت تدل علي انه أبان عيد الميلاد .ولكنه المساء وقد أوقدت السبل والطرقات

ثم وقف الخيال علي باب حانوت وسأل سكروج أيعرف هذا المكان

قال سكروج (أعرفه : افتراني قد ربيت فيه :) ثم دخلا فاذا رجل جالس الى مكتب عال رفيع حتى لكادت ذؤابة رأسه تمس السقف فصاح سكروج

(يالله ـ هذا الشيخ فيزويج رحمه الله هذا فيزويج قد عاد الى عالم الاحياء :)

فألقى الشيخ فيزويج يراعه ورفع بصره الى الساعة وقد وقف عقربها على السبعة ثم دلك احدى يديه بالأخرى وسوى صداره وضحك حتي اهتز من قرنه الى قدمه ونادى بصوت رطب حلو لين رفيق كريم فرح مبهاج :

(أنت ياهذا: يا ابنزير : ياديك:)

وهنا دخل شخص سكروج السالف وكان قد نما فصار شابا فى ريعان الصبا ومقتبل العمر فدخل مسرعا يستصحب عاملا آخر

فلما نظر سكروج العامل الآخر قال (ديك ويلكنز ولاشك : أجل والله هاهو ذا : لقد كان لى والله صديقا حميما وخلا وفيا نعم لقد كان كذلك وربي : عزيزى ديك : خليلي ديك :)

وقال الشيخ فيزويج (مرحبا ياغلامي : لاعمل الليلة بعد اللحظة : ليلة الميلاد هذه ياديك : ليلة الميلاد ياابنزير :) ثم صك يدا بأخرى وصاح من اعماق صدره

(أغلقا النوافذ مسرعين ياغلامي قبل أن يبدأ الاحتفال بالعيد :)

فلاوالله ما كان السيل فى مصبه . والعاصف فى مهبه . بأسرع من الغلامين فى اغلاق النوافذ فلقد انطلقا فيه ثم عادا يلهثان . تخال بهما فرسي رهان

(هيلى هو :) بهذا الصوت الدال على الفرح والحبور صاح الشيخ فيزويج ووثب الى الأرض من ذلك الارتفاع بخفة لم يؤتها الغلام المراهق وقال (أزيلا هذه الأمتعة والأشياء هيلي هو : ديك : هيلى هو ابنزير :)

أزيلا هذه الأمتعة : وأى شيء لايزيلانه أو يعييهما أن يزيلاه : لقد والله أزالا كل ما كان ثمت من متاع و بضاعة كأنما يذهبا نها الى حيث لارجعة لها أبد الدهر ثم أقبلا على أرض المكان فنضحاها بالماء بعد الكنس وأصلحا الذبال وأشعلاه وحشا النار وأرثاها حتى لعاد الحانوت وكانه والله كاشرق وأدفأ وآنق وأبهج ما أعد للرقص والسماع من غرف غاليات القصور . فى ليلة منحها الدهر للسرور . ووهبها الحظ للجذل والحبور

ثم دخل رجل يحمل عودا فصعد الى المكتب وأقبل يجس الاوتار ثم انبرى يضرب . وجاء امرأة فيزويج كلها ابتسام وأشراق على أثرها ثلاث بنات لفيزويج كأنهن اللآلىء ووراءهن الستة الفتيان الذين قد سبين عقولهم وخلبن قلوبهم وخلف هؤلاء أقبل كل من كان مستخدما في أعمال فيزويج فدخلت خادمة البيت وابن عمها الخباز ودخلت الطاهية وصديق أخيها اللبان ودخل صبي الحانوت المقابل ولعله لم يجد لدى مولاه ريا ولا شبعا ودخلت صبية المكان المجاور هاربة من مولاتها وكانت قد سحبت عليها السوط — ثم دخل الحانوت كل هؤلاء بعضهم تدفعه الجرأة و بعضهم تجذبه الهيبة — واحد تسوقه الالفة وواحد تصده الكافة بين أقدام وأحجام وصدام وازدحام . حتى احتوى جمهورهم المكان وألف بددهم المقام ثم جمعهم الرقص حلقات مثني وثلاث ورباع وخماس وسداس وسباع . وانطلقوا يدورون . و يجولون و يطوفون يتبارون و يتنافسون و يتباهون و يتناظرون . حتي صفق الشيخ فيزويج وصاح أحسنتم وأما العواد فانه غمس وجهه في صحن من النبيذ قد كان أعد له لهذا الغرض ولكنه

حتى انفا أن يقال قد تعب فاستراح فانصاع الى آلته مسرعا عجلا يحثث أوتارها ويبعث انغامها على حين لم ينهض الى الرقص ناهض كأنما قد كان قبله للحفلة عواد فاعيي فحمل الى داره لقا مكدودا ثم قد جيء بهذا الرجل مكانه فاحب أن يرى القوم جهد طاقته . و يعرض عليهم صفوة بضاعته . فأما سبقا يحوزه على سالفه وأفضلية وأما حماما يتلافاه ومنية

ثم كان بعد ذلك ادوار رقص أخرى والعاب أخرى وقدمت فطائر ورقاق وسمك ولحم ونبيذ حتي اذا جاءت الساعة الحادية عشرة انفض المحفل واعتور الشيخ فيزويج وامرأته جانبي الباب يصافحان الضيوف مودعين داعيين لكل امرىء بالنعمة والبقاء . فلما مضى الضيفان فلم يبق الا الغلامان أقبل عليهما الشيخ وزوجته فصافحاهما كذلك وانصرفا عنهما و بقي الغلامان وحدهما لمرقديهما وكانا ينامان تحت مائدة بغرفة داخل الحانوت

وكان سكروج اثناء ذلك كله كالذى خولط في لبه فبه لوثة ومس فلقد كانت روحه بين الراقصين ترقص وقد تجددت فى قلبه كل ذكرى وجعل ينعم بكل منظر وحشاه يهفو ويخفق تخاله

قطاة عزها شرك فباتت   تعالجه وقد علق الجناح

قال الجني « انما يشكر هولاء الحمقي من تلك الاشياء أمرا تافها ضئيلا

قال سكروج « تافها ضئيلا ! »

ولكن الجني سأل سكروج أن يصغي الى الغلامين وكانا قد تلاصقا يتفاوضان الاخبار و يتناجيان الاسرار . و يتعاطيان مديح فيزويج حتى اذا فرغ من الاصغاء اليهما قال الجنى ردا على قول سكروج اذ قال تافها ضئيلا ! »

قال الجني « نعم تافه ضئيل أو قد انفق الشيخ الا ثلاثة دنانير أو أربعة اترى ذلك يستحق كل هذا الثناء

قال سكروج وتكلم بقلبه القديم لا الحديث « ان جزالة المبلغ وزهادته ليست

من الخطارة بموضع ولكن فيزويج الرجل الذى في طاقته ان يسعدنا ويشقينا وفي استطاعته ان يهون علينا الحياة ويصعبها ويخفف اعباء الوجود ويثقلها ويحلى مذاق العيش ويمره . وانما يصنع ذلك بالقولة والنظرة.

ما تزالين نظرة منك موت لى مميت ونظرة تخليد

ونغمة اللسان ولمحة العين هى كما تعلم الامر الغامض الدقيق لايوزن ولا يعد. ألأن هبته ليست عينا ولاورقاحسبتها زهيدة حقيرة كلا فما كان ذلك بناقصها ولهى والله في نظر العاقل أكبر من ضيعة .»

ثم رأى سكروج الجني يرنو اليه فسكت

وقال الجني « ماخطبك ؟ »

قال سكروج « لاأقصد الى شيء بعينه »

قال الجني « علك تريد شيئا ؟ »

قال سكروج « كلا . ولكني أود لو أقدر ان أقول كلمة لكاتبي اللحظة هذا ماأريد وليس غيره »

وبينما يفوه للجني بهذه الامنية أبصر شخصه السالف يطفيء المصباح ثم التفت فاذا هو والجني بالعراء ثانيا .

وقال الجني « ان مدتي لتقصر وتتضاءل فلتسرعن ! »

وكان هذا الامر لايوجه الى سكروج ولا الى شخص ظاهر ولكنه أحدث نتيجة وقتية وذلك ان سكروج أبصر شخصه السالف ثانيا وكان ذلك الشخص في ميعة الشباب قد بلغ أشده لم تغضن وجهه الهموم ولو كتب العناء على وجهه سورته وان كان قد القي على جوانب محياه ظله . فكان فى لحظه قلق ينم عن شراهة وطمع ويبدو على عينه كانه ظل ما قد نبت فى قلبه من ذلك الغرس السيء

ولم يكن منفردا ولكنه يجلس الى فتاة غضة السن حسناء دامعة العين تلمع دموعها في المنبعث من ضياء الجني .

وقالت الحسناء في رقة « انه لا يعنيك والله ذلك وانما هو ودك تصرفه عمن تشاء الى ماتشاء ولقد اتخذت بي بديلا فاذا كنت ستجد في ذلك البديل من أسباب السرور ما كنت أرجو ان أمدك به فليس لى ان أحزن »

قال لها جليسها « وما هو ذلك البديل الذى اعتضته منك ؟ »

قالت « الذهب »

قال « عجبا لكم معشر الناس ماذا في أقوالكم من التضارب والتناقض . تذمون الفقر وأنتم لمن يطلب الثراء أشد ذما . فان جنح الرجل الى الزهد جنى سخطكم وان بغي المال لم ينل رضاكم فهو على أى الحالات منعى عليه مذموم ! »

قالت الحسناء « شد ماتخاف الفقر وتخشى صروف الدهر ولقد حصرت آمالك وجمعت همومك فى هم واحد هو التحصن بالثراء من نوب الايام وغير الليالى فغلب البخل عليك كل خصلة شريفة وخلة منيفة وخدع عنك كل محمدة من الشيم ومكرمة واحتازك دون الفضائل والمعالي واستأثر بك ونفى عن فؤادك حين استمكن منه وتوسط بحبوحته كل خير وبر وحسنة أوليس الامر كذلك ؟ »

فاجاب « لاتثريب علي في ذلك ولا حرج وماذا عساك تنقمين من رجل كان جاهلا فحلم . وطائشا فحزم . وجائرا فاهتدى . وضالا فارعوى . ثم لم يتغير لك على ذلك عهده . ولم يتنكر كما تزعمين وده . »

فهزت رأسها

« أو قد تغيرت ؟ »

« لقد كنا عقدنا عروة الود بيننا اذ نحن فقيران . بالفقر راضيان . وعاهدنا الله ان نقيم على العهد فان شاء عشنا فقيرين ومتنا فقيرين وان كان قد أتاح لنا غني فذاك خير وأولى . فلله عندنا على العسر صبر . وعلى اليسر شكر . ولكنك تغيرت فانت الآن غيرك قبل »

فقال متبرما « انما كنت قبل غلاما غرا »

قالت الحسناء « الحمد لله الذى جعلك تقر بما أقول وتعترف فلقد شهدت على نفسك بالتغير . أما أنا فكما كنت فانا وأنت اليوم مختلفان. وان كان لاخير في خلاف ولا صفاء لمختلفين وكان الذى طالما رجوناه باتحادنا والفتنا من مأمول السعادة ومرقوب الرخاء قد عاد علي الشقاق والجفوة شرا متوقعا و بلاء منتظرا فليس أجدر بنا من حل ما قد عقد بيننا فنفترق مثلما اجتمعنا بخير ومعروف . »

قال «أو قد رأيتينى قط طلبت التفرق ونقض العهد ؟ »

قالت « أما بالقول فلا »

قال « فبم اذن؟ »

قالت « بالخلق المتغـير والطبع المتنكر و باتخاذ شان غير شأن وحال بعـد حال و بالتوجه الى قصد دون قصد وغاية دون غاية . فلقـد والله زلت عن كل أمر كان سببا الى حبك اياى وانصرافك لى الى كل أمر يكون سببا الى جفائك اياى وانحرافك عني . ثم قل لى بربك ترى لو انه لم يكن بيني و بينك من أمر هـذا الحب ما كان أكنت تعشقني اليوم ثم تمد الى الوسائل . وتبث الحبائل . لتنالني فتحرزني ؟ كلا وحاشاك ان تفعل الآن مثل ذلك ! »

فبدا عليه الاذعان الى هذا الحق علي انه فرض ولـكنه حاول اخفاء مانمت به أسارير وجهه فقال « ماتقولين والله حقا »

قالت « لتمنيت والله اني قلت غـير ذلك وان الأمر كان خـلاف ماأراه . أاذا كنت خاطبا اليوم أتراك تخطب فقيرة وأنت الذى لاتزن الأشياء الا بأثمانها ولاهم لك فى الحياة الا الربح وهبك جرت عن قصـدك في ساعة غفـلة منك وغرة فاقترنت بفقيرة أما كنت جديرا اذا ثبت الى رشدك وعدت الى صوابك أن تندم على ماقد أتيت وتراه عارا وذنبا . ونـكبة وخطبا . أجل والله هـذا ما كان يكون . وما قلت ولا أقول الا حقا فدعني وانفض يديك مني بحق ذلك الفتي المحبوب الذى كنته سالفا »

فحاول الكلام ولكنها زوزت عنه وجهها وقالت

«نعم ربما وجدت لافتراقنا ألما ولكنه قصير العمر لا يلبث أن يزول وتنسي تلك الفتاة . وما كان من هاتيك الازمان والاوقات . وتعفو من فؤادك رسوم تلك العهود وتراك قد تركت أمرا ليس من تعاطاه بمجدود . ولا من أتاه بمغبوط ومحسود . فهنيأ لك ماقد اخترت من أساليب العيش ولقاك الله فيما قد نهجت لنفسك من سبل الحياة نضرة وسرورا ! »

ثم تركته وافترقا .

قال سكروج « اتق الله في أيها العفريت وا كفف عني سوط عذابك فلقد والله قطعت قلبي وأنضجت كبدى فحسبك وعدبي الى منزلى »

فقال الجني « لم يبق الا منظر واحد ! »

فصاح سكروج « بل حسبي ماقد رأيت وكفي ألا تتقي الله ياهذا ؟ ألا ترق ألا ترحم ؟ ألا تعرف رأفة ولا حنانا ؟ »

ولكن الجني الغايظ القلب لفت وجهه عنوة الى ماتراآى من الصور والخيالات بعد المنظر السالف

فنظر سكروج فاذا هو فى غرفة لا كبيرة ولا أنيقة ولكنها دفيئة وثيرة . والى جانب النار فتاة بيضاء ناعمة جدشبيهة بالفتاة الآنفة الذكر حتي اعتقد سكروج انها عين تلك الغادة وما أخطأ غير انه وجدها بعد تحقيق النظر قد كبرت فعادت أما تجلس حيال ابنتها . وكانت الضوضاء بهذه الغرفة شديدة اذ كان بها من الصبية ماأعيا سكروج — في حاله تلك من القلق والكرب — عده . ولم يكونوا من الوئام والنظام بحيث ظلوا كالأربعين الغلمة الذين قيل عنهم فى أساطير الاولين انهم لشدة الائتلاف كانهم غلام واحد بل كانوا علي العكس من ذلك كل غلام منهم تخاله لفرط الحركة والصخب أربعين غلاما . فكانت الجلبة لذلك فوق كل وصف ولكنها لم تسخط أحدا من الحاضرين ولا أقلقت خاطرا ولا أضجرت نفسا بل كأنها كانت

تزيد حبرة القوم حبرة وتضيف الى سرورهم سرورا فكانت الام والابنة تتضاحكان كلتا هما بذاك اللاجب فرحة وعن ذلك الضجيج راضية ثم شرعت الابنـة تلاعب اخوتها فلم يلبثوا ان سطوا بها كاللصوص قطاع الطريق أصابوامتمولا فظل لهم فريسة وظلت أمواله لهم نهبا . وقاك الله أيتها الغادة وصانك ورعاك ياما أميلح هذا الدلال وياما أحيسنه ! وياما أعيذب هـذا الجمال . وياما أفيتنه ! لوددت والله من أجلك انني بين هؤلاء الصبية صبي ولو ضحيت في سبيل ذلك مالي وثروتي . ومنزلتي ومكانتي ولو نولني الله اربتي هذه ما كنت في مداعبتي العـذراء مثـل هؤلاء الصبية الفظاظ غلظة وخشونة وحاشاى من ذلك ! ولما جذبت الشـعر العسجدى ولما خلعت تلك النعل من هذى القـدم ولما حزمت ذلك الخصر الدقيق ذراعي أقيسه كما فعل هؤلاء الطغاة الـكفرة ولو فعلت لعاقب الله ذراعي الاثيمة بلصقها حيث تستدير فلا نازع لها يد الدهر كلا والله ما كنت فاعلا ذلك وان كنت ربما كان يلذني ان أجمش تلك الوجنة وأقبل تينك الشفتين وأسائلهما كيما أراهما تفتران عن شبيه اللؤلؤ المنضود والاقحوان المجود . وعن نظير حبب الشراب . وبنات السـحاب . وان استهدف لنبال عينيها . واصطلى نار خـديها . وان اشوش طرتها . وانظم قلادتها وقصارى القول تمنيت والله ان أباح من حرم حسنها وحمي جمالها ما يباح الطفل ويكون لى على ذلك عرفان الرجل وفطنته

ثم سمع دق بالباب فهرع جماعة الصبية نحوه والفتاة طوع تيارهم منساقة مسلوبة حلاها . مشرقا محياها . وانفتح الباب فدخل الوالد يتلوه حمال قد أثقلت كاهليـه تحف العيد وهداياه . يابؤس للحمال ماذا دهاه من حملة ذلك الجيش الجرار يصيحون به ويصرخون من كل جانب من حيث لامانع له ولا مجير ، ولا مصرخ ولا نصـير ، والصبيه يكتنفون منه ناحيتي حصن ليس بالحصين كله ثلم وثغور وينزلون من كنفيه حرما مستباحا فاسندوا الى جانبيـه الـكراسي وعلوها لينالوا جيوبه ثم غمسوا فيها الاكف وأخرجوها ملأى بكل أنيقة من الطرف طيبة وكل بديعـة من التحف

معجبة، و بعضهم يأخذ بمخافة السقوط بخناقه، و بعضهم خشية الزلل ممسك بنطاقه، وآخرون يصفعون قفاه توددا وتحبباء وآخرون يصكون قراه تزلفا وتقرباء حتى اذا سلب الحمال وعاد الجيش المنصور بالغنيمة منهبة أيديهم مقسومة فيهم أقبل كل على نصيبه يفض عنه ختامه ليرى ماذخر له الغيب وساق اليه الحظ فيالصيحات السرور و يا الصرخات الحبور ثم هتف هاتف منهم ينذر بالويل والثبور وعظيمة من عظائم الامور وهو ان أصغرهم — وليد عامين — قدهم أن يزدرد مرجلا لعروس من الخشب المنقوش وانه يخشي أن يكون قد ازدرد أوزة خيالية من الصفيح ثم ماذا وجد القوم من الروح والراحة حين علموا أنها اشاعة كاذبة وكذلك أقام الصبية الى ان فتروا وأقبلوا يتركون الغرفة واحدا واحدا حتي أقفرت الحجرة منهم ومن أريحياتهم واحتوتهم المراقد والمضاجع

ثم بقي رب الدار الى جنبه ابنته قد وسدت رأسها صدره وامامه زوجته وسكروج ينظر محدقا و يرنو مدققا و يأسف أن ليس له مثل هذه العذراء تدعوه يا أبي وتكون زينة شبابه وعماد شيخوخته

وريحان روحي كان حين أشمه وأنس فنائي كان حين أغيب

فاغرورقت عيناه وذاب قلبه

وقال رب البيت لامرأته مبتسما « بلاء لقد لقيت هذا العشي أحد خلانك الاول »

« من هو ؟ »

(خمني)

(أني لى أن أعرفه ؟ بل قد ذكرت واني لأعرفه ؟) ثم ضحكت وقالت (المستر سكروج)

قال زوجها (هو سكروج كما تقولين فلقد مررت اليوم بنافذة مكتبه وكانت مفتوحة وامامه شمعة فما ملكت ان رأيته وان شريكه تعلمين ليحتضر وسكروج في مكتبه وحيد فريد في هذا العالم الطويل العريض)

قال سكروج بصوت متقطع « أيها العفريت ! اخرجني من هذا المكان »

قال الجني « قد قلت لك ان هذه خيالات ماقد كان وأشباح مامضي »

فصاح سكروج « اخرجني من هذا المكان فلا طاقة لى بهذه المشاهد ! »

ثم التفت الى الجني فاذا وجهه قد جمع من جميع تلك الوجوه التي أراهاسكروج قطعا ونتفا فطار قلب سكروج رعبا وانحط على الجني يصارعه و يصيح

« دعني والا فعد بي من حيث جئت بي ؟ امض عنى ولا تصحبني »

ولما كان سكروج في هذا الجلاد ـ انصح ان يسمي جلادا ذلك الذى لم يبد فيه الجني أدني مقاومة ولم يؤثر فيه شيء قط من دفعات سكروج وجذباته رأى ان ضوء ذؤابته قد علا يتأجج فالهم ان لسلطان العفريت عليه علاقة بذاك الشهاب المشبوب فامسك المطفأة (قلنسوة العفريت) وغطى بها رأسه

فخار الجني تحتها حتى استغرقت المطفأة جميع شخصه ولكن سكروج مع شدة ضغطه على المطفأة لم يستطع اخفاء ما كان يفيض على الارض من تحتها كانها سيل من الضياء طوفان .

ثم أحس النصب والاعياء ونعاسا يخالط عينيه و يغازل رأسه وأحس كذلك انه فى مرقده ثم استرخت يده وقدضغط على المطفأة آخر ضغطة ثم تهالك على الفراش فاخذه النوم

الفصل الثالث

﴿ الجنى الثانى ﴾

ولما هب سكروج من نومه وجلس يستجمع خواطره دق الجرس واحدة وكان ذلك الموعد المضروب لطروق طيف الخيال الثاني فقال فى نفسه ليت شعرى أى هذه الستائر سترفع عن نافذتها فيدخل منها الجني المرتقب ثم عرته لهذا الخاطر الاليم رعشة فقام الى النوافذ فأماط عنها الستائر جميعا وعاد الى مضجعه فاقام فيه يرصد النوافذ كافة . لانه أراد ان يبادر الجنى قبل ان يباغته الجني لئلا يهوله ويزعجه

فلما دق الجرس ولم يبد شيء أقلقه ذلك فلبث يرتجف ثم مضت خمس دقائق ثم عشر ثم خمس عشرة وما ظهر شيء وانه لراقد في فراشه يحفه نور احمر يغمره كالسيل ويهيج في نفسه من الروع مالم يكن يهيجه ألف عفريت اذ كان لا يعرف له مصدرا ولا سببا وكان يخطر بباله انه لا يبعد ان يكون ذلك حريقا أصابه من حيث لا يعرف انه كذلك وأخيرا دار بخلده ان سر هذا الضوء الخيالى وأصله ربما كان في الغرفة المجاورة فقام يسعي على مشطى قدميه حتي أتي الباب

ولما وضع على القفل كفه هتف به من داخل المكان صوت يدعوه باسمه ويسأله الدخول فأجاب

وليس أدني شك يعلم القاريء ان المكان الذى دخله سكروج اجابة لدعوة الصوت الهاتف انما هو حجرته واحدى غرف منزله ولكنه قدطرأ عليه من التغيرماراع وأدهش وذلك ان الجدران والسقف بطنت بناضر العشب والريحان الغض الجديد حتى كانه الروضة المريعة الغناءومن أثناء هذا العشب والريحان تتدلى الثمار يانعة جنية .

لامعة زهية . وصفحات أوراق الآس خضرا رفافة تلمع وتضيء وتعكس المنصب عليها من الاضواء فكانما هي دقاق المرايا مبثوثه هنالك . وكان يطير في جوانب المدخنة شواظ (١) مزمجر (٢) كترجيع (٣) عود (٤) مجرجر (٥) مما لم ترمثله قط تلك المدخنة المهملة المهجورة ولا ذلك المصطلي الذى قد ناقض اسمه معناه فما هو بمصطلي بل متبرد ان شئت يزيدك ان سألته الدفء والحر قرة وبردا — لافي عهد سكروج ولا في أيام مارلى . وكان قد نضد على أرض المكان هرم عظيم ماألف من حجارة ولا شيد من جندل بل من الاوز والبط والديكة والدجاج وأفخاذ الضأن والبقر والى جنبه مرصوصة أوعية التوابل والفطائر واللوزينج والقطائف والمحار والتفاح والبرقوق والموز والبرتقال والكمثرى وخوابي النبيذ والراح قد غامت الغرفة من ضبابها المتصاعد

له موهنا نشر يضوع كانه شذا الجنة المعطار فاح أريجها

وعلى قمة ذاك الهرم كان يجلس مارد ضاحك الثغر مفراح جلسة الوادع المطمئن في يده مشعل يرفع به ذراعه ليصب ضوءه على شخص سكروج اذ وقف خلف الباب يشرف على داخل المكان من فرجته .

قال الجني « ادخل ! ادخل ! ولا تنكرني أيها الرجل ! »

فدخل سكروج وجلا ومثل في حضرة الجني مطرقا وقد محا الله ما به من عناد وقسوة وكان يهرب بعينه من نظرة الجني على انها نظرة لينة رفيقة .

قال الجني « أنا خيال العيد الحاضر فانظر الي ! » فرمقه سكروج بعين الاعظام والاجلال فاذا عليه عباءة خضراء لها طراز من الفرو الابيض لم يزر جيبها فصدرها عار كانه يترفع ان يستتر بحيلة خشية أن يقال قد طوى على نفاق وحني على خديعة وخب وكان ذيل العباءة ينحسر عن قدميه عاريتين وليس على رأسه سوى باقة من

(١) هو الضرام . (٢) أى له زمجرة كزمجرة الرعد . (٣) الترجيع ترداد الصوت (٤) هو الجمل المسن (٥) الجرجرة صوت شقشقة الجمل وهو الهدير أيضا

أخضر الورق والعيدان قد ترصعت بالثلج والبرد وكانت غدائره السود مسدولة مطلقة طلاقة لم يفرد بها شعره ولكنها تسم كذلك وجهه الهش المبسوط وعينه اللامعة المضيئة وأنامله الرخصة السباط وصوته العذب الرنان وطبعه البرىء من كل أثر للكآبة وشمائله الحلوة الكريمة . وفى وسط نطاق قد نيط اليه غمد لاسيف فيه قدعلاه الصدأ وتحيفه .

قال الجني « ماأراك قد بصرت بمثلي قط ! »

قال سكروج (لاوالله !)

قال (أولم تسر قط مع أحد من أفراد أسرتي ممن مضى قبلي ؟)

قال سكروج « ماأحسب اني فعلت ذلك قط أمضي لك اخوة كثيرون أيها الجني ؟ »

قال العفريت (أكثر من ألف وثمانمائة)

فقال سكروج بصوت خفي (انها لاسرة يعجز عن أن يعولها بشر ولايقوم لها مال قارون)

ثم نهض الجنى

وقال سكروج مذعنا (أيها العفريت سر بي الى حيث شئت فلقد خرجت أمس مضطرا وسير بي مرغما ولكني لقيت درسا أيما درس وأعطيت دواء أراه الآن يغتال عللى وأدوائى فهو جدير أن يبرئها و يشفيها . فاذا كنت ملقيا علي الليلة درسا فليكن أيها الجني درسك نافعا . ودواءك ناجعا .)

قال الجني (ألمس ذيلي !)

ففعل سكروج كما امر وقبض على ذيل الجني بشدة .

ثم التفت فاذا العشب والريحان والورق والديكة والاوز وافخاذ الضأن والبقر واوعية التوابل والفطائر واللوز ينج والقطائف والمحار والتفاح والبرقوق والموز والبرتقال والكمثرى وخوابي النبيذ والراح كلها قد زال بغتة وزالت الغرفة والنار والوهج الساطع

وزال الليل واذاهما بشوارع المدينة في صباح عيد الميلاد حيث الناس(وكان يوم شبم(١) وقرة) تحدث أنغاما خشانا جافية اذ تحك الثلج فتكشطه عن أعتاب المنازل وعن أسطحة الدور فاذا تساقط على الصبية والغلمان فرحوا به كانه المن والسلوى

وكان ابيضاض ذرى الدور بالثلج قد ألقي ظلمة على ماوليها من الجدر والنوافذ ٠ وكانت أرجل السابلة تدوس بسطا من الثلج مفروشة وطنافس منه مبثوثة فتشقق أديمها وتخدد وكذلك تفعل عجلات المركبات وسنابك الجياد . وأكثر ما كنت ترى هذه الاخاديد بملتقي السبل وحيث تتشعب . فهنالك كانت صعبة المعبر وعرة المجاز لما يملؤها من الوحل الاصفر والثلج المذاب وكان الجو مظلما مكفهرا وقد سد أفواه السبل الصغيرة والازقة ضباب قذر مقسم بين الذوبان والتجمد تنزل الغلاظ من قطراته وسخة ملوثة كانما شبت النار في جميع مداخن لندن جميعا عقب اتفاق منها على ذلك فاقبلت تحترق وتتأجج فرحة بنيل رغبتها . وانه رغما من اكتئاب الجو واظلامه فلقد كان على وجه الكون من سيما السرور والبشر ماليس في طاقة المشرق الوضاح من أطلق أيام المصيف أن يفيده

وكيف وقد كان الفرح عاما شائعا ومن بالاسطحة يمرعون طربي مفاريح جذلى مماريح يتنادون ويتصايحون . وبالتحيات يتجاوبون . وبأكر من الثلج يتراشقون . فان أصابوا الغرض ظلوا وهم يضحكون. وان أخطأوا فليسوا عن ضحك يقصرون . فهم على الحالين مسرورون وأبواب باعة الدجاج منفرجة بين فتح واغلاق . وللفاكهة بحوانيت باعتها اشراق ورقراق . والبصل الاسبانيولى عريضا أحمر في سمنه كانه قسوس الاسبانيين ترى كل بصلة تغازل فتيات الحى من طرف خفي وتراعي مايحاذيها من اللفت والكراث . واهرام من التفاح والكمثرى وعناقيد أعناب تتحلب لرؤيتها الافواه . وتتلمظ الشفاه . وسمط من الاعشاب غضة نضار تذكرنا باريجها الفياح خضر المسارب بالغاب والآجام والبرتقال والليمون في خلال الورق الجديد كانها كرات الذهب على أخضر الديباج وصحاف السماك قد ملئت من بنات الماء

---

(١) الشبم هو البرد

بكل صافي المتن والاحشاء أبيض مثل الفضة البيضاء
أو كذراع الكاعب الحسناء ينظر من ياقوتة زرقاء
فى جوشن مفضض الاثناء قد له من جونة الضحاء

تراه في وعائه المملوء بالماء يغدو ويروح وانه للجامد الثقيل فكانما الهمه ملهم الاسرار ان بالسكون أمرا جالا لا يحسن معه السكون والجمود فاقبل يطوف بجهات أوعيته ويجول والنارنج من أطايب نفائس العيد يلوح كما اختضبت بالزعفران ثدى النهد الغيد . والرمان من كل عذبة الرضاب حلوة الريق . قدضمها هنالك حضن غصن غض وريق . ماشئت من مخبر طيب ومرأى أنيق . تنشق عن أحمر فى صبغة الشقيق ويملأ كف المتناول بصرة من عقيق .

وحوانيت باعة البقول قد أغلقت الا فرجا ضيقة تلمح من خلالها الطرف والعجائب كما يلوح البرق في ظلم الديجور . والكواعب الحور من خلل الستور فما شئت من مسمع لذ يعذب في الاذان . ومنظر بهج كاحسن ماقتحت عليه عينان . ومنشق عبق يتلقاه قبل المعطس الجنان . فرنين الميزان . وصليل كل وعاء من الحديد طنان . وريحا البن والشاى فى الخيشوم يمتزجان . والعناب كمخضوب البنان . واللوز كثغير المخضوب من أنامل الحسان . والمجفف من الفاكهة قد أطعم السكر فكل حلق اليه ظمآن . وكل قلب اليه هيمان وكان الناس جميعا فى هرج ومرج وزحام وصدام بين والج وخارج وذاهب وثايب والود بين المتعاملين متبادل . والصفح بين المتعاتبين متباذل . والضحك بين المتقابلين متقارض والدعاء بين المتزايلين متقايض . فايان ترسل اللحظ لم تر الا جذلان يترنم . وفرحان يتبسم . ونشوان من راح الامل يترنح . وسكران من أريحية البذل يترجح . والا جرسا للحلي ووسواسا . وقدا مائدا وعطفا مياسا وتغريدا لصغار الصبية وتصداحا . ونداء من آباء الصبية وصياحا . حبرة ونعيم . وفيض من الواهب المحسن عميم

ثم قرعت الكنائس أجراس الصلاة فأقبل الابرار الاتقياء يسعون نحوها رجالا ونساء وكان يطلع اذ ذاك من الازقة جماعات الفقراء يحملون أطعمتهم الى الافران

وكأن ذلك كان يسر الجني فجعل لا يمر به حامل زاد الا كشف الغطاء وشن من مشعله على الطعام بخورا . وكان لذاك المشعل شأن عجيب وفنون من السحر فمن ذلك انه نشب بين رجلين خصام فتسابا واذا الجني قد أقبل فصب من مشعله عليهما قطرات ماء فتصالحا واصطلحا وقالا انه من العار أن يتشاتما في مثل هذا اليوم ويختصما وان الله كرم العيد فليس لمؤمن أن ينتهك حرمته !

ثم خفتت الاجراس وأغلقت الافران وان ظل ما بها من طعم معكوسا على مايعلوها من ذائب الثلج كأنه مرآة وكانت حجارة أرض الفرن تمج الدخان فكأنها بعض ماينضج من ذلك الزاد ويطهى .

وقال سكروج للجني يحاوره « أترى لم تصب على القوم من مشعلك ريحا طيبة ومذاقا عذبا ؟ »

« بلى ريحي وطعمى »

« أتراه ينفع أى هذه الاطعمة ؟ »

« أكثر ما ينتفع به طعام الفقراء »

قال سكروج « ولم ؟ »

« لانه اليه أحوج »

وسار الجنى بسكروج الى منزل كاتبه فلما بلغاه بارك العفريت فى الدار وأهلها بشير مشعله وكان على جسامة شخصه قد أوتي القدرة على ولوج أضيق النوافذ والاقامة في أضيق الامكنة فولج باب دار الكاتب ودخل حجراتها فماذا أبصر سكروج ؟

قامت المسز كراتشيت امرأة الكاتب كراتشيت فلبست ثوبا قديما قد طالما قلبته ظهرا لبطن ولكنها زانته للعيد بأرخص مايزان به ثوب — أشرطة بهيجة اللون ثمنها قرشان أو ثلاثة — قامت هذه المرأة واستعانت بثانية بناتها — بيلندا كراتشيت ففرشتا الخوان وأما بطرس كراتشيت أخو الفتاة فعمد الى القدر فى يده الشوكة وفى القدر بطاطس فانتظم بأطراف سلاحه أربعة ململمات صغر ثم ردها الى القدر وجمع

طرفي ياقة قميصه في فمه وكانت ياقة عظيمة الحجم وكانت لابيه فمنحها غلامه في هـذا اليوم اجلالا للعيد واعظاما لشأنه وفرح الغلام أن يكون له مثـل هذا الملبس الفاخر وتاق الى أن يختال فيه و يتبختر بمرأى الشعب البريطاني وأمرائه في الحدائق الـكبرى ثم دخل الغرفة اخوان له صغيران صبي وصبية فاقبلا يثبان و يطفران و يضجان و يصيحان ويقولان انهما كانا على باب الفرن فشما قتار الاوزة وقد عرفا انها أوزتهم ثم عاودا المرح والجولان وانهما لينتشيان من ذكر البصـل والبهار والفلفل فـكلاهما مرنح

يهتز حتي تراه هزه طرب   هاجته كاس رنوناة والحان

وأقبلا على أخيهما صاحب الياقة يطربانه حتى رفعاه الى سابعـة السموات وهو على الرغم من عظمته وأبهته و ياقتـه متواضع لله متصعلك لم يأنف من الا كباب على النار ينفخها حتي فار البطاطس وارتمى على جوانب القـدر وسمع نشيشه فكانما هو يصيح بالأ كلة خذوني و يقرع باب المرجل استعجالا .

وقالت الام المسز كراتشيت « أين أبوكم العزيز ولم أبطأ وأين أخوكم وأين أختكم مارثا ؟ »

وهنا دخلت صبية فقالت « هاك مارثا يأماه ! ها أناذى ! »

فصاح الصبيان « ها هي مارثا ياأماه ! أي مارثا ان لنا اليوم لأوزة يالها من أوزة ! »

وأقبلت الأم على مارثا تقبلها وتحضنها وهي تقول « ويحك ياحبيبتى فيم ابطاؤك اليوم علينا ؟ ثم نضت عنها قناعها وقلنسوتها بجد واجتهاد .

قالت الفتاة « لقد قمنا أمس بأعمال كثيرة ياأماه لم نجـد بدا من اتمامها الغداة فذلك وليس غيره ما أبطأ بى عنك »

قالت المسز كراتشيت « لاضير مادمت قدجئت ولتجلس قبالة النار ولتصطلي ياحبيبتى حفظك الله لى و بارك فيك »

ولـكن الصبيين وكانا فى كل ناحيـة و بقعة كثرة حركة وفرط مراح ناداها « كلا يامارثا لاتجلسي ولا تصطلي فهذا والدنا قد أقبل فقومي نختبيء ! »

فأجابتهما الى ذلك مارثا وقامت فاختبأت ودخل الوالد يحمل على عاتقه ابنه الاصغر وكان على صغره أعرج فى يده عصاه . والوالد في ثياب بالية قد غسلها للعيد وكواها ورقعها

وقال الوالد « أين مارثا » وجعل يلتفت حوليه ويدير طرفه في انحاء المكان

قالت المسز كراتشيث (ليست آتية)

قال زوجها بوب وفتر نشاطه وحدته وكان يتوقد حدة ويفيض نشاطا اذ كان منذ خروجه من الكنيسة الى ان أتى الدار مطية غلامه الأعرج يعدو به ويركض قال لما بلغه ان مارثا ليست آتية وعراه انقباض وفترة ليست آتية والعيد قد أتي ! أيها البلية ! »

وعز على مارثي ان ترى أباها بهذه الحال من الحزن والخيبة وانلم يك الامزحا فأسرعت اليه من مخبئها فألقت بنفسها بين ذراعيه وقد حمل الاخوان أخاهما الاصغر (تايني تم) الى المغسل يسمع نشيش القدر .

وقالت المس كراتشيث بعدان عابت على زوجها سرعة تصديقه وقرب انخداعه وبعد ان قضي زوجها من ضم مارثا وطرا . وشفي لثمها وشمها نفسا وبرد صدرا .

وكيف كانت سيرة (تايني تم) وسلوكه اليوم ؟

قال بوب « خير سيرةوأقوم سلوك غيراني أراه يطرق أحيانا ويسترسل مع الوهم وينطلق فى عنان الفكرةفيظل ضميره مجرى لاغرب الهواجس وأندر الخواطر فمن ذلك ماحدثني بهونحن عائدان بعد زيارة الكنيسة من انهيرجو انه قد رآهالناس هنالك اذ كان في عرجه عظة للناس وعبرةوتذكرةلهم بالذى أبرأ الاكمه والاعرج »

وكانصوت بوب اذ يقص عليهم ذلكرعشا وازداد رعشةحينماخبرهم ان « تايني تم » يزداد على الايام قوة وغبطة

وفي تلك اللحظةسمع القوم عصا الوليد تقرع الارضثم دخل « تايني تم » بين أخويه حتى بلغ مقعده وكان قرب من النار فاجلس فيه وأقبل الوالد فشمر كميه —

ويلي عليه كأنه حسب انه قد بقي فيهما للبلى والرثاثة من مزيد — فعمد الى آنية فسحق فيها مزيجاحارا خلطه بالليمون والزنجبيل وجعل يقلبه ثم وضعه على النار ليغلي وذهب بطرس واخواه الصغيران لاحضار الاوزة ثم عاد بها بعد برهة عودة الجيش المنصور بالغنيمة

وهنا حدث من الهرج والمرج مايوهمك ان الاوزة احدى نوادر الدهر وعجائب الكون وانها العنقاء التي يحدث عنها ولا ترى وان الطاوس عندها طائر شائع الوجود والحق يقال انها كانت كل ذلك في هذا البيت بين هذه الاسرة وجهزت المسز كراتشيت التوابل ورض بطرس البطاطس بيد من حديد وسكرت بيلندا الحساء ومسحت مارثا الصحاف وأما بوب فانه أجلس (تايني تم) على ركبته ونزل من جانب الخوان منزلا حسنا وصف الصغيران الكراسي للجميع ولم يغفلا عن حظهما من ذلك ثم حشيا بالملاعق فمهما تصبرا عن لحم الاوزة حتي يأخذا قسطيهما . ثم نضدت الصحاف وتلى الدعاء والقوم سكوت كأن على رؤوسهم الطير حتي اذا أغمدت المسز كراتشيت المدية في صدر الاوزة سبح القوم عجبا . وترنحوا طربا . ورفع (تايني تم) بالهتاف عقيرته . وصب على جانب الخوان راحته .

فلله تلك الاوزة ما أجل شأنها وأعظم قدرها وهل رأى الناس مثلها . أما بوب فقد أقر انه لم ينظر قط شبهها . وأفاض الجميع في اطراء طعمها وريحها وحجمها ورخصها وكان فيها بمعونة مارفد جانبيها من الحساء والبطاطس شبع لهم جميعا حتى قالت المسز كراتشيت ونظرت على حافة الصفحة ذرة من عظم الاوزة — هى كل مابقى منها — لقد أشبعتنا والله وزادت على حاجتنا وفضلت . نعم لقد أشبعتهم بل كظتهم (١) ولا سيما الصغيران فلقد انغمسا في البصل والمرق الى الحواجب ; ولما فرغوا من العنقاء (٢) وشرعت بيلندا تبدل الصحاف . باخرى نظاف . خرجت المسز كراتشيت وقد أفرط عليها

---

١ ملأتهم والكظة فرط الشبع وهى قريبة من التخمة والتخمة يقال لها الشبم أيضا

٢ على التهكم والمزاح يريد الاوزة

السرور لتنفس عن نفسها من عظم ذلك الفرح — وقد يبهر الفرح النفس بما لا يبهرها به الترح (١) ثم قصدت المطبخ لتجلب العصيدة

وكانت وهي ذاهبة لذلك تعروها الهواجس وتزعجها الوساوس وتقول في نفسها ماذا يكون المصاب لو تهدمت أركان العصيدة أثناء اخذها من القدر فتشوه شكلها وتشوش قالبها وتركيبها ; وماذا يكون البلاء لو كان قد تسور عليها لص فاخذها - فرض مزعج والله اصفر منه لون الصغيرين ووجب قلباهما وكم من فرض مزعج قد خامر فؤاد الام اثناء ذهابها الى المطبخ ولكن الله سلم

الله أكبر ما هذا الضباب ! هذا ضباب العصيدة حين أخذت من القدر . وما هذه الرائحة التي كأنها رائحة يوم الغسل ? هذه رائحة الخرقة التي فيها لفت العصيدة وما هذه الرائحة التي كأنها رائحة المطعم المجاور وحانوت الفطير الذي يليه ? هذه رائحة العصيدة ! ثم رجعت المسز كراتشيت الى الأكلة محمرة الوجه ولكنها تبسم عن كبرياء وزهو حاملة العصيدة كأنها كرة القذاف (٢) صلبة يابسة تتوهج فى وشل (٣) من النبيذ وقد غرس في أعلاها عود من الريحان

ياحسنها من عصيدة و ياطيبها ?

قال المستر بوب كراتشيت اليوم فتح الله على المسز كراتشيت بأكبر مافتح به علي ذوات العظمة والبطولة من النساء ? ولهذا والله أفخم مساعيها منذ أعرست بها وأعظم مفاخرها وقالت المسز كراتشيت الآن زال العبء عن عاتقي وهان الخطب وانجلت شبه الشك وظلمة الريب وانها لتقر أنها كانت توجس خيفة أن يكون دقيق العصيدة قد جاوز قدره . وتعدى طوره . ولم يخل أحد بينهم من ريبة أو خوف مالبث ان زال وما عتم ان تجلى . وحل مكانه الجذل والسرور والثناء والحمد ولم يك بينهم من أومأ الى صغر العصيدة . وانها أضأل من أن تقدم لاسرة كهذه عديدة . كلا

١ هو الحزن ٢ هى مايسمونه «البمبة» مقذوفة المدفع ٣ القليل من الماء والكثير منه وهو من الاضداد والمراد به هنا القليل .

والله ماأومأ أحد منهم بهذا أبي لهم ذلك رضا بكل ماقسم الله وقناعة تريهم القليل من فضل الله كثيرا والحقير خطيرا .

ثم فرغوا أخيرا من الغداء . ومسح الغطاء . ونظف الموقد وشبت النار للاصطلاء والنار فاكهة الشتاء . وقدمت الثمار ونزع عنها اللحاء . وأحدقت الاسرة بالجمر الوهاج وقد صف حيالهم كل مالديهم من ذخائر الزجاج قدح بلا عروة وكوب مثلوم الشفة وتلقي هذان المصبوب من فم الابريق ووعياه كالو كانا من الذهب الزلال (١) وادار الاب الجذلان أكواب الشراب . على غناء النار عالية النشيش بين وقدة والتهاب . وقال لزوجته وأولاده

« عيد سعيد معشر الاحباب الاعزاء أعاده الله عليكم بخير ولقاكم ماتحبون وما تشتهون ؟ »

فرد عليه قومه التحية بمثلها بل أحسن

وقال (تايني تم) آخر الجميع « أبقانا الله لكل عيد و بارك فينا أجمعين ؟ »

وكان (تايني تم) ملاصقا لابيه على كرسيه الصغير وقد أخذ أبوه كفه الذابلة الصفراء في يده كانما يخشي عليه عادية الحمام أن تهوى اليه فتختطفه

قال سكروج وفي قلبه من العناية والاشفاق مالم يشعر بمثله قط من قبل

« أنبئني أيها العفريت ترى الوليد (تايني تم) سيبقى أم اليه يوجف (٢) رائد المنون »

قال العفريت « اني لابصر بزاوية الغرفة لدى المدخنة مقعدا خلاء (٣) ومجلسا قواء (٤) وأرى كذلك عصا لا أبصر ربها . ولا أجد صاحبها فاما والله لودامت حال الاسرة علي ماهي الآن عليه فليس للوليد عن حوض المنون من محيد ولا لعادى الحمام دونه من رادع . »

قال سكروج « لاحقق الله قولك ولاصدق الله فالك . ويحك أيها العفريت ألا فلتقولن غير ذلك ؟ »

---

١ الخالص الابريز ٢ يسرع ٣ خاليا ٤ بمعنى خال ايضا.

قال العفريت مصرا على قوله « انه ان دامت هذه الحال على الاسرة ولم يتح لها تبديل من الله وتحويل فليفقدن الوليد كل من جاء بعدى من أسرتي(١)وماذا عليك لومات ؟

فلما سمع سكروج العفريت يردد ذلك القول الذى قاله لطالبي الاعانة اذجاآه في مكتبه وسألاه برا بالمساكين واحسانا سقط في يده(٢)وأطرق محزونا . ولكنه مالبث ان رفع رأسه لدن سمع اسمه يفاه به

قال بوب كراتشيت « المستر سكروج ؟ اشربوا نخب المستر سكروج مؤسس العيد ؟ »

فصاحت امرأته « تقول مؤسس العيد ؟ أجل مؤسس العيد ألا ليته يحضر الآن فاملأ مسمعيه من العذل والتأنيب بما هو أهله . مؤسس العيد ؟ تباله من وغد سافل ونذل خسيس الأم من دب على ظهرها وأكفر من تنفس الهواء وما أعلمك بذلك ياروبرت غير انك تتستر ؟ »

قال بوب « اتئدى يارعاك الله واذكرى انه العيد »

قالت المسز كراتشيت « سأشرب نخبه حبا فيك وتقديسا للعيد . أطال الله عمره وأسعد أيامه ؟ عيد سعيد وعام سعيد وبعد فكأني أرى سكروج الساعة ينعم بالعيد ويسعد ؟ »

وشرب الصبية جميعا نخب سكروج شربا لم يشفع بصحة نية ولا اخلاص وكان آخر من شرب نخبه (تايني تم) ولكنه لم يعبأ بصاحب النخب مثقال ذرة وكان سكروج عفريت الاسرة حتى لكان لمجرد ذكر اسمه ظلمة في النفس وضيق في الصدر لم ينفهما الا مرور عشر دقائق .

وبعد ذلك ضوعف سرور القوم ومراحهم لغير سبب سوى انهم قد فرغوا من ذكر ذلك المنحوس القاطع بذكره سلك اللذات . وحبل المسرات . وقال بوب

---

١ يريد كل ماجاء بعده من اعياد الميلاد اى من السنين القادمة ٢ ندم

كراتشيت لاسرته انه سيلحق بطرسا بعمل أجره فى الاسبوع خمسة شلنات فقهقه الصغيران ضحكا من معني مصير بطرس موظفا ورجل أعمال وأطرق بطرس يفكر ماذا يصنع من جلائل الفعال اذا صار اليه ذلك المبلغ الجسيم والدخل العظيم . أما مارثا وكانت عاملة عند امرأة خائطة فأخذت تصف لهم صعوبة عملها وكيف انه ربما أفرط عليها الكد ساعات وكيف انها تنوى الا تبرح الفراش غدا الاضحوة اذ كان الغد هو أمنية روحها منذ أشهر طوال وحدثتهم كذلك انها رأت في بعض الايام أميرة وأميرا وان الامير كان في طول بطرس لا يزيد عنه أنملة وهنا شمخ بطرس بانفه كبرا وكانت الفاكهة والشراب أثناء ذلك يدار بهما على القوم ثم ان « تايني تم » أقبل يغنيهم شعرا « عن غلام ضل فى البيداء فهلك » بصوت رخيم حزين

هكذا كانت حال هذه الاسرة لا معجب فيها لمتأمل ولا روعة فيها لناظر ولا ملبسا أنيقا . ولا عيشا ناعما رقيقا . ولا ملحا وطرائف . ولا تحفا وزخارف . ولكنهم كانوا برغم ذلك سعداء . في أمن وصفاء . ورغد بفضل القناعة ورخاء . ولما ظلت صورهم تضاءل لتزول وتضمحل لتغيب وظلت قطرات النور من مشعل الجني تنضحهم وكل سكروج بمنظرهم هذا طرفا بهم بخيلا . ولحظا نحوهم طويلا . ولاسيما بشخص (تايني تم) .

وكان الظلام قد أقبل والضريب يسقط كثيفا غزيرا وكانت المواقد اذ يسير الجني بسكروج بين السبل تأجج في كل مطبخ وساحة وحجرة وفى كل صنف من الامكنة وتحتدم مشرقة السعير . عالية الزفير . ففي هذه الدار يفرش الخوان . وللقدور على مطارد اللهيب نشيش وأزيز وبالنوافذ ستائر القطيفة . حمراء كثيفة . قد تهيأت لحجب الظلام والقر . وصون الضياء والحر . وفي تلك ترى الصبية يسرعون الى الباب يستقبلون القادم من الاقارب والضيفان . وفي هذا البيت يحدثك ستر النافذة بما عليه من الظلال عمن ينعم وراءه من الجلساء والندامى . ومن ذلك المنزل ترى سربا من ظباء الانس قد خرجن يمشين الى بيت جارتهن مقنعات مسربلات . يطعمن باللحظ

ويؤيسن باللفظ . ويرقن بالقد . ويرعن بالصد .

يهززن اعطافا تباعد بالجنى	وتلذ بالأثمار والايراق
رقت مياه وجوههن لناظر	وقلوبهن عليه غير رقاق
ومن العجائب ان سمحنا للهوى	بدمائنا وبخلن بالارياق
مزن يحطن الرى عن أفواهنا	ويجدن للابصار بالابراق
ومن البلية منظر ذو فتنة	نائى المنافع شاغف الايناق

ولو اطلعت على الطرقات اذ ذاك فرأيت كثرة من بها من المسرعين المغذين الي زيارة الاهل والصحب والخلان في دورهم لحسبت أن الدور باسرها خاوية علي حين أن بكل دار أهلها يرقبون الضيوف والزوار. ويرفعون النيران والانوار. لا يبعد الله عيد الميلاد ! عيد الانس والوداد. وزمن التآلف والتواد . وسل السخائم والاحقاد. ماذا كان سرور الجني به وماذا هاج من طربه . وماذا بعث من الروح في قلبه حتى بسط كفه وكشف صدره . وهب ينثر منه وخيره. وكان الوقاد الذى ظل يعدو فى كفه المشعل يعجم صحائف الظلماء بنقط الضياء وقد لبس ثوبه الجديد ليبدو به بعد العمل في بعض محافل اللهو ومجامع اللعب يضحك ويمرح وقد مر به الجني فياليت شعرى هل درى الوقاد ان له غير عيد الميلاد فى هذه السبل الخلاء أنيسا !

ثم وجد سكروج نفسه دون منبأ من الجنى ولا ايذان . ولا خبر ولا اعلان . بديمومة فلاة على جوانبها صخور عظيمة صماء كأنها قبور الجان والمردة ومناقع قد جمدها الصر وجبسها وليس بها من نبات سوى الحنظل والمرار والطحاب وعفن من العشب وبيل . والشمس قد غربت الاهناة أقامت تلحظ القفرة الخراب لحظة ثم غابت في حنادس الليل

قال سكروج «ماهذه البقعة؟»

قال العفريت « هذا حيث يعيش حفرة المعادن الذين يكدون في امعاء الارض ولكنهم يعرفونني . وبعد فلتنظر ! »

عند ذلك لاح من كوة الكوخ ضوء وسارا نحوه حتي اذا جاآه نفـذا في الحائط الى فئة محبورة قدحفت جوانب نار مشرقة قد ألفت من شيخ هرم قدأبلاه الدهر وانضاه العمر وشيخة كذلك حولهما أولادهما وأولاد أولادهما وأولا د أولاد أولادهما كلهم فى زبرجه و زينته وكان الشيخ يغني بصوت كانه أنين الريح في القفرة الملساء صوت كان فيمامضي من الازمان بعض أناشيد الميلاد وكانت ذريته العديدة تجاوب لحنه من حين الى آخر فكلما رفعوا العقائر ازداد نشاطا وكلما سكتوا خارت قواه

ولم يمكث الجني هنا كثـيرا ولكنه سأل سكروج أن يتعلق بذيله ثم حلق به فوق الفلاة وطارا ولكن الى اين ; لاأخاله الا الى البحر ? بلى الى البحر. فلما التفت سكروج خلفه لم يذعره الا أخرى البر ـ سلسـلةمن صخور بشعةودوى زماجر الموج يرمي الى الساحل و يرغو في اشداق الكهوف الجوف و يز بد و يحاول اغراق الارض

وكان على ميل من الساحل أو نحوه منارة فريدة قدقامت على مخاضة تزدحم حولها الامواج .و يعانقها الخضرم العجاج.و يتشبث باطرافها عشب الماء . وترى طيو رالزوبعة تلك التى نخالها أولادا للرياح النكباء تعلو كانها من الموج الذى تهب فوقـه وتسفل

فهنا في معترك العناصر الضنك العصيب.ومشهد الاخطار البشع الرهيب . لم يقصر ابن آدم عن الاحتفال بعيد الميلاد واعظامه ! فكان حارسا المنارة يصليان نارا ذات لألاء قد أنفـذت الى وحشة ذلك القفر المهيب شعاعا مؤنسا وضوأ ألوفا . ثم مـد أحـدهما الى الاخر من فوق اللهيب يدا معروقة العظام عارية الاشاجع لكنها سبطة الانامل مبسوطة فتصافحا وتبادلا تحية العيد ثم انبرى أ كبرهما وكان بوجهه من كفاح القرة أخاديد وقد كساه الهجير لثاما من الشجون . وقنعه الدهر بالمشيب . فهتف بلحن وعر وحشي كانه شعبة من النكباء

ثم هب الجني بسكروج يمتطى الليل و يعلو كواهل الظلم . فوق طامي الغمار زاخر الحوم . حتي وقع به على سفينة فوقفا الى جانب قائدها ومدير زمامها وجعل سكروج يرقب النوتية والركاب وكلهم بين هاتف بنشيد. أومذكر جاره بمحاسن عيد . قد كان

منذ زمن بعيد . أو مخطر بباله هاجسا عن هذا العيد الجديد . وليس فيهم قائمهم وقاعدهم . يقظانهم وهاجدهم . غويهم وراشدهم — الامن أرق من حاشيته اليوم اصاحبه . وألان له من لسانه ودمث (١) من جانبه . وأخذ من ملاهي العيد بنصيب وأهجس بقلبه ذكرى خليل وحبيب

وشد ما أدهش سكروج اذ ينصت الى عويل الريح . والجنى يجوب به أجواز (٢) اللوح (٣) فوق جائش موار . طائش ثوار . دائم (٤) دوار ـ هائم فوار . لا يسبر غوره ولا يشبر قطره — شد ما أدهش سكروج وتلك حاله أن يسمع ضحكا طنانا . وصوتا رنانا . وأدهش منه أن يعرف في ذلك الصوت صوت ابن أخيه وان يلقى نفسه في غرفة محكمة محبوكة الاطراف مشرقة دفيئة عن يمينه العفريت قائما يبتسم ناظرا الى ابن الاخ المعهود عن منتهى الحب والرأفة

« ها ! ها ! ها ! ها ! » شد ما أمجد ابن الاخ في الضحك وأتهم (٥)

واني أنشدك الله أيها القارىء أن تكن تعرف انسانا قد بورك له في ضحكه كما بورك في ضحك ابن الاخ هذا فلتجمع بيني وبينه أحملها منك نعمة لا أزال لك عليها مدى الدهر شاكرا

أن من عدل الله انه لم يجعل العدوى مقصورة على ما كان شرا بل جعلها كذلك في الطيبات والفوائد ومن بينها الضحك والمسره . فلما أغرب ابن الاخ فى الضحك قهقهت كذلك زوجته (وكانت ابنة عمته) وفعل مثلهما سائر الجلساء من الصحب والاخدان .

« ها . ها . ها . ها . ها . »

قال ابن الاخ « لقد قال عن عيد الميلاد انه حديث خرافة ولقد كان يعتقد مايقول »

---

١ دمث الان ورقق يقال مهاد دمث أى لين وخلق دمث أى سهل لا وعورة فيه
٢ أوساط وأعراض ٣ هو الجو وهو أيضا العطش والمراد به هنا الجو ٤ هنا بمعنى دائر
٥ يقال انجد فى الامر واتهم اذا بلغ فيه اقصى مبلغ

فقالت ابنة أخت سكروج أعني زوجة ابن أخيه « أخزاه الله وأبعده . » وغضبت أشد الغضب . حياك الله أيتها المرأة وحيا الله النساء جميعا فما لديهن والله مصانعة ولا مداجاة يغضبن للحق مجاهرات ولا يخشين في الله لومة لائم

وكانت مليحة حسناء بانف كحد السيف فتانة الدلال قتالة الطرف . وفم كالخاتم وثغر كالرحيق المختوم و برد الغمام فى لعاب النحل وخد

مفدى يسمي باسم فيها مقبل	اذا قيل للخد الشتيم ملطم
على انه مغرى به العض مولع	وليس له ذنب سوى الحسن ينقم
يظل اذا ابدى لنا منه صفحة	تلذ بها أبصارنا وتنعم
يوليه أطراف الثنايا وانه	ليدمي من الالحاظ بل حين يوهم

وعينان كاشرق ما أنار للعاشق طريق الحب وهو مظلم . واضاء ليل الهجر وهو مبهم ، وجيد كابريق اللجين . وصدر مشرق النحر ناهد الثديين ؟ وقصارى القول فلقد كانت فتنة الناظرين . و بلية العاشقين . ونزهة المتأملين . تبارك الله أحسن الخالقين

قال ابن الأخ « انما هو شيخ غريب الخلق أنعى عليه فرط تبرمه بالناس وشدة انقباضه غير ان ذنوبه هي في ذاتها عقوبات له فلست زائده بالهجاء »

قالت ابنة أخت سكروج « أنا لا أشك في انه عظيم الثروة . فلقد طالما قلت لى ذلك »

قال زوجها « وماذا يفيده ذلك ألا ترين ان ثروته ليست له وانما ينزل منها منزلة الخازن الأمين

دائبا يكنز القناطير للوا	رث والعمر دائب فى انقضاء
حبذا كثرة القناطير لو كا	نت لرب الكنوز كنز بقاء

ولكن مالنا وماله دعيه يفعل ما بدا له فلله في خلقه شؤون »

قالت ابنة أخت سكروج « لقد والله ضقت بهذا اللئيم ذرعا » ووافقها على ذلك أخواتها وسائر من بالمجلس من النساء

قال ابن الأخ (ولكني لم أضق به ذرعا فصبرى عليه جميل واني عليه لآسف

واباه أرحم وله لا لغيره أتوجع وكيف وانما نفسه يضيم وذاته يهضم ودنياه يفسد ودينه يهدم وماذا علينا أن يخل بالمروءة ويزرى بالمجد وماذا علينا أن يجفونا ونحن قومه ويقطع رحما مازلنا نصلها وينكث أسبابا لانبرح نمرها ائمانه وعليه ذلك وليس بنا ولا علينا أما لو انه أجاب الدعوة وزارنا اليوم لكان أقل ما أجدت عليه الزيارة أكلة كريمة وطعمة طيبة)

فوافقت الزوجة علي ذلك ووافق القوم جميعا وكانوا قد فرغوا من العشاء ولما يقربوا الحلوى

قال ابن الأخ (يسرني والله أن أسمع جزيل الثناء على طيب طعامنا لاني لا أحسن الظن بمن كان فى حداثة زوجتي ولا أحسب أن غير النصف(١) من النساء ملئ بحسن القيام على بيته وليلتمس بعد رأى (توبار) فى هذا الشأن ماذا تقول ياتوبار ؟)

وكان توبار قد مال الى احدى أخوات الزوجة واشتهاها حتى قال ردا على سؤال الزوج (ليس لعزب رأى ولا عقل وانما هو ذلك الشقي المنكوب خير ما يفعل به أقصاؤه ونبذه)فلما قال ذلك توردت وجنتا الغادة المعرض بها— وهي السمينة ربة المشبك لا ربة الورد

وقالت الزوجة وصفقت بيديها « أكمل حديثك يافريد (هو زوجها) لحاه الله انه ماأتم حديثا قط وياويحه من عجيب الشأن مضحك الفعال ! »

فقهقه ابن الأخ مستلقيا وقهقه القوم جميعا . وقهقهت السمينة ربة المشبك وهي تغالب نفسها تورعا .

قال ابن الأخ « أقول ان في جفوته ايانا واعراضه عنا مضيعة لفرصة من فرص العمر قد كان له فيها لو اهتبلها منعم ومستلذ ولكنه خدع عنها والشقي عن الخير مخدوع ومن الطيب الحسن ممنوع . وأين له في حانوته القذر أو في بيته الترب اخوان صفاء . واخدان رخاء . كمن حوى هذا المكان وضم هذا المجلس ؟ علي اني لا أمنعه في قابل

---

(١) النصف من النساء التى بلغت اوسط العمر توصف بالعقل والحزم والرأى والحكمة

السنين هذه الفرصة فان شاء أحرزها وان شاء أضاعها . وما أظن الا ان تكرار النصح سيسمع المعرض المصر يوما ما كالسحر ينال به البعيد المنال . والرقي يشفي به الداء العضال . وكالموج اذا تتابع على الصخر ضعضعه . والقطر اذا تواتر علي الاناء أترعه وبعد فلقد أراني هززته أمس بكلمتي »

فضحك القوم من توهمه انه هز سكروج بمقاله وسكروج الذى لو ضرب بالصارم الهندوانى ماشعر . ولو طعن بالذابل الرديني ماارعوى ولا انزجر . وكل من أمل عنده خيرا فكالباذر في الصخرة الصماء . والراقم علي صفحة الماء . والباني على أديم الهواء

فصفح القوم عن ذكره وأعرضوا وأداروا الصهباء . بين العزف والغناء . وكان توبار مديد النفس واسع الشأو

لا تراه هناك تجحظ عين لك منه ولا يدر وريد

وكانت ابنة أخت سكروج عذبة النغمة فى صوتها شجي ورقة تحنو علي مزهر لها قد وسدته صدرها وألقمته ثديها وأقبلت تناغيه كانه طفل لها

أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغني عن الترجمان
غير ان ليس ينطق الدهر الا	بالتزام من أمه واحتضان
أوتي الحكم والبيان صبيا	مثل عيسي بن مريم ذى الحنان
فتراه يفرى الفرى بلفظ	قائم الوزن عادل الميزان
لو تسلي به حديثة رزء	لشفي داء صدرها الحران

فانبرت تغني وتعزف فما صدحت به لحن سهل قريب لو شئت عرفته فى لحظة فانصت سكروج فاذا هو عين ذلك الذى كانت لاتبرح تغنيه أخته ولا سيما يوم ذهبت اليه وهو سجين في المدرسة وقد أطلق العيد سائر أترابه وأنداده كما ذكره بذلك الجني الاول — خيال الاعياد الماضية — فما هو الا ان صدحت ابنة أخته بهذا اللحن حتى تذكر كل ماأراه الجنى فازداد رقة وحزنا وقال في نفسه أما والله لو كنت أكثرت من سماع هذا الصوت فتخذته ناقوس قلبي أوقظ به ضميرى كلما نام عن

واجب البر ورقد عن حقوق المروءة وصم عن داعيات العطف والرقة لكنت قد غرست في ثرى نفسي بذور الكرم والرحمة والنعيم والسعادة دون ان احتاج الى فأس دافن مارلى لبذر ذلك الحب

غير ان القوم لم يقصروا أنفسهم ولا وقفوا جميع وقتهم على الموسيقي بل انصرفوا عن الاغانى الى الالعاب وللعب في بعض الاوقات أوجب من الجد ولا يكون ذلك فى مثل الفسح والاعياد فأول مالعبوا لعبة (البحث والخفاء) فغطوا عيني (توبار) ولم يغطوهما (١) ولكنها كانت تغطية مبهم وتعمية (٢) فطن اليها عفريت عيد الميلاد فكان (توبار) يسير سيرة الاعمى البصير يوهم الناظر انه الضال المتعسف وانه لعين المهتدى ويخيل الى الرائى انه يتحسس و يتلمس ليمسك أيا عثر عليه وانه ليتبع طرفه غادة بعينها ـ تلك الغضة . البادنة البضة . التي اختارها دون سائر النساء . وخصها بمحض الود والوفاء . فاقبل يتخبط و يتعثر يصطك بذلك الباب و يصطدم بذاك السرير يقفو أثرها و يعمد نحوها أينما سارت وايان ذهبت منكبا عمن عداها . حائدا عن كل مخلوق سواها فلو انك اعترضته ابتغاء أن يمسكك (كما فعل بعض اللاعبين) لأظهر أن يحاول امساكك ثم مالبث ان راغ منك وتخلص فضرب فى وجهة الصبية البضة و ياطالما صاحت الصبية البضة ونحك اسأت وما أحسنت وأتيت مفظعا من الأثم وجئت أمرا نكرا ولكنه بالغ في الأثم وأفرط في الاساءة حينما أسرها فى زاوية ببعض الاماكن واخذ عليها المنافذ وسد فى وجهها سبيل النجاة وأهوى عليها يضمها وهى تحاول الخلاص كانها

قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

هذا والله منكر منه لايحتمل ولا يطاق فلما كشف عن عينيه الغطاء وجعل على ناظرتي امرىء آخر و بدىء اللعب كرة أخرى فاختبأ (توبار) وفتاته البضة السمينة وراء

---

(١) أى وضعوا عليهما منديلا فيه خروق غامضة يرى منها فهو يخال مغطى العينين وليس كذلك (٢) أى تلبيسا وتشبيها

ستر من الاستار وقد تأكدت بينهما عرى الالفة وامتدت أسباب المؤانسة وفاضت أحاديث المفاكهة والدعابة أعلمته رأيها الخاص فيما قد أتاه من ذلك الامر الذى نراه نحن منكرا واثما

ثم بدىء لعب الالغاز وذلك أن يضمر ابن الاخ ذكر شيء من الاشياء في نفسه ثم يظن القوم الظنون فاذا أصاب قائلهم قال سكروج نعم واذا اخطأ قال لا فاتضح من اسئلة الجماعة ان المضمر ذكر حيوان ـ حىّ ـ خبيث كريه ـ وحشي ـ له عواء وتارة خوار وربما تكلم وانه يعيش فى لندن ويمشي في طرقاتها ولكنه لا يعرض على الابصار في حديقة الحيوانات ولا يجره سائق ولا يرعي العشب ولا يجتر ولا يتناول الشعير من مزود ولم يذبحه جزار قط وليس حصانا ولا عيرا ولا بقرة ولا ثورا ولا عجلا ولا خنزيرا ولا نمرا ولا ثعلبا ولا ذئبا ولا قطا ولا كلبا ولا دبا . وكلما وجه اليه من مرجمى الظنون سؤال أغرب في الضحك وصك المائدة بكفه والارض برجله وأخيرا صاحت الفتاة الغضة الطرية

(لقد اهتديت) والله وعرفت مقصودك . أجل والله لقد اهتديت !)

قال فريد (وما هو ؟)

قالت الغادة الفطنة (هو عمك سكرو ـ و ـ و ـ وج !)

قال لها (ماعدوت مافى نفسى)

فصفق القوم أعجابا بالفتاة وفرحا بذكائها وفطنتها غير انهم أخذوا على ابن الاخ انه قال (لا) حين سأله سائلهم (ادب هذا الذى تسر ذكره ؟) وكان يجب عليه أن يقول (نعم) اذان قوله (لا) حينذاك كانت جديرة أن تصرف مجرى الخاطر عن ناحية سكروج ان كان قد مال باحدهم ظن نحو هذه الوجهة

قال فريد لقد سبب لنا سكروج الليلة سرورا وأورثنا ذكره جذلا فقبيح بنا بعد ذاك أن نضن عليه بكاس نشربها علي ذكره هاك كاسا أحسوها على صحته ولتحذن حذوى

« على صحتك ياعم سكروج »

فصاحوا جميعا « علي صحتك ياعم سكروج ! »

قال ابن الاخ « عيد سعيد وعام مبارك ونعمة سابغة تضفو علي الشيخ الجهم العبوس أينما كان انا أعلم انه لايقبل مني تهنئة ولا دعاء ولكني لا آلوه علي ذلك دعاء وتهنئة . حياك الله ياعم سكروج وأغدق عليك منه وأفاض معروفه ماحنت النيب . واخضر فى ايكه قضيب . »

فامتلأ سكروج من رؤية هذا المنظر البهيج فرحا حتى لكاد أن يجزى القوم علي جميلهم بمثله فيشرب الراح على صحتهم ويثني عليهم بلسان مسمع خافت (١) لو أن الجني اذن له . ولكن المنظر اضمحل فاملس مع آخر كلمات ابن الأخ والفي نفسه والعفريت يسريان ثانيا .

فما أكثر ما أبصرا ويابعد ماذهبا فكم بيت نزلا . ودار دخلا، وسهل ذرعا ووعر قطعا، وما من بقعة حلها العفريت الا وحلها معه الخفض والرخاء ،والامن والصفاء ، فكم عليل شفا وهموم نفي ، وسليب كسي ، وغريب آنس ومدكر انسي ، وحزين أفرح ومنكوب واسي ، وكم فقير أغني ، وخصاصة (٢) أفنى ، فى الطريق والمسكن فى الفضاء والمسجن. في الكوخ والقصر ، في البر والبحر ، وحيثما حل فذاك موطن البر والانعام ، والأمن والسلام ، وذاك مقام ، أحبب به من مقام ،

وطالت تلك الليلة ان كانت في الحقيقة ليلة بل لأخالها الازمن العيد كله قد اجتمع فى تلك المدة اليسيرة ، والبرهة القصيرة ، ودل سكروج علي ذلك انه رأى الجني قد كبر وشاخ وكان قد آنس ذلك منه من قبل ولكنه لم يفه به له حتي تركا آخر هذه المشاهد فأقبل سكروج اذ ذاك على الجني فقال له وقد لمح الشيب في قذاله

« أهكذا أعمار الجان قصار ؟ »

---

(١) مسمع لانه يحدث صوتا يسمع — خافت لانه كصوت الجان لا يسمعه الانس

(٢) فقر

قال الجني « نعم ان حياتي بهذا العالم لقصيرة آخرها الليلة »
فصاح سكروج « الليلة ! »
قال الجنى « نعم الليلة في جوفها ، ولكن صه ! فلقد أرى الأجل قد أوشك »
فاصغى سكروج فاذا النواقيس تقرع الارباع الثلاثة بعد الحادية عشر من المساء
قال سكروج ونظر الى ازار الجني « عفوا سيدى ان لم يكن ماسأقوله حقا ، اني أرى عند ذيلك شيئا منكرا ماأظنه منك ، ماهذا ؟ أقدم أم مخلب ؟ »
قال الجني آسفا محزونا « انه ربما كان مخلبا ، ولكن تأمل »
ثم أخرج العفريت من غضون ازاره طفلين بائسين شقيين بشعين أشنعين، فركعا عند قدمه وتشبثا بذيله
وقال الجني (أيها الرجل انظر هنا ! تأمل وتدبر ماهنا !)
وكانا صبيا وصبية قد اجتمع فيهما النحول والصفرة والذبول ونظرة اللبؤة الضارية وقرم (١) الضبع الغرثي ، فحيث كانت العين تنتظر رونق الشباب الرقراق ، وماء الجمال الغيداق ، من طرف كحيل ، الى خد اسيل ، الى ورد على الوجنتين نضير ، وعذب دون الشفتين نمير ، يجول في اقحوان منير ، تردد العين من هذا وذاك بين روضة وغدير ، كنت لاتبصر الابدان اضاويا ، وعظما عاريا ، وخدا ذاويا ، واديما باليا ، وحيث كنت تنتظر مسفر الملائكة لم ترالا مطالع الابالسة ولوانك جست خلال جهنم وفتشت أركان الجحيم لتري أبشع من هذين واشنع لاعياك ذلك وأعجزك
فأحجم سكروج مرتاعا وارتد مذعورا . وكان العفريت قد عرضهما عليه وسأله أن ينظر اليهما فاراد كيلا يخجلهما أن يقول أنهما جميلان ولكن أبي ذلك عليه لسانه ولم يطاوعه منطقه
قال سكروج « أيها العفريت ! أهما لك ؟ خبرني . »
قال الجني ونظر اليهما « أجل يارجل . وانهما ليستجيران بي من شر أبويهما .

---

(١) شدة الجوع

أما هذا الصبي فهو الجهل وأما الصبية فانها الحاجة فاحذرهما جهدك . وليكن أكبر حذرك من الصبي فلقد اقرأ على جبينه هذه الكلمة « القضاء » فاحذره أيها الرجل وأبرأ الى الله منه . فاما ان تتبناه وتتخذه الى كل مقصد خبيث سببا فلك الويل وعليك العفاء »

قال سكروج « أما لهما من ملجأ ولا معاذ ؟ »

فقال الجني رادا عليه بالكلمة التي قالها لطالبي الاعانة سالفا « أليس في البلد سجون أليس في البلاد ملاجئ ؟ »

ثم دق الناقوس اثنتى عشرة »

وأرسل سكروج الطرف يلتمس الجني فاذا هو قد غاب عن العيان . ولما اضمحلت في الهواء أخرى دوى الناقوس تذكر سكروج أنباء مارلى ثم رفع طرفه فاذا خيال وقور مهيب ملتثم مقنع يدنو اليه كانه قطعة من الغيم

الفصل الرابع

آخر الخيالات

وأقبل الجني رويدا تعلوه هيبة ووقار فلما دنا من سكروج خر سكروج راكعا اذ كان الجني كانما يبث فيما حوله من الهواء ظلمة وخفاء

وكان ملتفا في عباءة سوداء قد سترت رأسه ووجهه وبدنه الا يدا ممدودة لولاها لما ميزه البصر من الليل ولما عرفه الناظر مما يحفه من الظلماء

فلما وقف بجانبه رآه مديد القامة قد نفث مرآه في روعه (١) روعا (٢) وأشعر نفسه فزعا . من حيث لا يفهم له أصلا ولا فرعا . وكيف ولقد كان الجني صامتا لا حس ولا حركه

قال سكروج « في حضرة خيال المستقبل أقوم الآن ؟ »

فلم ينطق الجني بجواب ولكنه أشار الي الأمام باصبعه .

قال سكروج « أنت الذى ستريني من الامور والاحوال مالم يكن وانما سيكون فيما يستقبل من الزمان أليس كذلك ؟ »

فكانما حرك العفريت رأسه اثباتا . ولكنه لم يعط غير ذلك جوابا

وجعل سكروج على طول اعتياده رؤية الخيالات لا يتماسك من خوف ذلك الجنى وقد تقضقضت أنيابه وارتعدت فرائصه وخارت قواه فما أطاق على قدميه اعتمادا فوقف الجني برهة كانما قد عرف حاله وأراد أن يمهله ريثما يربط نافر جاشه

---

(١) الروع بضم فسكون القلب (٢) الروع بفتح فسكون الوجل

غير أن سكروج ازداد على ذلك رعبا فخفز احشاءه واطفر لبه علمه ان وراء تلك العباءة السوداء ودون ذلك اللثام الاحم (١) مقلتا عفريت من الجان تحدقان اليه على حين انه لا يرى منها حد الطرف وأرهف البصر الا يدا ممدودة وكثيبا أسود

فصاح سكروج « خيال المستقبل . اني لأخافك خوفا لم أخفه من خيال قط بيد اني اذ كنت أعلم انك للنفع جئتني وبالدواء الناجع قصدتني وأرجو ان الله سيقيني كيما أتوب اليه من كل اثم واقلع عن كل حوبة وجرم كنت خليقا أن أحتمل صحبتك بل اشكر نعمتك . الست مطلقا لي بعد من لسانك ؟ »

فلم يحر العفريت جوابا وكان لا يزال يمد يده

قال سكروج « سر بنا الى حيث شئت أيها الجني سر بنا . فلقد أرى الليل يبلي سرباله وما أنفس الليل عندي الليلة . »

فانساب الخيال وانساب سكروج في ظله وكانه والله يحمله و يسبح به

ثم نظر فاذا هو وسط المدينة وكأنها نبعت حوله ونبتت حتى أحدقت به وأحاطت واذا هو بين جماعة التجار يجيئون و يذهبون يصبون الدنانير في جيوبهم يقرع الدينار الدينار . و يتلو النضار النضار . قد انقسموا فئات وفرقا يتحادثون و يتساءلون و ينظرون في الساعات و يعبثون باختام من الذهب الابريز عبث المفكر الذاهل ويأتون غير ذلك من الامور ما كان سكروج به جد عليم

ووقف الجنى عند زمرة من هؤلاء وأشار نحوهم فلما رآه سكروج يمد تلقاءهم يده اقترب منهم ليسمع حديثهم

قال رجل ضخم سمين عظيم الذقن « كلا أنا لا أعرف من ذلك الأمر شيئا بل كل ما بلغني هو انه قد مات »

فقال آخر « ومتى كان ذلك ؟ »

---

(١) هو الاسود وأصله من الحمم وهو الفحم . والمحمم المسود بالفحم قال الشاعر

وهاجرة بيضاء يعدى بياضها سوادا كان الوجه منه محمم

(ليلة أمس)

قال ثالث (بل كيف واني وماذا دهاه وماذا كان خطبه ؟) ثم تعاطى كما وافرا من السعوط وقال (ماحسبت والله انه يموت أبدا)

قال الاول متثائبا (الله وحده يعلم كيف قضى (١)) ثم تمطى متثائبا

فقال رجل أحمر الوجه قد تدلى من أنفه خيطان من مخاط يهتزان كأنهما رشا آن (٢) ماذا صنع بأمواله ؟)

قال الاول وتثاب مرة أخرى (لم أسمع ماذا كان من أمر ذلك وانما كل ما أعرف منه هو انه لم يورثنيه)

فتلقى القوم هذه الفكاهة بضحكة عامة

واستمر ذلك المتكلم فقال (ليت شعرى انى تشيع له جنازة وما أحسب ان أحدا من خلق الله سيمضي الى دار الميت فماذا ترون فى تطوعنا جميعا في هذا الشأن ؟)

قال صاحب المخاط (أنا لا أضن بالتوجه اذا أيقنت انه لا يضن علي بالغداء ولكن الغداء قبل كل شيء »

ضحكة اخرى .

قال الاول « ما ارى فينا بريئا من الغرض خاليا الاطماع سواى . فانا من يشهد جنازة الرجل ولا يطلب غداء ولا عشاء فمن شاء منكم ان يذهب فانا رفيقه ولا ادرى بعد على كنت والميت خلي صفاء وخدني وفاء فلقد كنا لا نلتقي الا على حلو سلام وعذب كلام ولا نفترق الا على صفو وداد ووشك ميعاد . ولكنه قضاء الله

ثم مضي الجمع واختلطوا بغيرهم من اهل المدينة وكان سكروج يعرف اولئك المتحاورين فنظر الى الجني مستفهما

غير ان الجني انساب في الطرقات واشار بالاصبع الى رجلين قد تواقفا فأصغى سكروج اليهما ظنا منه ان في حديثهما تبيان ماقد غم عليه من كلام التجار واستبهم .

---

(١) مات (٢) الرشاء حبل البئر (السلبة)

وكان يعرف هذين الرجلين ايضا وكانا تاجرين كذلك من سراة القوم ومثريهم ومن اخص اصدقائه ومن يجلونه ويعظمونه ولكنها صلة تجارية واحترام خلو كلاهما من كل اثر لعاطفة الفؤاد واجلال النفس للنفس

قال احدهما للاخر (كيف حالك ؟)

قال الثاني (بل كيف حالك ؟)

قال الاول لقد توفي الهرم « سكراتش »(١) وجاءه بعد طول الكدح والكد والجمع والكنز يومه كسائر الناس و وافاه أجله »

قال الثاني « قد بلغني ذلك . شديد والله البرد هذا اليوم . »

« هو كما تقول ولكن عيد الميلاد يناسبه البرد بيد ان شكواك القر تدلني على انك لست من فرسان الثلج ولا لك بالتزلق عليه حذاقة »

لا . لا . دعنا من هذه المسائل سلام عليك . »

هذا كل ما دار بين الصديقين وهكذا كان اللقاء والمحاورة والافتراق

فكان أول ما خامر نفس سكروج من هذا هو تعجبه العجب كيف جعل لمثل هذه المحاورات التافهة قيمة فلفتت اليها سمعه ولكنه مالبث ان خطر بباله انه لابد أن يكون للامر سر وخلف هذا الشيء الظاهر باطن مستسر . فاقبل يفكر ماذا عسى يكون ذلك المضمر الخفي . أفي أحاديث القوم ايماء الى وفاة مارلى ؟ كلا فلقد كانت وفاة مارلى فيما مضي من الزمن . وانما مجال هذا الجني هو المستقبل ولم يذكر سكروج في أقاربه وذوى الصلة الشديدة به من هو جدير أن يطبق عليه تلك الاقوال ولكنه عرف انه كيفما يكون المقصود بهذه الكلمات فان فيها ماهو خليق أن يكون هو نفسه المعني به وان فيها لعظة له وعبرة لذلك عزم على أن يحفظ كل حرف وان يعي في قلبه كل صورة وان يرقب بمقلة يقظى كالىء خيال نفسه حين يظهر . اذ كان يعلم ان في ظهور خيال مفتاح من استغلق عليه من هذه المشكلات . ومفك ماقد اعتاص عليه من هذه الالغاز المبهمات

(١) مسخ وتشويه لاسم سكروج يراد به الهزء والسخرية والدلالة على اللؤم والشح لان كلمة «سكراتش» هذه معناها بالانكليزية انقضاض المخلب على الشيء بالخدش

فأقبل يفتش في هذا المكان عن خيال نفسه ولكن رأى في موضع نفسه المعتاد رجلا آخر ونظر في الجموع المتهافتة على ذلك الباب وكانت عقربا الساعة تدلان حيث ميعاد دخوله من الباب المذكور فلم يجد شخص نفسه بين القوم الداخلين فادهشه ذلك اذ كان قد عزم في نفسه على سيرة جديدة وأسلوب من الحياة مستحدث يرضي به الله والشرف والمروءة وقد انتظر أن يرى ماقد نواه قد بدا لعيانه بواسطة خيال المستقبل وصور له كما مثل لعينه شأناه الحاضر والغابر

وكان الجني قائما الى جنبه مظلما صامتا ممدود اليد فلما انتبه سكروج من ذهوله توهم من اختلاف وجهة اليد ومتجهها منه أن عيني الجني المستورتين تحدقان اليه فاقشعر جلده ووقف شعر رأسه

ثم تركا هذا الزحام وذهبا الى موضع غامض ماذهب قط اليه سكروج منذ كان ولكنه كان بمكانه وشنعته(١) عليما فافضيا اليه بسبل دنسة قذرة ضيقة وكانت البيوت والحوانيت نمامة بضروب البؤس والوان البلاء والناس عراة سكارى جياع قباح والجو بالرياح الخبيثة مفعم وجانب الهواء بالاقذاء والعفونات مثقل والحي أجمعه قد غص بالاثم والمنكر والبؤس والدنس .

في اعماق ذلك الكهف المظلم ـ موطن العار والخزى ومناخ الفحشاء والمنكر كان حانوت متطامن السقف مظلم الارجاء يجلب اليه الاطمار والحديد والزجاج والقناني والعظام وفضلات الذبائح وشحومها وكومات (٢) من مفاتيح صدئة ومسامير وسلاسل ومبارد وموازين وأثقال ونفايات الحديد من كل صنف ونوع وفي الاكوام من الاطمار الرثة والتلال من الشحوم العفنة والمقابر من العظام النخرة كانت تكتن خفايا ومخبآت لايرغب في استطلاعها انسان وكان على باب الحانوت ستار من اسمال باليات يتقي بها البرد رب الحانوت . شيخ سافل يناهز السبعين قد ابيضت لمته . واسودت صفحته يجلس الى نار تحفه بضائع حانوته وقد استوى على فراش له يتعاطى التبغ ناعم البال بين المقاذر

(١) الشنعة سوء السمعة ورجل مشنوع سيء السمعة (٢) يقال كومت كومة لضم اذا جمعت قطعة من تراب ورفعت رأسها

والخابث قرير العين مغبوط الخال

فلما أتي سكروج والجني حانوت هذا الرجل ألفيا امرأة على عاتقها حزمـة تلج الباب ثم ما كادت تفعل حتي دخلت علي عقبها امرأة أخرى محملة مثلها يتلوها رجل مثقل بعبئه كذلك فتعجب كل من رؤية الاخر و بهتوا جميعا برهة ثم قهقهوا جميعا

قالت التي دخلت أولا « قـدما الساعية عليكما وثنيا بالغسالة وثلثا بالدافن وأنت ياجو أيها الشيخ الهرم أنظر فعندى لك صفقة رابحة . »

فاخرج جو المتبغة من فمه وقال ادخلوا الحجرة وانتظروا حتى أغلق الباب. قبحه الله ما أنكر صريره . وما أحسب ان بين هذه الحدائد ماهو أصدأ من مفاصله كلا ولا بين هذه العظام ماهو انخر من عظام تحت جـلدتي » ثم قهقه وقال (كانا والله أشباه فى البلى وامثال فقبحنا الله جميعا . »

فلما صاروا وراء الستر وكان من الاسمال الرثة الرعابيل (١) كما قلنا ارث الشيخ النار بالمسعر ثم اصلح ذبالة المصباح (وكانوا بالليل) بمتبغه ثم اعاده الى فمه

وكانت المرأة الاولى قد ألقت مامعها على أرض المكان واستوت جالسـة على مقعد ورددت بين الآخرين طرفا نافذ الاسهم .

قالت المرأة الساعية للغسالة « مابالك كالخائفـة يا أختاه ! أنا أضن بك من أن أخيفك منى وما كان أحدنا لينحت أثلة أخيه و يقرع صفاته »

قالت الغسالة (واسمها المسز ديلار) والدافن معا « كلا ياأختاه ما كنا لنؤذى بعضنا بعضا ولو فعلنا لساءت العاقبة و بعـد فلولم يأخذ كل منا من متاع ذلك الميت ماأخذ لـكان هو الخاسر المغبون دون الميت »

قالت المسز دبلر ضاحكة « الحق معك »

قالت الساعية « وليت شعرى أكان الشيخ الخبيث يريد أن يحمل معه أمتعة بيته الى عالم الآخرة وهبنا سلبناه أثاث داره وهوميت أما كان هو السبب فى ذلك

(١) الممزقة

ولو أنه ود أثناء الحياة وود وكان آلفا مألوفا لقام عليه في علة الموت الابن البار والأخ الشقيق . والخل الوفي والصاحب الشفيق . ولما وجد أمثالنا الى سرقة أشيائه سبيلا . »

قالت المسز ديلار « هذا وأيم الله أصدق مانطق به لسان . واحكم مافاهت به شفتان . وهو حكم الحق عليه . »

قالت المرأة « ليت هذا الحكم كان أشد وأقسي ولقد كان يكون كذلك لوان يدى نالت من أمتعته فوق الذى نلت » ثم التفتت الى الشيخ صاحب الحانوت فقالت « فك الحزمة ياجو وقوم ما بها وافصح عما فى ضميرك ولا توارب »

ولكن الدافن سبقها الى عرض بضاعته ففك حزمته وأظهر أمتعته وما هي الا ختم أو اثنان ونصاب قلم وازرة اكمام ومشبك رخيص فنظرها جو متأملا وخط على الحائط بالطباشير أثمانها كما شاء ثم جمع الأثمان في حاصل

وقال (هاك حسابك لاأزيد فيه درهما ولو أوعدت بالقتل وراءه جهنم من بعده؟)

فتقدمت المسز ديلر فقدمت اليه ملاء وصندوقا خاليا وملعقتين من الفضة قديمتى النمط وبضع أحذية . فرقم لها الشيخ مبلغها على الحائط كذلك

وقال (مازلت الي النساء دون الرجال ميالا وهو صنف من الضعف والسفه وطريق الى الخسر والخراب وبعد فهذا مبلغك فان تستزيديني فيه درهما كنت جديرا ان أندم على ما كان مني من تبذير فانقصك شلنين

وهنا قالت المرأة الاولى (الآن فك حزمتي ياجو)

فجثى جو على ركبتيه ليسهل عليه فكها حتي اذا حل عدة عقد تناول لفافة ثقيلة من شيء اسود

قال جو (ماذا تسمين هذه ؟ أهي كلة(١)

قالت المرأة وضحكت (اجل هي كلة)

---

(١) ستر رقيق يضرب حول الفراش (الناموسية)

قال جو (ما أظنك قد انتزعتها بحلقاتها وعراها وازرارها وتركته على سرير الموت بلا ستر ولا غطاء ؟)

قالت المرأة (بلى قد فعلت ذلك ومالى لا افعله)

قال جو (هنيئالك لقد كتب الله لك السعادة وقد نلتها)

قالت المرأة في جفوة وقسوة (ان مذهبي في الحياة ان لا ادع قط ما تناله يدى ولا سيما كان من متاع مثل ذلك الرجل)

قال جو (مذهب الحق مذهبك فانعم به وخطة السداد خطتك فاكرم بها)

قالت المرأة (لا تدع هذا الزيت يقطر على الاغطية)

قال جو (اهذه اغطية ؟)

قالت (ومن عسى يكون ربها غيره ؟)

قال جو (ما اراه سيبرد الآن عاريا منها ؟)

(لقد فات به البرد والحر مافات به كل شيء في هذا العالم . ولو انه حي ما نال منه برد ولا قرة وكيف والبرد يخشاه اذ كان احد منه وانفذ)

قال جو (وهذا قميصه ؟)

قالت المرأة (أمتن قمصه وأصفقها نسيجا وأجودها خيطا وانك لتتره عينك حتى يكل بصرها ويحسر عنها فلا تجد في رقعته خرقا أو رثاثة بل كيف وانه خير قمصه وأعنها ولقد كان ضائعا سدى لولاى)

قال جو (ماذا تعنين بقولك كان ضائعا سدى ؟)

قالت المرأة « معنى هذه العبارة انهم كانوا سيكفنونه فيه . نعم لقد بلغ ببعضهم الحمق انه أراد أن يفعل ذلك ولكني اختطفت القميص . ولم لا يكفن في ثوب من الكتان ؟ وما فائدة الكتان اذن ولماذا خلقه الله وأما لو لم يصلح الكتان لتكفين مثله فلا صلح لشيء غير ذلك قط فحسبه بالكتان كفنا وما الكفن بساتر من شين

الميت ولا مغطيـا على عواره ولن يذهب قبح القبيح ثوب محبر . ولن يصلح العطار ماأفسد الدهر . »

وكان سكروج يصغى الى هذا الحديث والرعب ملء جوفه . وكان وهم جلوس حول ذلك السلب (١) يطرح عليهم مصباح الشيخ ضوءه الـكليل ـ كان سكروج وهذا شأنهم يلحظهم عن أشـد البغضاء والمقت فلو أنهم أبالسـة شنع وكان ذلك السلب انما هو جثة الميت ذاتها يتساومون فيها لما كان بغضـه لهم على ذلك ومقتـه اياهم بأشد مما وجد اذ ذاك ولا أكثر .

ولما أخرج الشيخ كيسا من الادم (٢) فنقد كلا مبلغه ضحكت المرأة التي قالت المقالة السالفةوقالت هذه عاقبتهفانظروا وهذا ختامه ! لقد كان يخيف الناس حيا(٣) ليفيدناميتا (٤)

قال سكروج وارتعش من قرنه الى قدمه أيها الجني رحمة ورفقا ! لشدما أشبهت حال هذه الميت حالى . ولا يبعد أن يكون ذلك المآل مآلي رحماك اللهم ولطفك ماهذا وماذا أرى !

ولقد كان المنظر الذى امامه قد حال الى ماهو أشنع وأبشع . فنظر سكروج فاذا هو لصق سرير عار لا كلة عليه ولا ستر . فيه الاغطاء من الـكتان تحته شيء مسـتور لاينطق بلسان ولـكنه بلسان العبرة يقرع . وبآية الوعظ يصدع .

وكانت في حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكانت الغرفة مظلمة لاتتبين العين مابها جليا وان حدد سكروج الطرف يديره في انحائها ويجيله مدفوعا بدافع من ذات نفسه يغريه باستبانة الغرفة وما فيها . فبينا هو كذلك اذ ارتفع ضوء ضعيف من الخارج فوقع على الفراش فاذا عليـه جثة رجل

(١) هو الشيء المسلوب وهو سلاح القتيل ولباسه يغنمه القاتل فى الحرب قال الشاعر

ان الاسود أسود الغاب همتها يوم الـكريهة فى المسلوب لا السلب

(٢) هو الجلد (٣) و (٤) منصوبين على الحال اى كان يخيف كل انسان ايام كان حيا ليفيدنا يوم وفاته .

سليب حريب مهمل مطرح لامعني به ولا مبكي عليه

فنظر سكروج الى الجنى فاذا يده الى رأس الجثة ممدودة وكان غطاء الميت غير محكم يزيله عن موضعه أدني حركة من الاصبع فأراد سكروج أن يفعل ذلك حتي يرى وجه الميت ـ نعم لقد أراد سكروج وود من صميم القلب أن يفعل ذلك ولكن اني له ذلك و به عنه رادع من الرعب قد ثني باعه وغل يده .

عزريل ياملك الموت ! ههنا فلتنصبن عرشك الاسود فتكسون اعطافه مرهوب مخاوفك ومهيب مراوعك ! ههنا فلتنشرن ظلمتك ووحشتك وخرستك وسكتتك فهنا موطنك وهذا مقرك ! فاما مصارع الاطهار . ومضاجع الاخيار . ومهالك الحسان . ومماوت الغيد الغوان . فلامحل لك فيها ولا مأوى . ولا منزل ولا مثوى . ولا تحسبنك بطروق غرفة الجميل قد صيرتها مقامك فما أبعد الفرق بينكما وشد ماتنبو بك و يغلب نورها ظلمتك . و يعز أنسها وحشتك . وانك ان غلات تلك اليد فلطالما كان العرف يبسطها وان أسكت تلك المهجة فلطالما كان الكرم ينبضها . فلتطعنن عزريل طعنتك فلتجدن ذلك الجرح يفيض من مكارم الاخلاق بما يملأ الأرض خيرا و برا !

تلك الكلمات لم يلقها في أذن سكروج لسان ولكنه سمعها حينما كان ينظر الى فراش الميت .

ما أسوأ هذا المآل مآلا ! أموت فى حجرة خلاء قد ملأها الصمت وعرتها الوحشة فلا دمعة تنحدر ولا زفرة ترقى . ولا مهجة تنفطر ولا كبد تدمي . ولا باكي ولا حزين . ولا ناصر فى غمرة الكرب ولا معين . ولا ناطق بذكر وتأبين . أجل لقد كان دون الباب قطة تحمل على الباب تبغي الدخول وكان تحت الموقد صوت جرذان تقرض . فليت شعرى ماذا تريد تلك الخاليق في حجرة الموت وماذا تبغي ؟

قال سكروج « أيها الجني شد مايروعني هذا المكان ويرهبني و بعد فان تزل بي عنه فما عظته بزائلة يد الدهر من قلبي ! فسر بنا الى موضع غيره حماك الله وثق بي ولا تتهم قولى ! »

غير ان العفريت لم يحفل برجائه ولم تبرح أصبعه ممدودة نحو رأس الميت

قال سكروج « اني لا أفهم قصدك وما كنت لاعصاك لو كان عندى القدرة ولـكني بعد عاجز أيها الجني وليس في الحق ارهاق عاجز »

فخيل الى سكروج أن العفريت ينظر اليه مرة أخرى

قال سكروج « ان كان في هذا البلد خلق قد ترك موت سكروج أثرا فى نفسه فلتريني أيها الجني بالذى خلقك . »

فنفض الجني شق ازاره كخفق الجناح فاذاهما فى غرفة مستضاءة بنور النهار تعمرها أم وأطفالها .

وكانت تنتظر بعض الناس بفروغ صبر حتي لكانت قلقة تقبل في المكان وتدبر وتراع لكل صوت وتارة تنظر من النافذة وتارة الى الساعة تنظر . ثم تثوب الى غزلها فلا تلبث أن تطرحه ولا تكاد بين هذا وذاك تطيق ضوضاء مراح أطفالها وضجيج لعبهم

حتي اذا عيل صبرها وضاق صدرها أفرج الله عنها بقدوم ذلك الغائب فكانت دقته على الباب أحلي في أذنها من النغم فطارت اليه تقابله ودخل القادم وكان زوجها فاذا رجل حسير لبانات طليح هموم قد رسم العناء على صحيفته(١) آيته غير انه كان عليه اذ ذاك سيما الروح والسرور وكانه من ذلك الفرح خجل فهو يغالبه ليردعه ويقاومه ليزعه

وجلس الرجل الى خوان قد نصب له بجانب النار وقالت الزوجة بصوت ضعيف بعد سكتة طويلة « ما الخبر ؟ »

فبدت عليه الحيرة ولم يدر كيف يجيب ولا ماذا يقول

قالت المرأة (سار أم سيء ؟)

فأجاب (سيء)

قالت لقد ضعنا

كلا . لايزال في الامر رجاء يا كارولين

---

(١) وجهه

قالت مرتبكة أما لو رق ولان فلنا أمل وأما ان كان غير ذلك فلا . على ان لينه كبرى المعجزات ومتى رأينا الحجر الاصم يلين ؟

قال الزوج لقد فات به اللين طارق الحدثان وحال دون رجائنا رقته الحمام

وكانت امرأة سهلة العريكة صبورا ولكنها سرت بنبأ هذه الوفاة وشكرت الله على ذاك مجتهدة ثم مالبثت ان تابت الي الله من فرحها بموت عبد من عباده واستغفرت اليه من ذنبها غير ان التوبة كانت تلو الفرح وكان الفرح أول احساسات قلبها

لقد اتضح لى اليوم ما كان اشتبه على من قول المرأة الثملة التي لقيتها ببابه حين حاولت ان أراه لأسأله امهالنا أسبوعا فقد قالت لى اذ ذاك انه من شدة المرض بحيث لايستطيع لقاءي فاستربت بقولها والتبس على الامر حتى كشف البيان وجه اليقين وحصحص الحق فعلمت أن الرجل كان اذ ذاك يجود بنفسه

قالت الزوجة والى من سيحول الدين بعده

لا ادرى ولكنا سنعد المبلغ قبل تحويل الدين على اني اعلم انه لن يبلغ الدائن الجديد مهما لؤم مبلغ المتوفي من القسوة والشدة وعلى كل حال فقد رفع الله بعض الثقل عن عاتقنا واشعر احشاءنا روحا وبردا وأرانا سننعم الليلة بعد النوم المشرد برقاد هنيء طيب

نعم لقد بثت منية ذلك الرجل بين اركان هذا البيت سرورا وامنا واشرقت اوجه الأطفال من حيث لم يعلموا وانشرحت صدورهم من حيث لم يدروا

وكذلك اطلع الجني سكروج علي ما كان لموته في نفوس بعض العباد من اثر . غير انه لسوء الحظ كان سرورا ذلك الأثر لا كمدا . وحبورا نتيجة تلك الوفادة لاوجدا .

قال سكروج للجنى وقد سقط فى يده ارني اثابك الله قلبا شفه موت ذلك الرجل اوعينا اساها ارني فؤادا عليه يتضرم . او لسانا عليه يترحم ارني مهجة عليه واجفة . أو دمعة عليه ذارفة . ارني شيئا من ذلك والا اعيش ماعشت بحسرة .

فسار به الجني فى عدة طرقات مما يعرف و يألف فجعل سكروج يجيل الطرف يبتغي أن يرى بين سابلتها شخص نفسه وعبثا يبتغى ومحالا يحاول حتى دخل بيت بوب كراتشيت ـ ذلك الذى أزاره اياه الخيال السالف فرأى الام وأطفالها حول النار

والفي المكان بحمد الله ساكنا هادئا وعصا الغلام الاعرج تلك التي كان لها قعقعة بانحاء البيت ودوى مهملة فى بعض زوايا البيت خرساء و بطرس جالس الى كتابة والام و بناتها بين خائطة وغازلة كل على عملها لمقبلة وقد جمدت بينهن مجارى الحديث ونضبت مسايل الفكاهة وخرست تلك الضحكات الرنانة وأغضت تلك الاعين الطاحة وتقنعت بالكآبة وجوه كانت قبل ذلك ضاحكة مستبشرة وتبطنت حرق البث واللوعة قلوب كانت قبل ذلك طربة محبورة »

ثم وضعت الام غزلها على النضد ووضعت يدها على وجهها .

قالت « ان لون القماش ليكد بصرى »

اللون ؟ وا أسفاه عليك ياتايني تم ! (١)

قالت الام « ان عيني الآن أصح . انما يؤذيهما ضوء الشمعة . فلا سكتن الساعة فقد حان من أبيك قدوم وقبيح بي ان ألقاه بعين قذية »

قال بطرس « تقولين قد حان من أبي قدوم ؟ لقد فات والله ميعاد قدومه ولكن لاجرم يا اماه فان الحزن قد أثقل خطوات أبي منذ ليال

وألقى بطرس الكتاب من يده وعاودهم السكون والسكوت . وقالت الام بعد فترة من الزمن بصوت ثابت يستبان في أثنائه روح اليقين وقوة التوكل والتسليم الاجلجة في أخرياته هاجها التذكر

« عهدى به يغذ السير وانه ليحمل تايني تم على عاتقه »

قال بطرس (وكذلك عهدى به وعهدنا جميعا)

---

(١) كان تايني تم مولعا بالالوان فذكر الالوان مذكر بذلك الطفل وكان قد مات فمن ثم يقول المؤلف وا أسفاه عليك ياتايني تم

قالت الام وقد أكبت على غزلها ثانيا (لاجرم فلقد كان تايني تم خفيف المحمل وزاده خفة على أبيه انه كان اليه ميالا و به صبا . و بعد فهذا أبوك بالباب !)

وأسرعت تتلقاه ودخل فجلس الى مائدة الشاى وتبارى الصبية أيهم يكون أسقي لأبيه من ذلك الشراب ثم أقبل عليه الصغيران فجلس كل على ركبة ووضع كل علي وجه أبيه خدا صغيرا كانما يحاول أن يقول له (هون عليك يا أبتاه وتعز بنا عن أخينا !) وأقبل بوب عليهما مسرورا بهما مرتاحا اليهما وجعل يتحدث الى سائر الاسرة حديثا حلوا مألوفا ثم نظر الى غزلهن فأثني عليه وامتدح صنعته واتقانه وأطرى من صانعاته لباقة تلك الايدى وحذق هاتيك الانامل وقال أراه سيكمل قبل الاحد .

قالت امرأته (الأحد ! أذهبت اليوم يا بوب ؟)

قال بوب (نعم يا عزيزتي وليتك ذهبت ولو فعلت لسرك من المكان (١) خضرته ونضارته ولكنك سترينه وتزورينه مرارا . ولقد وعدته أن أغشى ضريحه يوم الأحد سقى الله ضريحه ورعي الله عهده - غلامي غلامى) واستهلت عيناه بعبرة مدرار .

ثم ترك الغرفة وصعد الى حجرة بأعلى الدار مستضاءه بنور مشرق ومزدانة بتحف الميلاد وكان باحدى الزوايا غلام في المهد فدنا منه بوب - أبوه - فجعل يلثمه و يشمه - والولد ريحان الروح ورياه من أريج الجنة - حتى انفرج غمه وسرى عنه فعاد الى قومه ناعما جذلا .

ودنا من النار وظل يتحدث والام وابنتاها علي غزلهن عكف وقال لهن بوب ما اتفق له ذلك اليوم من مقابلة ابن أخي سكروج وكيف قال له ذلك الشاب ورآه مغموما اساءني والله ما أصابكم وشق علي والله ما آدك من هذا الرزء وزوجك الصالحة البارة بيد انى أعجب كيف عرف ذلك ؟)

قالت الزوجة (عرف ماذا ؟ يا عزيزى) قال بوب (انك بارة صالحة)

---

(١) المراد بالمكان هنا الدير الذى فيه قبر ابنهما تايني تم

قال بطرس (كل الناس يعرف ذلك !)

قال بوب (لقد أصبت واجدت فلعل الناس كما تقول . ثم قال لى ابن أخي سكروج لساءني والله هذا الخطب . و بعدفان نابك قط ماتراني قادرا على دفعه عنك أورغبت يوما ما فيما تظنني خليقا أن أنيلكه فاعمد الى واثقا بالنجح وهاك عنواني) ثم أعطاني بطاقته . أمتعه الله والله ما كان وعده على حلاوته بالذ فى قلبي من الطف تودده وعذوبة قوله)

قالت المسز كراتشيت (حياه الله من كريم متفضل !)

قال بوب (انك لو ترينه لحقق ماتقولينه عنه الآن ولأربي (١) عليه . وانه لن يدهشني منه — اصغى الى قولى هذا — انه سيرفع نجلنا بطرس الى عمل أشرف مما يباشر اليوم واجدى)

قالت المسز كراتشيت « اسمع يا بطرس »

فصاحت احدى البنات وحينئذ ترى بطرسا قد اسقل بأمر نفسه وأصبح بين رجال الاعمال رجلا محترما ينادونه بالمستر

قال بطرس ضاحكا « دعينا من هذه السخرية ! »

قال الاب « انه ان يكن مزحا اليوم فسيكون غدا جدا وأمرا واقعا ولكن عدوني يا أولادى انه مهما يكن من تفرقنا وانفصالنا فلا ينس أحدكم ذكرى تايني تم . ذكرى أول فراق أصابنا »

فصاحوا جميعا « انا نعدك ذلك يا أبانا ولسوف نذكر أخانا ماطلعت الشمس »

« ما أسرني الآن وما أسعدني ! »

وهنا قامت اليه زوجته فقبلته وقبله كذلك البنتان والصغيران و بطرس

روح تايني تم ! لشد ما ألفت بين هذه النفوس ونظمت حبات هاتيك الضمائر

روح تايني تم ! هل كنت الا شعبة من روح الله ونفحة من نفحاته !

---

(١) زاد

قال سكروج « اني لأحس من حيث لا أعلم ان ساعة فراق بيني وبينك قد أقبلت فنبئني من كان ذلك الميت الذى رأيته بالغرفة الخالية الصامتة ؟

فسار به الجني الى حوانيت التجار ولكنه لم يره شخص نفسه وكيف ولقد كان يسرع به لايلوى على شيء يؤم غاية له مقصودة حتى ابتهل اليه سكروج أن يقف به على احدى الحوانيت برهة فوقف

قال سكروج « هذه (١) الحانوت حانوتي فأرني ماذا يكون من شأني فيما هو آت من الازمان ! »

فاومأ الجني بيده الى جهة أخرى .

قال سكروج « هذا هو الحانوت فمالك تشير الى تلك الناحية ؟ »

فجمدت أصبع الجني لاتتحول

ولكن سكروج هرع الى نافذة حانوته فنظر فاذا هى ليست له وقد تغير أثاثها واستوى في مجلس سكروج رجل غيره

وأصبع الجني شطر تلك الناحية لم تتحول . فرجع الى العفريت ومضى معه وهو يعجب الى أين يذهب به حتى اتيا بابا من حديد فوقف به ينظر حواليه قبل ولوجه فرأى مدفنا .

فقال في نفسه « وكذلك فى هذا المكان يثوى ذلك الشقى الذى سألت عنه الجني ! »

وكان مكانا شريفا يحدق به سور من المنازل وقد زكا به العشب والكلاء مما أنبت الموت لا الحياة وقد اكتظ بالموتي ونال من كف المنون ريه وشبعه

ووقف الجنى بين الاجداث وأشار الى أحدها فسار نحوه سكروج مرتعدا

قال سكروج ووقف « لى عليك سؤال لا أدنو من القبر حتى تجيبه أهذه خيالات مالا بد أن سيكون أم خيالات مايجوز أن يكون أو لايكون »

---

(١) الحانوت يذكر ويؤنث

فلم يلتفت اليه الجني وبقيت أصبعه شطر ذلك الضريح.

قال سكروج ملحا (ان سيرة المرء لتنذر بعاقبة سيصير لامحالة اليها ان هو لج في سيرته ولم يحد عن طريقته فاذا نكب عن منهاجه صار الى غير تلك العاقبة. فقل لى أعلى عين هذه القاعدة يجرى أمر ماتريني الساعة؟)

فلم يلتفت اليه الجني ولا تحرك.

فحبا سكروج نحو القبر راجف الاوصال حتى أتي القبر فاذا عليه هذا الاسم (ابنزير سكروج)

فصرخ سكروج وخر الى ركبتيه قائلا {أأنا ذلك الرجل الذى رأيته على سرير الموت بالغرفة المهجورة؟}

فترددت الاصبع الممدودة بين القبر وبين شخص سكروج

وصاح سكروج {كلا أيها الجني كلا! كلا أيها العفريت كلا!}

ولكن الاصبع لم تزل تتردد بين شخصه وبين القبر.

فصاح سكروج وتشبث بازار العفريت {أيها الجني} أنصت الى؟ واعلم اني لست كما تعهد وسيراني الله بعد اليوم برا صالحا. فلماذا تعذبني بمثل هذا المشهد الاليم مادام في للتوبة موضع؟}

فرأى سكروج يد الجني لاول مرة

ثم ان سكروج ركع بين يدى العفريت وقال رحمة بي أيها الجني وحنانا ولتكن ياخيال المستقبل شفيعى لدى الله ووسيلتي وما أراك الا كما أود أن تكون وآمل فروح يارعاك الله عني بعدتك اياى تغييرا لهذا المستقبل اذا أنا مات عن سيرتي الاولى الى التي هي ابر واتقى»

فارتجفت يد الجني بما يشعر بالرأفة والشفقة

وقال سكروج «بالذى خلق العيد أيها العفريت وجعله سلوة المهموم. وفرجة المغموم. وفرحة الاسيف. وغوث اللهيف. واوان التصافح. وأبان التسامح الا ما كنت وصلتى الى الله وذريعتى. وسببي الى الله ووسيلتى. ولله على أن أقدس عيده ماحييت وان لا أزال أذكر ماضيَّ وآتي. وحاضرى وغابرى. وان أجعل صدرى

مسكننا للخيالات الثلاثة ولتمرني بعد أيها العفريت أن أمحو من صحيفة هذا القبر ذلك الاسم »

ثم ان سكروج تناول يد الجني وشد عليها فتملص الجني من قبضته حتي تخلص

وبينما سكروج يبتهل الى الجني رافعا اليه كفه رأى شخص الجني يتبدل فجعل يتضاءل ويتقلص حتى أبصر سكروج فيه عمود سريره

الفصل الخامس

الخاتمة

نعم حتي أبصر سكروج فيه عمود سريره ونظر حوليه فاذا غرفته وداره واذا زمن العيد باق أمامه يصنع فيه ماشاء كيف شاء ليرضي الله و يعتب(١) الحق والبر والمروءة

قال سكروج مكررا كلمته ونزل عن فراشه « سوف لا أزال أذكر ماضي وآتي وأجمع في وعاء قلبي خيال الحاضر والغابر . يعقوب مارلى ! أنت أسديت الى هذا يعقوب مارلى أنت أنقذتني من النار وخلصتني من العار يعقوب مارلى أنت وعيد الميلا سبب فوزى ونجاتي فلله الحمد ثم لكما »

وكان ثائر الاحشاء من الوجد نافر الاضلع من الهيج متقد الوجه مشتعل المقلتين مبدد الصوت مبعثر المنطق فى حلقه زفرة تعلق لا تصعد ولا تفيء (٢) وفى عينه عبرة تلجلج لا تغيض ولا تفيض قد كان بعثها وجده وجواه اذ يتضرع الى العفريت قابضا علي ذيله

ثم صاح سكروج وضم الى صدره جانب الكلة (٣) الحمد لله انها لا تزال بموضعها لم تنزع بحلقاتها وعراها وأزرارها كما قالت الغسالة لصاحب الحانوت الحمد لله هاهى وها أنا وخيالات المستقبل تلك التى قتلتني رعبا ليست والله بضربة لازب وانما هي طوع رغبتي ان أشأ أكشفها وان أشأ — وحاشاى — أبقها ! »

---

(١) اى يرضيها ويزيل عتبها (٢) ترجع (٣) ستر رقيق يضرب حول فراش النائم (الناموسية)

وكانت يداه أثناء ذلك تعيثان في ملابسه تقلبانها ظهرا لبطن وتضبانها على جسده ظهرا لبطن وتارة تتجاذبانها كأنما تحاولان تمزيقها وآونة تسقطانها ثم تأخذانها فكأنما هما تصارعان أقرانا من الموج في زاخر الحومة غطم

وصاح سكروج « لا أعلم ماذا أفعل » ثم ضحك وبكي فى نفس « اني لأخف محملا على نفسي من الريشة وأسعد حالا من الملك الكريم وأشد مرحا من الطفل وأطيش دماغا من الثمل فالحمد لله الحمد لله وليهنأ بالعيد السعيد كل من دب على ظهر البسيطة ودرج . حيا الله العيد ! سقي الله العيد ؟ أسعد الله كل انسان بالعيد . مليتم يابني البشر أجمعين محاسن العيد ! عيد سعيد ! عيد ميمون الطالع سعيد ! وافرحتاه واطرباه !) وكان أثناء ذلك يمرح ويطفر ويثب ويرقص حتي دخل غرفة الجلوس وقد كدويهر.

وصاح سكروج « هاك المرجل وفيه الحساء » ثم أخذ يطوف بأركان الموقد « هاك الباب الذى منه دخل خيال مارلى ! هاك حيث جلس خيال العيد الحاضر ! هاك النافذة التي من خلالها نظرت الخيالات الجوالة ! ما كان ذلك والله بحلم ولكنه حقيقة محسة . ها ! ها ! ها »

وهكذا أرسل سكروج فى فضاء الدار ضحكة طويلة طنانة فكانت من رجل لا عهد له قبل ذلك بالضحك أمرا عظيما وحادثا جللا وكانت امالذرية من أمثالها مباركة عديدة؟

قال سكروج « لا أعرف أى أيام الشهر هذا ولا أعلم كم مع الجنة لبثت بل لأدرى قط شيئا وكأني والله طفل وما ساءني ذلك لاني أراه خيرا لى وأولى . فالحمد لله الحمد لله ووافرحتا وواطربا ؟ »

ثم اعترض مجرى سروره أجراس الكنائس ترسل أدوى رنينها . وأعلى طنينها كلاش كلانج هامار . دنج دونج . بل . بل . دنج دونج . هامار كلانج كلاش ؟ يالله ما أبهج وما أمتع .

وجرى سكروج الى النافذة ففتحها وأشرف منها . فاذا الجو صاف لا غيم ولا دجن ولا ضباب وانما صحو مشرق في جو شبم وريح قرة - كلما زمر زفافها رقصت له الدماء فى عروقها . وهواء عليه من جونة الضحاء غلائل الذهب وسماء زرقاء غسلتها مدامع الملائكة ونسيم تأكله القلوب وتشربه الضمائر . وأجراس هي كؤوس الآذان أنغامها رحيق المسامع .

قال سكروج لغلام بالطريق فى أحسن ثيابه « أى يوم هذا ؟ »

فصاح الغلام « ماذا ؟ »

قال سكروج « أى يوم يابنى هذا ؟ »

قال الغلام « عجبا والله ؟ هذا عيد الميلاد »

فقال سكروج لنفسه « ابشرى يانفس فهذا عيد الميلاد لم يفتني والله ولم أخسره ولقد فعلت الخيالات أفاعيلها طرا في ليلة واحدة ولا عجب فهى التي كل شيء تفعل لاعجب لاعجب أيها الغلام مرحبا بك . » قال الغلام (شكرا لك ؟)

قال سكروج (أتعرف حانوت الدجاج الذى بزاوية الشارع المجاور ؟)

(أخالني أعرفه)

قال سكروج (لبيب وربك ؟ فطن فهم أريب وربك ؟ ترى هل بيعت الدجاجة السمينة التى كانت معلقة هنالك ـ العظيمة لاالصغيرة ؟)

قال الطفل (أتريد التي في حجمي ؟)

قال سكروج (لله أنت أيها الصبي ماأظرفك وماأخفك. ولله حديثك ماأحلاه وما أعذبه. وما أرى محاورتك الا نعمة من الله ومنة. نعم التي في حجمك ياعصفورى ويابلبلى ؟)

قال الغلام « انها لاتزال بموضعها »

قال سكروج « أهى كذلك ؟ ذلك ما كنت أبغى . اذهب الى صاحب الحانوت فاشترها منه » قال الغلام « أتمزح ؟ »

قال سكروج « بل الجد أقول فاستمع قولى وامض الى صاحب الدجاجة فاشترها منه ومره ان يأتي بها ههنا حتي أوجهه بالدجاجة الي حيث أريد واني معطيك على ذلك شلنا وان تسرع فشلنين . »

فانطلق الغلام كالسهم المرسل بلغ الرامي به المعجس (١)

وقال سكروج لما خلا بنفسه وأقبل يضحك ويحك يديه احداهما بالاخرى « سأبعث بها الى بوب كراتشيت وهي والله ضعف حجم تايتيم . »

---

(١) كبد القوس واذا بلغ الرامى بسهمه اثناء النزع معجس القوس فليس له دون ذاك من منزع وهذا هو الاغراق فى النزع الى النهاية

ثم تناول ورقة فكتب عليها اسم الطريق الذى فيـه بيت كراتشيت واسم المهدى اليه كتب ذلك بيد رعشة من الطرب راجفة من هزة الفرح وأريحية الندى (٢) ثم نزل الى الباب ففتحه ووقف ينتظر الدجاجـة وبينا هو كذلك حانت منـه التفاتة فرأى مقرعة الباب

فصاح ومسح على المقرعة بيده « سأحبها مادام في نفس صاعـد نازل وعهدى بها واست أحفل بهاقط ولا أكاد أبصرها . الا وما أجمـل شكلها وما أبدع تركيبها . هاهي الدجاجة وأفرحتا وواطربا . كيف انت . أحياك الله لكل عام . »

وجاءت الدجاجة ويالها من دجاجـة ما أسمن وما أدسم وما أعظم وما أجسم . ولا والله ماوقفت هـذه الدجاجة على ساقيها وهى حية ولو وقفت لانقصمتا تحتها كما لو كانتا من الشمع صيغتا .

وقال سكروج ضاحكا « ما أظن انامرأ يطيق أن يحملها وما لها عجلة تجرها »

فلم يكن في ضحك الضاحكين ماهو أشد من الضحكة التي شفع بها هذه الكلمة أو التي شفع بها دفعه ثمن الدجاجة أوالتي شفع بها دفعه أجرة العجلة أوالتي أجازمعها الغلام على عمله الا التي عاد بها الى كرسيه فاستوى عليه مبهورا من شدة الضحك حتي بكي

و بكيت من طرب فروى وجنتي دمعى ومن فرط السرور بكاء

وجاس يحلق لحيته وشاربه والحجامة يعلم القارىء عمل دقيق يحتاج الى اناة ورفق وتؤدة وكف سديدة رزينة ولكن النصل كان يحتـل من سكروج كفا رجافة هوجاء حتى لاندب (١) في جلده غيرمرة ومايحس بذلك ولا يشـعر ولو أحس ماىالى مثقال ذرة ولا حفل كلا والله بل لو ان السلاح جار فاطاح أرنبـة أنفه لوضع بدلها قطعة من الجص ولم يحفل بذلك ولم يبل .

ثم لبس آنق ثيابه وخرج الى السبل وكانت غاصة كما بدت له وهو في خفارة خيال الحاضر فـكان لـكل انسان عندسكروج ابتسامة من الفم وعطفة من الجنان وقصارى القول انه كان عليه من سيما الجذل والابتهاج ما استجاب له التحية من كثـير من المارة ممن لايعرفه ولم يكن له به صلة الا البشر والسرور والضحك ولقد حدث سكروج فيما

(١) البذل والجود (٢) خدش

بعد فقال ماصافح مسمعي قط صوت أعذب ونغمة أحلى من قول الذين لم يعرفونى يوم العيد وانما عطفهم على اشراق البشر في وجهي ونور الابتسام في فمي « عيد سعيد أبقاك الله لامثاله . »

ولم يخط خطوات حتى لقى الكهل الذى كان أتاه يستجديه للفقراء والمساكين في حانوته وسأله (سكروج ومارلى علي ما أظن ياسيدى ؟) فحز فى احشائه أن يمقته ذلك الرجل ويزدريه ثم خفف عنه ان طريق الخير لايزال واضحا امامه ومنهج الاعتاب (٢) لايبرح بينا مستنيرا فما عم ان سلكه

قال سكروج لما ان بلغ الرجل واخذ بيديه كلتيهما (كيف حالك ولعلك قد ظفرت أمس ببغيتك ؟ ولنعم ماقمت له وقصدت اليه من عمل الخير وليهنك العيد ياسيدى ولتبقين لامثاله »

« مستر سكروج . »

نعم هذا اسمي ولقد أخاف انه اسم تنبو به اذناك فاعف عني أيها السيد وهب (١) لى ذنبي ثم تفضل على وهمس سكروج شيئا فى اذنه

فصاح الرجل « ياللعجب العجاب خبرني يامستر سكروج هازل أنت بالله عليك أم جاد

قال سكروج « نشدتك الله الاماقبلت مني المبلغ برمته لاينقص دانقا ولا سحتوتا

قال الرجل (لقد قطعت والله لساني بصلتك الجزيـ ــ)

فاعجله سكروج أن يكمل اللفظة قال لاتقل بالله عليك فى هذا الصدد حرفا وقل لى أ آت أنت لتراني .)

قال الرجل (نعم ياسيدى سآتيك)

قال سكروج شكرا لك فلقد أثقلت كاهلى بهذه اليد (٢) الجليلة وامض فى حفظ الله ولازالت ألطافه عليك تترى (٣) ! »

ثم مضي الى الكنيسة فصلى بها وسبح وخرج يجوب الطرقات يرقب الناس بين غاد ورائح وكلما صادف وليدا مسح برأسه ولاس خده أوسائلا أحسن اليه ورفده وطفق يصوب في كل شيء بصره و يصعد فلايقع طرفه على شيء الا وجد له مزية وأصاب فيه فضيلة وامتار منه فائدة أولذة وامتاح من مرآه متعة أو عبرة وعهده بنفسه لا يلتذ السعي

(١) الارضاء (٢) يقال وهب له زلته اى صفح له عنها (٣) النعمة (٤) متتابعة

في السبل ولا يجد علي النظر الى الاشياء ثمرة ولما اقبل العشي عمد الى دار ابن اخيه وطفق يذهب ويجيء امام الباب عشرين مرة وماجرأ على الدخول ولكنه استجمع جأشه أخيرا وأمضي عزيمته .

وقال للخادمة (بالدار مولاك يا بنيتي ؟ ما أحلاك يا صبية وما أملحك .) وماقال سكروج والله الاحقا .

(أجل سيدى)

قال سكروج (فاين هو ياحبيبتي ؟)

(هو بغرفة الخوان مع مولاتي ياسيدى فان شئت قدمتك اليه)

قال سكروج وألقى يده على مفتاح غرفة الخوان شكرا لك ياعزيزتي انه يعرفني وأعرفه فلادخلن عليه وحدى)

ثم أدار المفتاح ومد من بين المصراعين رأسه فرأى الزوج والزوجة يتأملان الخوان وكان حافلا

قال سكروج (فريد)

فصاح فريد ياللعجب العجاب .من هذا ؟

قال سكروج عمك سكروج يستضيفك أفأنت آدبه (١)

آدبه . انه لولا لطف الله لفصل ابن الاخ ذراع عمه من العضد من شدة السرور وقوة الفرح اذ يصافحه وما هي الا برهة قصيرة حتى استأنس أهل الدار بسكروج وارتاحوا واختلط هو بهم وامتزج حتي لكأنهم ربوا في حجره ودرجوا في كنفه وكذلك ألفه كل من جاء بعد ذلك من قرابة الاسرة وامتدت فوقهم ظلال الامن والصفاء واطردت أنهار النعيم واللهو

وفاضت أحاديث الفكاهات بيننا كاحسن مافاض الحديث وأمتعا

و بكر سكروج على حانوته يبادر اليه كاتبه بوب كراتشيت ففتحه وجلس ينتظر الكاتب وجاء بوب كراتشيت بعد الميعاد بربع ساعة فأخذ مجلسه وتناول القلم فأركضه فى الصحيفة كأنه يحاول عليه لحاق الميعاد الذى سبق .

---

(١) داعيه الى طعامك من قولهم ادبه اى دعاه الى الطعام . والمأدبة الوليمة والطعام يدعى اليه

فدمدم سكروج بصوته القديم يقلد ذلك الصوت جهد طاقته « لك الويل والثكل كيف تأخرت عن ميعادك كل هذا التأخير ؟ »

قال بوب « ما آسفني على ذلك وما أحزنني ؟ »

قال سكروج (وماذا يجدى علي حزنك وأسفك ؟ تنح عن مجلسك ؟)

قال بوب كراتشيت وقام من الكرسي (انما هي مرة في العام واحدة لاثانية لها وانما أخرني اليوم اني أغرقت في السرور أمس)

قال سكروج (سأعلمك نيتي أيها الصاحب فاعلم اني لا أطيق مثل تقصيرك هذا ولا احتمل و بناء علي ذلك) وهنا وثب سكروج من مكانه وطرح يديه على كتفي بوب حتي تقهقر بوب فزعا وقال سكروج (و بناء على ذلك سأزيد عمالتك (١) ؟ »

فارعد بوب واقترب من حيث المسطرة وهجس بباله أن يتناولها فيضرب بها سكروج ضربة يخر لها صريعا . ثم يصيح بالناس مستغيثا .

قال سكروج بلهجة لا يستراب بها وليس فيها للشك موضع (عيد سعيد يابوب ؟ وزيادة في عمالتك ومعونة مني لك ولاسرتك ومسعدة وانى مناقشك اليوم في شؤون بيتك فمصلح كل فاسد منها وراتق كل فتق وسيكون حديثنا على عتيق الشراب وناضج الثمار وناضر الريحان وساطع اللهب فارفع النار وحشها قبل أن تنقط حرفا واحدا يابوب ؟)

وما أخلف الميعاد سكروج ولا نكث العهد ولا خفر الذمة ولكنه كان خير من وفي بوعده وبر بقسمه ولقد كان والله لتايني تم الذى أبقاه الله والدا ثانيا . وأصبح لعماله رئيسا بارا رحيما . ولأصحابه صديقا ناصحا حميما . وللصعاليك مرعي خصيبا . وللمساكين كنفا رحيبا . وللخائف المستجير حصنا منيعا . ولرائد المعروف واديا مريعا وبقي على هذه الحال راضيا مرضيا حتى وافاه أجله

تمت نشيد الميلاد

---

(١) مرتبك أو أجرك

